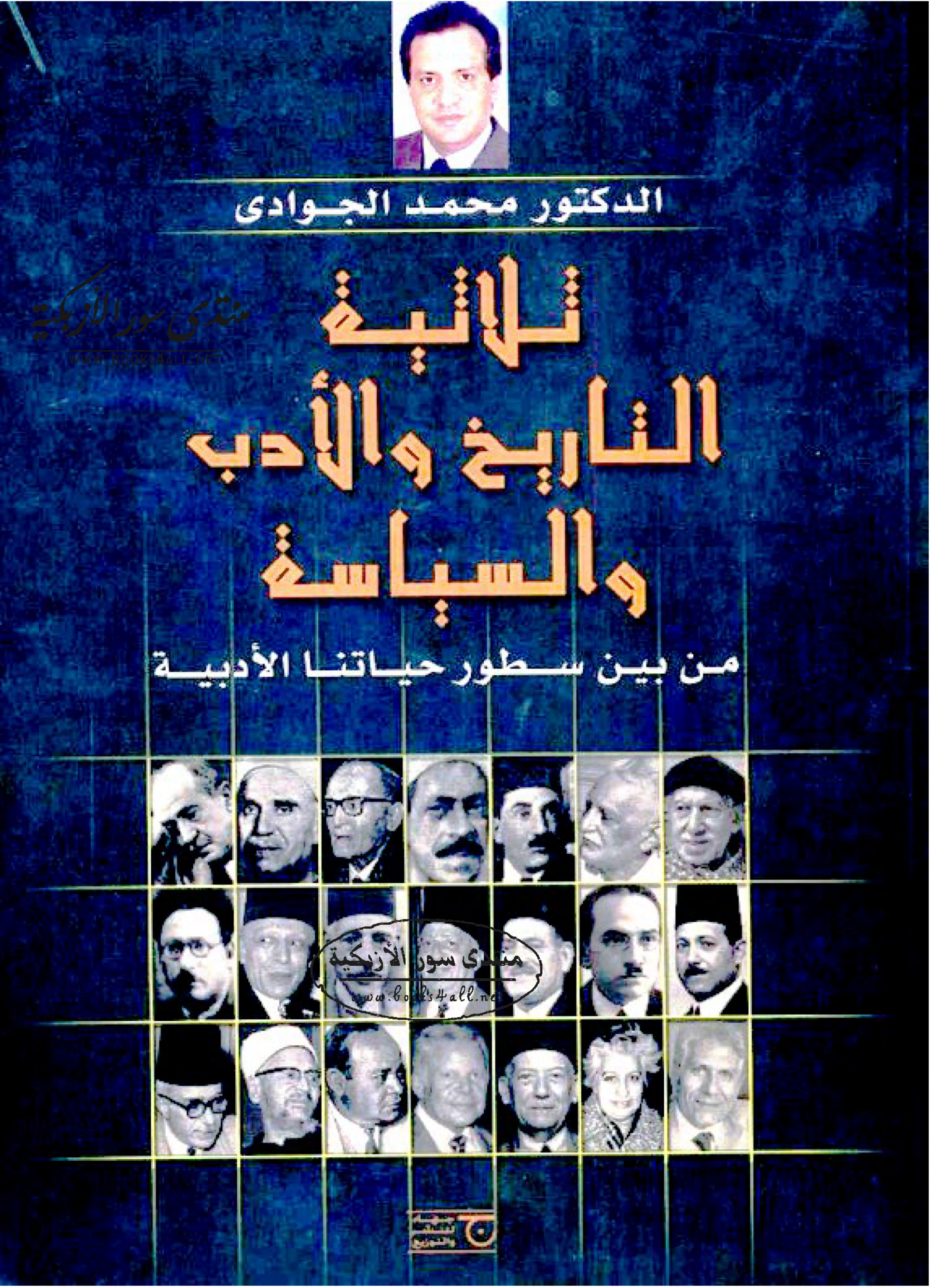

الدكتور محمد الجوادى
ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة
من بين سطور حياتنا الأدبية
منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الدكتور محمد الجوادي

من بين سطور حياتنا الأدبية

ثلاثية التاريخ والسياسة والأدب

جهاد للنشر والتوزيع
٢٠٠٤

من بين سطور حياتنا الأدبية
ثلاثية التاريخ والسياسة والأدب

الكاتب:
د. محمد الجوادى

الطبعة: الأولى ٢٠٠٤
الناشر: دار جهاد
٢٦ ش اسماعيل أباظة ـ لاظوغلى

طباعة :

عربية للطباعة والنشر
٧ & ١٠ شارع السلام
أرض اللواء ـ المهندسين
ت : ٣٥٢١٠٤٣ ـ ٣٢٥٦٠٩٨
فاكس : ٣٢٩١٤٧٩
رقم الإيداع: ١٢٨٥٢ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى: ISBN
977-5684-72-2

إهداء

إلى الأستاذ الدكتور عبد القادر قطب

رمزاً للعبقرية والمثابرة والتفوق

د. محمد الجوادى

هذا الكتاب

هذه مجموعة من الفصول التى تصور حياتنا الأدبية من داخلها، وهى فصول ضرورية للذين يريدون تصور هذه الحياة من حيث هى حياة بشرية تخضع لما تحضع له حياة البشر من ضروب العواطف المتقدة والمشاعر المتضاربة والنفسيات المختلفة والانطباعات المتناقضة والأهداف المتعددة، وتخضع قبل هذا كله لكيمياء العلاقات البشرية التى لم تتمكن الحضارة وعلومها من فك أسرارها حتى الآن. ويبدو لى أن فهم حياتنا الأدبية قد لا يكتمل بدون مثل هذه الفصول، ووددت لو أنى استطعت أن أنشر كثيراً منها، وفى جعبتى بالفعل كثير، لولا أن الزمن لا يسعفنى، ومع أنى أعيش على أمل أن يمتد بى العمر حتى أكتب مثل هذا فإنى لا أظننى قادراً حتى على

أن أتم مـا شـرعت فى إنهـائه من دراسـات تراكـمت علىّ وعلى مكتـبى تجـاربهـا المطبعية.

فــى **البــاب الأول** من هذا الكتاب نتناول بعض الوجوه الأخرى لبعض أدبائنا، فنتحدث فى الفصل الأول عن سر حكمة توفيق الحكيم وطبيعة شخصيته الحقيقية بعيداً عما شاع عنها من صور كثيرة مبتدعة، كما نتحدث فى الفصل الثانى عن موقف العقاد من الملك فؤاد والملك فاروق وكيف تطور هذا الموقف من دخول السجن بسبب العيب فى الذات الملكية فى عـهد الملك فؤاد إلى ما بدا وكأنه مدح للملك فاروق عند بلوغه الثلاثين، ونستعرض من خلال مقال جميل للعقاد مقارنته بين أوضاع مصر فى ١٩٢٠ وأوضاعها فى ١٩٥٠، وهو ما يعود الفضل فيه إلى حقبة الليبرالية التى كانت نتيجة لثورة ١٩١٩.

ونتناول فى الفصل الثالث الوجه الآخر لطه حسين وكيف كان قادراً على إجهاض محاولة إنجاز عمل ناجح هو معجم النجارى الذى أعاد فيه ترتيب لسان العرب وانتوت وزارة المعارف طبعه لولا تدخل طه حسين وتمكنه من السيطرة بطريقة قاسيةً على المناقشات من أجل مثل هذا التعويق.

ونروى فى الفصل الرابع قصة زواج عبد الحميد جودة السحار من خلال نصين مختلفين فى كتابين من كتبه.

❑

وفــى **البـاب الثـانى** من هذا الكتاب نتناول ثنائيات العلاقة بين بعض أقطاب حياتنا الأدبية فنذكر فى الفصل الخامس أطرافا من الاختلافات والخلافات بين أحمد أمين وطه حسين من خلال صورة من أروع ما خطه قلم فى العصر الحديث، تمثلت

فى العبارات التى وصف بها الأستاذ أحمد أمين الفروق بين شخصيته وبين شخصية صديقه الدكتور طه حسين، ومن دون أن يشير فى سطوره إلى أن هذا الصديق هو طه حسين، ونتناول صدى هذه الخلافات فى كتابات ثلاثة من تلاميذهم هم لويس عوض، وعبدالرحمن بدوى، ومحمود أمين العالم كما نذكر فى الفصل السادس موقفاً رائعاً للعقاد من كتاب لتوفيق الحكيم، ونقدم فى الفصل السابع قصة محمود تيمور حين أعاد كتابة بعض قصصه بالفصحى حتى ينال رضا المجمع اللغوى، ونعرض رأيين متعارضين لسهير القلماوى ويوسف السباعى من هذه القضية، ونلقى فى الفصل الثامن بعض الضوء على علاقة الأئمة الكبار من شيوخ الأزهر بالإبداع ونشير إلى عرض الدكتور طه حسين لكتاب ترجمه الدكتور عبد الحليم محمود.

❑

وفى **الباب الثالث** نعرض لبعض الملامح السياسية فى الحياة الأدبية فنستعرض فى الفصل التاسع فكرة رائعة نادى بها وزير معارف ذكى [هو على أيوب] فى ١٩٥١ بإنشاء وزارة للفنون الجميلة وهى فكرة لم نرق إليها حتى يومنا هذا، ونعرض فى الفصل العاشر مفاجأة مذهلة للأيدلولوچية من خلال قراءة مقال كتبه يوسف إدريس فى الأهرام عقب اغتيال الرئيس السادات، كما نعرض فى الفصل الحادى عشر صورة النقراشى على نحو ما صورها أحد المؤلفين من خلال «منام سياسى»، ونعرض فى الفصل الثانى عشر تفاعل الشعراء المصريين مع السياسة الدولية من خلال قصيدتين مختلفتين فى زعيم الهند غاندى، وفى الفصل الثالث عشر نعرض رؤية المؤرخ عبد الرحمن الرافعى المنتقدة لجهود النحاس باشا والوفد فى سبيل إنشاء الجامعة العربية.

❑

أما الباب الرابع فنقدم من خلاله لمحات لتوظيف الأدب فى المعارك السياسية ونقدم هذه الصور من خلال أربعة فصول، فى الفصل الرابع عشر نقدم صورة لهجوم عبدالرحمن الرافعى على فخر الوفد [فى حكومته الأخيرة] بإقرار مجانية التعليم ونقرن هذا بقراءة مقال للأستاذ أحمد نجيب الهلالى جعله على هيئة خطاب موجه إلى الدكتور طه حسين الذى كان بمثابة ساعده اليمنى فى وزارة الوفد السابقة (١٩٤٢ ـ ١٩٤٤) . ونلقى بعض الأضواء على صياغة الهلالى لأفكاره التى بلورتها رسالته إلى طه حسين وصراعهما مع القانونى العظيم الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت.

وفى الفصل الخامس عشر نتناول المقالين اللذين هاجم بهما كل من عبد العزيز البشرى ومصطفى أمين (على مرحلتين متتاليين من الزمن) نزعة آل سرى فى الاستئثار بمناصب الحكومة والسيطرة من خلال هذه المناصب على مقدرات الحياة السياسية وقد جعلنا عنوان المقال «ثلاثة أجيال من الوزراء» قاصدين الأب إسماعيل سرى باشا والابن حسين سرى باشا وزوج ابنة الابن محمد هاشم باشا.

وفى الفصل السادس عشر استعرضنا فكرة تتأمل فى فلسفة المحسوبية وآلية الاستثناءات من خلال نصوص ومحاورات بين الدكتور محمد حسين هيكل باشا وعبد العزيز فهمى باشا وحسين سرى باشا ومن خلال مذكرات الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى وعلاقته بطه حسين ومحمد حسن العشماوى باشا وعلى باشا إبراهيم.

وفى الفصل السابع عشر نسترجع نصاً مهما للدكتور محمد حسين هيكل يتأمل فيه الفكرة المكررة عن عدم وفاء الميزانية بمتطلبات الإصلاح، وهو ما يرينا كيف أنه

كان عنصراً قديماً من عناصر المقاومة التقليدية، والتى لا تزال تتجدد، لنزعات الإصلاح المتميزة.

❑

أمـا البـاب الخامس فنقدم من خلاله صوراً غير معهودة للظلم الذى تعرض له بعض أدبائنا فى بعض الكتابات فى مقابل الإنصاف الذى صادفوه فى البعض الآخر فنعرض فى الفصل الثامن عشر صورة أحمد زكى أبو شادى على نحو ما قدمها خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام ونقدم الصورة الأخرى له التى رسمها الدكتور بدوى طبانة، كما نقدم فى الفصل التاسع عشر صورة سلامة موسى من خلال هجومه على الأقطاب وهجوم الأقطاب عليه ونقدم فى نفس الفصل إنصافاً للرجل على يد عالم جليل هو الدكتور عبد الحافظ حلمى، ونقدم فى الفصل العشرين قصة زكى مبارك حين تحدى المجمع اللغوى بعدما لم يمنحه المجمع جائزة الشعر وننتهز الفرصة لنقدم حصراً بالحاصلين على جوائز المجمع اللغوى فى الفترة السابقة على مقال زكى مبارك.

❑

أمـا البـاب السـادس فنستعرض فيه بعض ملامح الحياة الاجتماعية من خلال بعض النصوص الأدبية وذلك من خلال ثلاثة فصول:

يتناول الفصل الحادى والعشرون قضية اللغة العربية فى أندية الروتارى من خلال نص جميل كتبه المستشار محمد توفيق خليل إلى الدكتور محمد فطين منتقداً لجوءه إلى اللغة الإنجليزية فى إدارة شئون النادى.

ويتناول الفصل الثانى والعشرون بعض ملامح قصة الطربوش والقبعة كنموذج للصراع والتحول الاجتماعى من خلال موقف طلاب مدرسة دار العلوم .

ويتناول الفصل الثالث والعشرون رؤية للصحافة الأدبية المتخصصة فى المجتمعات الإقليمية من خلال مقال كتبته كافتتاحية لمجلة القصة فى كلية طب الزقازيق.

❑

على هذا النحو يمضى كتابنا فى استعراض ثلاثية العلاقة بين السياسة والتاريخ والأدب، وهى علاقة طريفة دافئة حافلة بكل ما من شأنه أن يمتع الفكر والوجدان ، وأن يثرى التجربة الإنسانية على نحو ما يفعل كل أدب رفيع وكل فنٍ مبدع.

والحق أن النماذج التى قدمتها فى هذا الكتاب كفيلة بأن تقدم لنا كثيراً من المعرفة والخبرة بزوايا عديدة من الحياة التى نعيشها والتى عاشها غيرنا من قبلنا، وبقىّ، علينا بعد هذا، أن نفيد من التجارب الإنسانية.

وقد لا أجد حرجا فى أن أعترف فى نهاية هذه المقدمة بما أعترفت به فى مقدمة الطبعة الأولى من أن هذا الكتاب ربما كان فى ظاهره أقل كتبى عمقا، على الرغم مما قد يوحى به عنوانه، وأن أشير أيضا إلى أنه فصول مختلفة مؤتلفة نشأت فى ذهنى فى أثناء مناقشات خاصة «فى الغالب» دارت حول موضوعاتها، وقد آنست من أفكار هذه المقالات نجاحاً فى تكوين أو تحويل أفكار كثير من الزملاء والأصدقاء الذين ينتمون إلى جيل شب فوجد السطور ولم يجد ما بينها، ثم جاءت رياح متعاقبة تحاول أن تزرع من المعلومات أكثرها بعداً عن الحقيقة، وأن تغذى مسلمات هى نتاج الخلط.. وقد أصابت هذه الرياح فى بعض الأحيان نجاحاً فى غرضها، لكنها أصابتنا جميعاً بشىء من الخلط أو الضلال.. ربما كان هذا الوصف أكبر من مثل هذا الكتاب الذى لن يبلغ

نجاحه، مهما بلغ، إلا أن يضىء جزئيات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، ولكنى مع هذا آمل أن تجد الشمعة مَنْ يحملها.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يديم على التوفيق والسداد، وأن يرزقنى الغنى والهدى والعفاف والتقى، وأن يغفر لى ذنوبى، وأن يهبنى قلباً خاشعاً، ولسانا ذاكراً وفؤاداً مؤمنا، وعقلاً يعرف حدوده.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

القاهرة أغسطس ٢٠٠٣.

د. محمد الجوادى

1

الوجوه الأخرى للأدباء

- سر حكمة الأستاذ توفيق الحكيم !
- العقاد يهاجم الملك ويمدح ابنه
- الوجه الآخر لطه حسين: حرم اللغة العربية من نشر معجم النجارى
- قصة زواج أديب السينما عبد الحميد جودة السحار

سر حكمة الأستاذ توفيق الحكيم!

قد يكون من أسرار حكمة الأستاذ توفيق الحكيم أنه لم تكن فى اعتزازه بنفسه تلك الصفات التى قد ينظر إليها على أنها عيوب بارزة، كالتى كانت فى الأستاذين الكبيرين طه حسين وعباس العقاد، وخير ما يصور هذا الخلق، هو ما رواه الأستاذ يوسف السباعى حين أخذ يبحث عمن يقدم له روايته الأولى، وقال الأستاذ السباعى إنه خشى أن يكتب أحدهما المقدمة عن نفسه، وأن يكتب الآخر المقدمة فى نصف حجم الرواية ذاتها!! ولهذا لجأ إلى الأستاذ الحكيم الذى قدم له روايته على نحو جميل وأخاذ.

ولكن الذى لاشك فيه أن ذلك الخلق البارز كان نتيجة تطبع من الأستاذ الحكيم، أكثر من أن يكون طبعا فيه، والأستاذ أنيس منصور بعد وفاة العقاد وطه حسين بزمن طويل كتب يقول إنه جمع بين الثلاثة على خط تليفونى واحد بحيث يسمع بعضهم بعضا، وهم يتحدثون عن بعضهم بآراء صريحة، وكان الحكيم يرى نفسه أنه القمة

بين الثلاثة، لأنه يمثل الإبداع.. مع اعترافه بالدورين الكبيرين لزميليه الكبيرين، وفى مقال طويل نشره الأستاذ صلاح منتصر فى «الأهرام»، واتخذ له عنوانا «قالت لى نوتة الحكيم» ما يتفق مع هذا المعنى.

❑

إذاً فتوفيق الحكيم يتطبع على نحو متميز، وهو فى تطبعه أحياناً ما يصقل شخصيته فى توجهها المترقى نحو القيم العليا، ولكنه فى نفس الوقت كثيراً أيضا ما يحرص على أن يبدو وهو يطبعها بما يسعد الناس (كتاباً عنه أو قراء له) أن يعرفوه عنه وأن يصفوه به..

وأستطيع على سبيل المثال أن أقول إنه أكرم مَنْ عرفت من الأدباء [وقد شرفت بمعرفة كثيرين جداً]، ولكنه كان يتصنع البخل، وإنه كان أكثر الناس اهتماما بالسياسة الوطنية وأمورها، فى كل عهودها، ولكنه تصنع أن يبدو وكأنه لا يهتم أبدا، وكان على نحو ما فصّل فى ذلك القول والبحث الأستاذ صلاح عبدالصبور فى كتابه «ماذا يبقى من هؤلاء؟» بمثابة الوحيد بين أدبائنا الكبار الذى لم ينضم إلى الأحزاب أبدا، وظن الناس لعهد طويل أن ليس لرجل الفن أو (راهب الفكر) بالسياسة أية علاقةحتى فرعوا حين وجدوه فى «عودة الوعى» يكتب فى السياسة، فيكتب بالرمز، ولكنه الرمز الواضح لا الرمز الغامض، ثم جاء كتابه «الحمير» فكان خير مثال للرمز الصارخ لا الواضح فحسب، وحسب الناس أنها نزوة، وأخطأ كثيرون حين جعلوه عنصرا من عناصر حملة، مع أنه لم يكن أبدا عنصرا، وفات علينا جميعا أن القضية لم تكن إلا كما صورها زهير بن أبى سلمى:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

واستقر فى الأذهان أنه عدو المرأة، على حين ظل الرجل دائما على خلاف ذلك: عطف بالغ، وحنان أبلغ، والذين أتيح لهم أن يعرفوه فى حياته الاجتماعية أو فى

حياته الخاصة عن بعد قريب نوعا ما، يستطيعون أن يؤكدوا للناس أنه لم يكن أبدا ذلك العدو. وغير هذا كثير.. إنما يعنينا من هذا كله أنه كان من الذكاء بحيث لا يضيع وقته، ولا جهده فى نفى بعض ما أذيع أو أشيع عنه، حتى إن آذاه فى قرارة نفسه، ولكنه مع هذا كان يستطيع دائماً أن يكبح نفسه، وأن يلتقط الخيط من هذه الخيوط فيرسم به حول شخصيته وصورتها عند الناس أبعاداً جديدة، وأن يصوغ من هذه الأبعاد ما يضيف به إلى مجده، وفى هذا الطراز من التطبع الظاهرى نجح توفيق الحكيم بنفس القدر الذى نجح فنه وأدبه فيه فى تطويع الأحداث للشخصيات، والشخصيات للأفكار، والأفكار للنزعات فى أدبه ذى المستوى الرفيع.

❑

ثم إن توفيق الحكيم نجا من ذلك الخلق الذى قد يصيب المرء إذا طالت أستاذيته، وامتد به الزمن فى التدريس، حيث ينشأ عندئذ فى أدائه العقلى نوع من الخمول الذهنى الذى يكون من أسبابه ومن مظاهره أن يعيد ما قال، وأنه كثيراً ما يبدأ من الأول لأن تلامذته بالنسبة له محدثون جدد يراهم لأول مرة ولابد من أن يأخذ بأيديهم من نقطة البداية!! وهنا يزدهر التكرار أو الإطناب أو التبسيط حين لا يكون له داع، كما يكثر اللجوء إلى التمثيل الذى يكون مختلا إذا ما حاولت النظر إليه لأكثر من دقيقة، وصحيح أن الإنسان لابد أن يكرر فى كثير من الأحيان، ولكن توفيق الحكيم على كل حال نجا من هذا الخلق..

ومن الانصاف ألا نطلق القول فيما تحدثت عنه فى الفقرة السابقة، فقد جاء زمن أصاب الجمهور فيه قدر عظيم جداً من النسيان وتجاهل ما قرأوه من قبل وامتد هذا حتى أثر على أقلام كتابهم الكبار وعلى قلم الحكيم نفسه، فأخذ يفتح كتبه القديمة ويؤشر على عبارات منها قالها أو كتبها منذ أربعين عاما، و هو يكتشف أنه لا يزال لها داعيها، بل رونقها فى هذه الأيام بأكثر مما كان لها يومها، ونشرها على الناس!

كذلك نجا الأستاذ توفيق الحكيم من خلق العجلة الذى تدفع كتابنا إليه ضرورة إنجاز المقالات الموقوتة المسلسلة التى ينتظرها الناس فى أوقات محددة، وقد يتصور

البعض أن الحكيم بهذا لم ينل ما يناله الذين يصنعون الأحداث، ويصوغون الآراء فى وقتها، ومع أن هذا قد يكون صحيحا إلى حد ما، فإن الأستاذ توفيق الحكيم لم ينج فى بعض الأحيان من التأثر بمتطلبات الصحافة ولكنه ظل فى الأغلب الأعم من حياته يفضل النار الهادئة، ولهذا كان زاده الذى تركه للناس فى أغلب أحواله دسما ولكنه مع ذلك غير عسير الهضم.

❑

لعلى أنتقل بعد هذا إلى معنى مهم يتعلق بحب الحكيم لأن يبدو فى أعين الناس وفى عقولهم على السواء طبيعيا، ولعلى ألجأ لتقريب هذه الفكرة إلى ماتعلمته منه: كان الأستاذ توفيق الحكيم يسخر ذات مرة من المصورين الذين يأتون إليه، ويقولون له: ابتسم، أو حرك وجهك هكذا حتى تكون الصورة طبيعية.. وكان يقول لى: كيف تكون طبيعية بعدما وجهوا هذا التوجيه؟؟

ولعلى أقفز من هذه القصة لأقول إن من أسرار عظمة أدب توفيق الحكيم أنه وجه ما شاء الله له أن يوجهه ولكن أحدا من قرائه ولا نقاده قال عنه يوماً ما قاله هو عن مصوريه!!

وقد يكون فى هذا دلالة على صدق قولهم إن الفن ألا يظهر الفن، ولكننا نستطيع أن نقول إن توفيق الحكيم كان كذلك، فقد كان فنه فى كثير من الأحيان يظهر الفن، ولكن على النحو الذى يظهره على أنه طبيعة أو مصادفة أو محض تفكير عابر.. وهذه الخصلة قد لا ترضى كثيرين من الذين يظنون أنفسهم قد تعبوا فى إنتاجهم وصوغه، أو الذين يعتزون بأقلامهم وقدراتهم، ولكن الذين كان من طبعهم الفن الأصيل لا يجدون حرجا أبدا فى أن ينزلوا عن معنى الإبداع وحقوقه، من أجل أن تتركز الأنظار على الإبداع نفسه..

وقد يطلق النقاد على هذه الخصلة اسما من الأسماء الدالة على معانى التواضع..

ولكن الأحرى أن نعتبرها من التطبيقات العملية لخلق التطبع.

العقاد يهاجم الملك ويمدح ابنه

بلغ إيمان الأستاذ العقاد بأفكاره ومثالياته حداً جعله يتفوق على كل زملائه وأقرانه فى إيمانه بهذه الأفكار وعمله من أجلها، وقد دفعه إيمانه بالديمقراطية وبالوفد وبحكم الشعب أن يهاجم الملك فؤاد فى البرلمان فى أثناء حكم صدقى وكانت النتيجة أن قدم للمحاكمة بتهمة العيب فى الذات الملكية وحكم عليه بالسجن ليقضى فيه تسعة شهور كانت بلا شك من أعظم ما فى تاريخه فقد دفع ثمن الشجاعة المتناهية، وناب عن أهله وقومه فى تحمل تبعات الطغيان، وافتدى بنفسه حرية مواطنيه وضرب أروع المثل فى شجاعة الرأى والانتماء للمثل العليا.

لكن هذا كله لم يحم العقاد من المؤامرات الصغيرة المعتادة فى الأحزاب المصرية وغير المصرية، وللأسف الشديد فإن مؤامرات الحاقدين على النحاس نجحت فى أن تفصله عن الوفد قبل أن تمضى ٥ سنوات على تضحيته الكبرى من أجل الوفد

والوطن، وإذا بالوفد فى عهد وزارة نسيم باشا يخاصم هذا الكاتب الجبار، والجبار ليست وصفا من عندى ولكنها وصف زعيم الأمة سعد زغلول له، ومنذ ذلك الحين أصبح العقاد بعيداً عن تيار الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا، ولم يكن من الغريب أن ينضم العقاد إلى تشجيع الفصيل الوفدى الذى تزعمه أحمد ماهر والنقراشى وهو الفصيل الذى كون ما عرف باسم الهيئة السعدية.

ولأن «السياسة» تقتضى بعض «السياسة» فإن العقاد (بعد عشرين عاماً من السجن بتهمة الاعتداء على الذات الملكية) أصبح لا يمانع فى أن يجامل الملك فاروق من آن لآخر، وكان العقاد قد أصبح عضواً فى مجلس النواب مرتين كما اختير عضواً فى مجلس الشيوخ مرتين أخرين، ومن أبرز مقالات العقاد فى مدح فاروق ذلك المقال الافتتاحى لمجلة الهلال (فبراير ١٩٥٠) فى مناسبة بلوغ الفاروق سن الثلاثين، والمقال تحت عنوان «الملك يبلغ الثلاثين» وتحتها بلور العقاد خلاصة ثلاث صفحات هى كل مقاله فى جملتين غريبتين احتلتا السطر الأول:

«بلغ الفاروق الثلاثين، وبلغت مصر الثلاثين بعد هذا الميلاد الجديد».

❑

والواقع أن مقال العقاد نموذج ذكى للتعبير الذكى المتفرد عن نهضة مصر فى عصر الليبرالية أو ما بين الثورتين (١٩١٩، ١٩٥٢) وقد كتبه الأستاذ العقاد ونشره قبل أن تقوم ثورة ١٩٥٢ بعامين ولكن الوضع لم يختلف كثيراً بين يناير ١٩٥٠ و١٩٥٢ حين قامت الثورة، ويمكن لنا أن «ننزع» من المقال الأجزاء الخاصة بالملك فاروق ونقرأ المقال على أنه تعبير عن اعتزاز صاحبه بعهد الليبرالية الذى وصل بمصر خلال ثلاثين عاماً فقط إلى هذه الحال المختلفة تماما عن الحال التى كانت عليها مصر قبل ثورة ١٩١٩ .

وقد حدثت كل هذه النهضة رغم وجود استعمار بريطانى جاثم على أرض الوطن

وذى تدخل فى كثير من الأمور الكبيرة والصغيرة، ورغم حالة عدم الاستقرار السياسى التى لم تمكن أى حكومة من الحكومات المختلفة من البقاء فى الحكم لمدة طويلة ، ولكن حالة الوعى والرقى الفكرى كانت تسمح لهذه الحكومات [المتناحرة على حد وصف بعض اللاحقين!!!] بأن تستأنف جهود الحكومات السابقة [المختلفة معها فى التوجه والسياسة] وأن تحقق من خلال هذه الاستئنافات كثيرا من الإنجازات تضاف إلى بعضها لتكون رصيداً وطنياً ضخماً فى نهاية المطاف، ويكفى أن نتأمل فى أحد الأرقام التى أوردها العقاد وهو رقم الإيراد الحكومى الذى أصبح ٢٠٠ مليون جنيه فى ١٩٥٠ فضلاً عن الديون التى كانت بريطانيا مدينة بها لمصر وذلك مقارنة بوضع اقتصاد مترد فى ١٩٢٠ يكفى لتصويره الإشارة إلى حجم الدين الذى كان على الحكومة المصرية وقد بلغ مائة مليون جنيه فضلاً عن ديون الأفراد المصريين العاديين لجهات أجنبية .

❑

يبدأ العقاد مقاله بإثبات أن الأمة المصرية قد ولدت من جديد حين ولد الفاروق، ومع أنه من الواضح أنه يرجع هذا إلى ثورتها (١٩١٩)، وإلى شعبها، فإن مقاله قد يبدو وكأنه يرجع هذا الميلاد إلى التوافق السعيد!! وسرعان ما يتخطى العقاد هذه الجزئية لتبيين وجهة نظره فى تقدير عظمة الأمم ومقارنته بين حالى مصر سنتى ١٩٢٠ و١٩٥٠ حيث يقول:

«صف الأولى وصف الثانية، تجد أنهما أمة جاءت بعد أمة، وأنهما فى التعريف بهما لا يصدق عليهما وصف واحد بل وصفان، فهما أمة جاءت بعد أمة فى تاريخ الميلاد» .

ويقارن الأستاذ العقاد بين هاتين الأمتين فيقول:

«أمة يبلغ تعدادها اثنى عشر مليونا ويبلغ إيراد حكومتها ١٦ مليونا، وعلى حكومتها

دين يقدر بمائة مليون جنيه، وعلى آحادها ضعف هذا المبغ من ديون المصارف الأجنبية، لا يزيد عدد القارئين فيها على ٧٪ وليس فيها غير جامعة دينية واحدة، وجيشها يقار ب عشرة آلاف من المشاة والفرسان.. إلخ».

هذه إذاً هى أمة ١٩٢٠ عنده، أما أمة ١٩٥٠:

«فيبلغ تعدادها ١٩ مليونا، وإيراد حكومتها ٢٠٠ مليون جنيه، ولها ديون على بريطانيا العظمى يتفاوت تقديرها بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ مليون جنيه، وليس عليها ديون لأحد.. يزيد عدد القارئين فيها على ٢٥٪...».

وينتقل الأستاذ العقاد بعدما عقد هذه المقارنة ليقول:

«أهى تلك الأمة التى عرفناها فى صفتها الأولى؟ إن قلت هى فقل إنها ولدت ميلاداً جديداً كاد أن يجعلها أمة أخرى، وكاد السامع لوصفها أن يحسبها أمتين اثنتين لا تتقاربان فى صفة من الصفات إلا فى التاريخ».

❑

ويركز العقاد فى مدحه لفاروق فى ذلك المقال على أنه ولد مع ميلاد عصر هذه النهضة الوطنية المصرية وإن كان المدح يقتضى الكاتب الكبير أن يصور الأمر تصويراً مقلوباً فيجعل ميلاد الفاروق بمثابة البشرى، وبخاصة أنه جعله بالفعل بمثابة موضوع المقال.. لكن الحقيقة تبقى أوضح من أن يعتورها لبس.

ولنقرأ النص الجميل الذى كتبه الأستاذ العقاد:

«ولدت هذه الأمة قبل ثلاثين سنة، وولد معها مليكها الفاروق، فهما ندان مقترنان، عاما فعام، وخطوة فخطوة، وأملا مع أمل، وفلاحا مع فلاح».

«نما الفاروق ونمت مصر كأنهما كانا على موعد فى صحيفة الأقدار.. واستمع إليها أول ما سمع من دعائها فإذا هو هتاف باسم الحرية ونداء بحقوق الكرامة

الوطنية.. فحقق الله على يديه دعائها واستجاب ندائها.. فلم ينتقل فى مراحل عمره المديد مرحلة كبيرة أو صغيرة إلا اقترنت بها مرحلة مثلها فى تاريخ البلاد.. وهكذا بلغ الفاروق الثلاثين.. أو هكذا بلغت مصر الثلاثين بعد هذا الميلاد الجديد».

❑

ويستعرض الأستاذ العقاد بعد هذا الحوادث الكبرى التى جرت فى العالم خلال هذه الثلاثين عاما وهو يمضى ليعبر عن بعض الحقائق بالصيغة التى تناسب المقام، وإن تعارضت مع مفاهيمه الذاتية فى كثير من الأمور حيث يقول:

«... ويشاء الله تعميما لهذه المشيئة أن يحيط بأفقنا القريب عالم يتجدد ويتقدم، كما أحاط بنا فى آفاق الكرة الأرضية الواسعة عالم يتناوله التجديد فى كل شىء، ولا ينقضى عليه عام وهو على حال واحد.. تغيرت عناوين الأمم العربية، وتغيرت أطوارها».

«ففى سنة ١٩٢٠ كانت تنطوى جميعا فى عنوان واحد يسمى السلطنة العثمانية فأصبح لكل أمة عنوانها تعرف به بين الأمم، وآمنت بوجودها، فآمن بها القريبون منها فالبعيدون عنها، ولا تزال ترجو الخير، ويُرجى لها الخير فى مستقبل غير بعيد!! وهى لا تخلو من متاعبها ومخاوفها، ولكنها متاعب النمو التى تعرض لكل بنية حية كأنها ضريبة من ضرائب النمو والزيادة، فإن الطبيعة لا تعفى الأمم من هذه الضريبة المفروضة على الأحياء.. وهى التى تطلب من الطفل الرضيع ضريبة الفطام، ومن الصبى اليافع البالغ ضريبة النضج، ومن الفتى الناشئ ضريبة التجربة والكفاح».

❑

وفى النهاية فإن الأستاذ العقاد لا يسعه إلا أن يكرر جوهر المعانى التى انطوى عليها مقاله فيقول:

«منذ ثلاثين سنة ولد عالم، وولدت أمة، وولد ملك فى هذه الأمة.. منذ ثلاثين ولد العالم الذى يتوحد عاما بعد عام،وولدت مصر الحديثة التى تتقدم وتتجدد عاما بعد عام.. وولد الفاروق الذى نتبين بأعوامه يمن الطالع وحسن المسعى وبشائر المستقبل المجيد» .

«وفى ضمير الغد(!!) للملك الموفق والأمة الناهضة، آمال فوق آمال، ومجال أرحب وأرغد من هذا المجال» .

❑

بقى أن أذكر أنى كنت قد كتبت هذا الفصل تحت عنوان: «وجهان لعملة واحدة» وبذلك العنوان نشر كفصل من فصول الطبعة الأولى من هذا الكتاب، فلما بلغت النضج وأدركت العلم أعدت كتابته على نحو ما يرى القارىء، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يغفر لى ما انزلقت إليه فى كتابتى الأولى من هجوم على الأستاذ العقاد لم يكن مبعثه العلم ولا الحكمة وإنما كان صورة من اندفاعات الشباب وقلة العلم بالفضل.

الوجـــه الآخـــر لطه حـــسين

حرم اللغة العربية من نشر معجم النجارى

مع أن الصورة المرسومة فى بعض الأذهان تزعم أن طه حسين كان أكثر تفتحاً وتنويراً من العقاد وأحمد أمين، فإنه يبدو لى من كثير من النصوص والمناقشات والكواليس أن طه حسين كان أكثر رجعية وتحفظا وتزمتا من العقاد وأحمد أمين وغيرهم، ولا يمكن الإلمام بمثل هذه الحقيقة إلا من خلال المناقشات التى يشترك فيها أكثر من فرد ضمن مجموعة أخرى من زملائهم وأقرانهم.

وعندى على هذا أمثلة كثيرة من خلال محاضر جلسات مجمع اللغة العربية.

من هذه الأمثلة ما دار من نقاش حول طبع ما سمى بمعجم المرحوم محمد النجارى وهو تطوير للسان العرب على نحو ما طُور الصحاح من قبل وذلك بجعل

المداخل مرتبة تبعا لترتيب الحروف فى جذور الأفعال، وقد دارت هذه المناقشات فى جلسة ٢٤ فبراير ١٩٤٧ حين كان وزير المعارف هو الدكتور السنهورى باشا الذى كان عضواً فى المجمع اللغوى هو الآخر، وقد حضرها من أعلامنا الذين نعرفهم من أعضاء المجمع ١٨ عضوا بالإضافة إلى الأستاذ أحمد لطفى السيد.

كان هؤلاء الثمانية عشر يمثلون طبقات المجمع الذين عينوا فى ١٩٣٢ و١٩٤٠ و١٩٤٢ و١٩٤٦ إضافة إلى عضو واحد تم انتخابه عام ١٩٤٢.

فأما الأعضاء القدامى فكان منهم ٦ هم: الدكتور فارس نمر، والدكتور منصور فهمى، والشيخ محمد الخضر حسين، والشاعر على الجارم، والحاخام حايم ناحوم، والشيخ أحمد العوامرى.

وأما الأعضاء المعينون سنة ١٩٤٠ فكان منهم ثلاثة هم عباس العقاد وطه حسين وأحمد أمين (فضلاً عن الرئيس نفسه).

وأما الأعضاء المعينون سنة ١٩٤٢ فكان منهم اثنان هما أنطون الجميل والشيخ حسن القاياتى.

وأما الأعضاء الجدد المعينون سنة ١٩٤٦ فكان منهم ستة هم محمد فريد أبو حديد ومصطفى نظيف وإبراهيم مدكور والدكتور محمد شرف والشيخ عبدالوهاب خلاف وزكى المهندس.

وأما العضو المنتخب فكان هو على توفيق شوشة (١٩٤٢).

❑

ونحن نلاحظ أن الذين اشتركوا فى هذه المناقشات اثنا عشر من الحاضرين بينما لم يدل سبعة منهم بأى قول فى الموضوع وهؤلاء الذين لم يدلوا برأى هم: الإمام الأكبر محمد الخضر حسين والحاخام الأكبر حايم ناحوم والدكتور منصور فهمى (من القدامى) وفريد أبو حديد وزكى المهندس ومصطفى نظيف (من أحدث الأعضاء)

فضلاً عن المنتخب الوحيد بين هؤلاء جميعا (وهو على توفيق شوشة) كما نلاحظ أن الذى تغيب عن الحضور من القدامى واحد فقط هو الشيخ إبراهيم حمروش ومن طبقة ١٩٤٢ تغيب أحمد حافظ عوض فقط ومن طبقة ١٩٤٠ لم يتغيب أيضا إلا اثنان هما عبدالعزيز فهمى والدكتور هيكل ومن طبقة ١٩٤٦ تغيب أربعة هم عبدالوهاب عزام والدكتور أحمد زكى والدكتور السنهورى [وزير المعارف] والشيخ شلتوت.

❑

وقد قصدت إلى توزيع هؤلاء المجمعيين حسب طبقتهم أن نفهم السياق الذى دارت من خلاله المناقشات [التى سنقرؤها بعد قليل] حول قرار قديم للمجمع نفسه كان قد اتخذ عام ١٩٣٨ أى حين لم يكن هناك من الأعضاء الستة عشر الحاضرين إلا ستة هم الأعضاء القدامى فحسب. كذلك من المهم أن نلتفت إلى أن هذه الدورة كانت بمثابة أول دورة يحضرها ستة من الأعضاء الجدد الذين عينوا فى نهاية ١٩٤٦.

وربما كان الأمر فى المناقشات كفيلاً بمسار آخر لو كان واحد من هؤلاء أو أكثر قد حضروا.

❑

نرى هذه المناقشة التى لم تطل لأكثر من دقائق قد تعرضت لعدة مبادئ مهمة.

- ❑ فكرة أن المستشار مؤتمن [وقد أرهب بها طه حسين باقى الأعضاء].
- ❑ هل يمكن العودة إلى نظر موضوع قرر المجمع فيه من قبل رأياً.
- ❑ هل يتطلب إعادة النظر فى قرار ما إعادة تشكيل اللجنة التى رأت القرار السابق.
- ❑ هل يكون العدول عن القرارات الاستشارية متاحا بينما لا يتاح العدول عن القرارات اللغوية.
- ❑ هل يمكن أن يكون المجمع عقبة فى سبيل نشر عمل علمى؟.

- هل يحول تركيز الجهد من أجل عمل ما دون النظر فى أعمال أخرى؟

[والحق أن الذى بدأ بطرحها لم يكن الدكتور طه حسين وإنما كان هو الدكتور محمد شرف].

- هل يمكن تقدير ضرر من نشر عمل علمى؟.
- ما الذى يحكم الأولويات عند اختيار التنفيذ.
- الواجب على المجمع تجاه رجل بذل مجهوداً كبيرا لخدمة اللغة.
- هل من المفيد أن يعاد طبع لسان العرب بأسلوب جديد؟.
- مدى ما يمكن من حكم على جهد رجل فرد فى عمل معجمى.
- هل يُقبل مبدأ اختصار الكتب القديمة أو تغيير وضعها أو ترتيبها.. وهل يمكن تطبيق هذا المبدأ بصفة مطلقة .

[هنا يظهر تفتح أحمد أمين إذا ما قورن بطه حسين].

- فكرة حرمة الآثار القديمة.
- من الذى يتولى التثبت من القيمة العلمية والأمانة العلمية فى عمل علمى ما.
- كيف يمكن مراجعة عمل ما؟ هل تكفى العينة؟

[هنا يظهر تفتح العقاد إذا ما قورن بطه حسين].

- كيف يمكن لعضو أن يرهب الآخرين بالمزايدة فى طلب الدقة .

[هنا يظهر ذكاء طه حسين].

- كيف يمكن اقتراح أسلوب عمل لمواجهة طلب المشورة .

[هنا تظهر سعة أفق أحمد أمين فى مقابل روتينية طه حسين المقصودة أو المتعمدة].

- كيف يمكن بلورة ما تم فى إطار ما هو ممكن.

[هنا تظهر حكمة أحمد أمين].

- كيف يمكن فصل تقييم الجوانب المختلفة من القضية .

[هنا تظهر عبقرية عبدالوهاب خلاف].

- فكرة احترام رغبة الوزارة فى التسهيل على الباحثين على الإقرار بفكرة حرمة الآثار القديمة .

[هنا تظهر قدرة أنطون الجميل على التوفيق وإنهاء الجدل من خلال إعداد صيغة مقبولة من مجلس المجمع].

❑

نرى الدكتور طه حسين وقد تشبث برأيه فى المناقشات فى مواجهة زملائه من الأعضاء الجدد والقدامى وذلك على الرغم من سماحة العقاد وليونة أحمد أمين وميل الجارم والعوامرى إلى تقدير الجهد المبذول فى الموضوع المعروض، وسندرك أيضا كيف كان أنطون الجميل شخصية توفيقية رائعة.

والآن سنقرأ المناقشات ونتأمل كثيراً من المواقف فيها من خلال نقاش راقٍ على مستوى رفيع من الفهم والعرض والجدل.

بعد أن افتتح الأستاذ الرئيس (لطفى السيد) الجلسة، عرض ما يأتى:

- **الأستاذ الرئيس:** تلقيت من وزير المعارف كتاباً بعث به إليها الأستاذ حسين محمد النجارى فى شأن معجم أبيه المرحوم محمد النجارى؛ ذلك المعجم الذى قدم إلى المجمع فى سنة ١٩٣٨، فوافق المجمع - بعد تصفحه وترتيبه - على أن تقوم الوزارة بطبعه؛ وهو معجم عمد فيه صاحبه إلى ترتيب لسان العرب ترتيبا حديثاً. وقد وقع وزير المعارف بتحويل الكتاب إلىّ، للنظر فيما طلبه الأستاذ حسين محمد النجارى من قيام الحكومة بطبع المعجم أو شراء حق الطبع.

- **الدكتور محمد شرف**: الذى أعرفه أن المرحوم محمد النجارى كان يرتب لسان العرب ترتيباً أبجدياً مختلفاً عن ترتيبه الحالى، وكان عمله فى ذلك قص مواد معجم لسان العرب ووضعها بالترتيب الجديد، فهو فى هذه الحالة لا يختلف عن لسان العرب الذى يتداوله الناس.

- **الأستاذ أحمد العوامرى**: الفرق بين معجم النجارى ومعجم لسان العرب، كالفرق بين مختار الصحاح فى أصله القديم ووضعه الجديد.

- **الأستاذ الرئيس**: هل الفرق بين لسان العرب فى وضعه القديم وهذا المعجم يكفى لمعاناة طبع هذا الكتاب؟ ثم ألسنا فى شغل عن هذا بما نقوم به من وضع معاجم جديدة كالوسيط وألفاظ القرآن؟

- **الدكتور محمد شرف**: أخشى أن يعوقنا النظر فى هذا المعجم عن السير فيما بين يدينا من الأعمال التى تتطلب وقتاً طويلاً.

- **الأستاذ أحمد أمين**: إن مهمتنا ـ فى هذا الموضوع ـ هى إبداء الرأى، ولن نتكلف بعد ذلك شيئاً، فالوزارة هى التى تقوم بطبع المعجم منسوباً إلى صاحبه.

- **الدكتور طه حسين**: فى رأيى أن المجمع ليس له أن يشير بطبع هذا المعجم أو بعدم طبعه، فالمستشار مؤتمن ، وقبل أن يعطى المجمع رأيه فيه عليه أن يراجعه مادة مادة ليستوثق من أمانة النقل ودقته، وهذا متعذر علينا تحقيقه.

- **الدكتور محمد شرف**: لو دخلنا فى هذا الموضوع لاقتضى ذلك أن نراجع لسان العرب نفسه، لاستدراك ما عسى أن يكون فيه من أخطاء ، كتلك التى عثر عليها المرحوم الأستاذ أحمد تيمور، وأخرجها فى مستدركه على لسان العرب.

- **الدكتور طه حسين**: «حين عُرض علىّ قرار المجمع ـ وكنت إذ ذاك مستشاراً فنياً لوزارة المعارف ـ قلت إن ظروف الحرب مانعة من طبعه، ولو عرض علىّ الآن بهذا الوصف لرأيت عدم طبعه».

[هكذا كان طه حسين ضد طبع المعجم على كل الأحوال، بسبب الحرب وبسبب أن المستشار مؤتمن وبسبب ثالث يبديه الآن وهو فكرة الحفاظ على التراث ولأسباب أخرى سنوردها بالتعاقب].

«فعندى أن الكتب القديمة يجب ألا تمس بتغيير أو اختصار، وقد قرأت فى مقدمة معجم ياقوت رجاءه لقراء كتابه ألا يتناولوا كتابه بالتغيير، ونحن بطبيعتنا محافظون يجمل بنا أن نبقى على الكتب القديمة، فإن أردنا أوضاعاً جديدة فلنؤلف لها كتباً جديدة».

[وهذا سبب رابع يضيفه طه حسين وهو أن المجمعيين بطبعهم محافظون]

□ **الأستاذ الرئيس**: سنقرأ عليكم مذكرة بالمراحل التى مر بها هذا المعجم فى المجمع.

مذكرة بشأن معجم المرحوم محمد النجارى

«فى مستهل صيف عام ١٩٣٨، تقدم إلى إدارة المجمع، أحد أنجال المرحوم محمد النجارى مقترحاً أن يقوم بطبع معجم والده الذى ظل يعمل فيه نحو خمس عشرة سنة فى إضمامات بلغت عدتها مائة وخمساً وسبعين إضمامة، استوعب فيها مواد اللغة العربية تقريباً، ومرتبة ترتيباً حديثاً، بحيث يطلب الباحث الكلمة باعتبار أولها لا باعتبار آخرها كما فى القاموس واللسان وغيرهما من معاجم اللغة، وكما ينطق بها بغض النظر عن الزوائد والأصول».

«فعهدت إدارة المجمع إلى طائفة من الموظفين بفرز هذه الإضمامات تحت إشراف موظف خبير باللغة، فقاموا بمهمتهم وقدموا إلى الإدارة تقريراً عرض على المجمع فى جلسته الثانية التى عقدت فى (١٨ ديسمبر سنة ١٩٣٨م)، فقرر تأليف لجنة من بين الأعضاء لفحص هذا المعمم، واجتمعت اللجنة فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٣٨ وقررت بالإجماع «طبع هذا الكتاب لما فيه من فائدة

للمتعلمين والعلماء معاً؛ لأن الوقت ثمين، وما يضيع منه فى مراجعة المعاجم المطولة كلسان لعرب خسارة لا تعوض»، كما ذكرت فى تقريرها ما يؤخذ على هذا المعجم من عدم ذكره للمصدر الذى اعتمد عليه من غير اللسان، وما لم يتخذ من الاحتياطات لاستدراك هذا الأمر».

«وعندما عرض قرار اللجنة على المجمع فى جلسته الثانية عشرة، التى عقدت فى ٣١ من ديسمبر، قرر الموافقة على رأى اللجنة على أن تضاف إلى القرار الفقرة التالية: «يجيز المجمع طبع الكتاب بالشروط التى تقررها إدارة المجمع بالاتفاق مع وزارة المعارف».

«وقد وافق الورثة جميعاً ـ بكتاب منهم إلى وزير المعارف بتاريخ ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٨ محفوظ بإدارة المجمع ـ على أنهم يقبلون طبع هذا الكتاب بمعرفة الحكومة، مقابل خمسمائة نسخة تسلم للورثة فى كل مرة يطبع فيها الكتاب. ولكن إدارة المجمع رأت أن تعوض الورثة بقدر أقصاه أربعمائة نسخة أسوة بما عاملت به الدكتور فيشر فى معجمه، وكتبت بذلك إلى وكيل وزارة المعارف بتاريخ ١٢ فبراير سنة ١٩٣٩ ».

«وبتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٤٤ كتب الأستاذ حسين النجارى، القاضى بمحكمة مصر الابتدائية الأهلية، إلى وزير المعارف، يرجو منه تنفيذ الاتفاق بطبع المعجم وإعطاء الورثة خمسمائة نسخة وقد بحثت وزارة المعارف الموضوع، وأشر على الأوراق الدكتور طه حسين ـ المستشار الفنى للوزارة حينئذ ـ بأن الظروف الحالية لا تسمح بالطبع لضخامة هذا القاموس، ثم قال: إنى لست متحققاً من أنه معد لتقديمه لو أن الظروف كلها ميسرة. فأشر الوزير بكلمة (نظر) فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٤ ، وأعادت الوزارة الموضوع إلى المجمع للحفظ فى نفس اليوم».

- **الأستاذ عباس العقاد**: إننا نناقش الآن فى المعجم، هل يطبع أو لا يطبع؟! على حين أن المجمع قرر ـ فيما سبق ـ طبعه، ثم كانت الوزارة هى العقبة فى

التنفيذ نظراً لظروف الحرب، وقد طلبت الوزارة اليوم رأينا، فهل نكون نحن العقبة فى طبع المعجم؟.

- **الأستاذ أحمد أمين:** مادام المجمع قد أصدر قراراً فى هذا الموضوع، فالكلمة إذاً لوزارة المعارف.
- **الدكتور طه حسين:** اتخذ المجمع هذا القرار فى سنة ١٩٣٨ وقد زيد أعضاء المجمع بعد ذلك بنسبة كبيرة، ومن حق المجمع فى هيئته الجديدة أن يعيد النظر فى قراره السابق.

[وهذا سبب خامس يضيفه الدكتور طه حسين أو يلجأ إليه]

- **الدكتور محمد شرف:** أرى من الأصوب أن يركز المجمع مجهوده لإخراج معاجمه، فلو كنا نملك حق طبع هذا المعجم وعندنا من المال ما يكفى لذلك لكان من الأولى أن ننفقه فى إخراج هذه المعاجم.
- **الأستاذ أحمد العوامرى:** ما الضرر الذى ينشأ من طبع لسان العرب فى وضع جديد لا يمس جوهر الوضع القديم؟ إن هذا المعجم بالترتيب الحديث يفيد أوساط المثقفين.
- **الدكتور إبراهيم مدكور: إذا كان الأمر يتطلب إعادة النظر فى قرار المجمع، فنلضف أعضاء جددا إلى اللجنة القديمة التى تولت النظر فى المعجم من قبل، حتى يتسنى لنا أن نقدر الكتاب ونبدى رأينا فى وضوح.**
- **الدكتور طه حسين:** أى الأمرين نختار إذا خيرنا ؟ أنطبع التهذيب للأزهرى والمحكم لابن سيده وكلاهما مخطوط؟ أم نطبع معجم النجارى لنظفر بنسخة مقلوبة الوضع من لسان العرب المطبوع؟

[وهذا سبب سادس يضيفه طه حسين فهو يلوح بطبع التهذيب والمحكم وكأنما

كان الأمر إما وإما.. ومع هذا فإن التهذيب والمحكم لم يطبعا من خلال هذه القناة]

- ❑ **الأستاذ على الجارم**: لا مانع من أن نوصى وزارة المعارف بشراء حق الطبع لهذا المعجم، فهذا واجب علينا لرجل بذل مجهوداً كبيراً لخدمة اللغة.
- ❑ **الدكتور فارس نمر**: لقد بنى المجمع رأيه فى هذا المعجم على نظر وتقدير، فماذا طرأ من الأمر حتى يعدل المجمع عن رأيه؟
- ❑ **الدكتور طه حسين**: القرار الأول عرض على وزارة المعارف ـ وهى الهيئة المختصة ـ فرفضت طبع المعجم، ثم أعاد وزير المعارف هذا الموضوع إلى المجمع من جديد. فالمجمع غير مرتبط بالقرار القديم ومن حقه إعادة النظر فيه.

[هنا يلجأ طه حسين كما نرى إلى أسلوب سابع وهو الأسلوب البيروقراطى الذى يتحلل من الاتفاقات أو الموافقات السابقة]

- ❑ **الأستاذ الرئيس**: هذا قرار استشارى، ونحن لا نرتبط إلا بقراراتنا اللغوية.
- ❑ **الأستاذ عباس العقاد**: لعل مما يجعل الحاجة إلى هذا المعجم ظاهرة، أن لسان العرب فى طبعته القديمة قد نفدت نسخه، فمن الخير أن يعاد طبعه على الأسلوب الجديد.

[هنا تبدو سعة أفق العقاد بل سعة اطلاعه أيضاً]

- ❑ **الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف**: إن لسان العرب من المراجع الأصلية فى اللغة، والمراجع تقتضى التثبت والأخذ بالثقة، فأنّى لنا أن نعرف مبلغ تثبت المرحوم النجارى فى النقل، وأنّى لنا أن نعلم مبلغ مراجعته له؟
- ❑ **الدكتور طه حسين** : مازلت على رأيى فى أنى أعارض الموضوع من أساسه، لا أقبل اختصار الكتب القديمة أو تغيير وضعها، فمن شاء أن يتخذ أسلوبا جديدا

فى الوضع فليصنع مؤلفا جديدا ويدع الكتب القديمة على حالها. وإنى أرى ترك الأمر لوزارة المعارف تتصرف فى المعجم كما تشاء، وهى حرة فى مساعدة من تريد من الناس.

[هنا أسفر الدكتور طه حسين عن أنه يعارض الموضوع من أساسه، وهو يلجأ إلى أسلوب ثامن يلقى العبء على وزارة المعارف أى يطلب من المجمع نفض يده من أمر هو أولى الهيئات بإبداء الرأى فيه]

- **الدكتور إبراهيم مدكور:** لو لم يكن للمجمع قرار سابق لوافقنا على ما يقوله الدكتور طه، ولكن مادام المجمع قرار سابق، فلا بد من تأليف لجنة جديدة لتنظر الموضوع من جديد.

- **الأستاذ السيد حسن القاياتى:** أوافق على أن نكل المعجم إلى لجنة تتثبت منه قبل أن نصدر قرارنا فيه.

[هكذا يحاول حكيمان من الحكماء هما القاياتى ومدكور.. ولكن دون جدوى]

- **الأستاذ أحمد أمين:** إن المبدأ القائل بمنع اختصار الكتب القديمة أو تغيير وضعها مبدأ خطأ إذا أخذ على عمومه، إذ لا يصح تطبيقه على أى كتاب، فإن كتاب ألف ليلة وليلة مثلا يمكن أن تمسه يد التغيير والاختصار طوعا لأغراض خاصة.

[هنا تتضح موضوعية أحمد أمين، ودقة فهمه، وبعده عن الشعارات والكليات والمسلمات البالية]

- **الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف:** لا بأس بعرض الكتب القديمة فى أثواب جديدة غير أثوابها، فمن المستطاع تلخيص كتاب أدبى وإخراجه بلغة العصر، ولكن المراجع اللغوية نصوص ثابتة لا يصح التغيير فيها أو التبديل فى طريقة عرضها. على أننا إذا كان لنا أن نقر هذا المعجم فيجب أن نتثبت أولا من أنه استوعب المواد واستوفى ما تحويه كل مادة وأنه كان دقيقاً وأمينا فى نقله.

- **الأستاذ أحمد أمين:** هذا التثبت موكول إلى اللجنة التى تراجع المعجم.
- **الدكتور طه حسين:** لكى تراجع اللجنة هذا المعجم يجب أن تعارضه بنص لسان العرب مادة مادة وكلمة كلمة، فإن لم تفعل ذلك جاوزت حدود الأمانة التى نيطت بها.

[هنا يلجأ طه حسين إلى أسلوب تاسع فى رمى القفاز أمام النوايا الحسنة، وإظهار الصعوبة الفنية فى الموضوع]

- **الأستاذ الشيخ عبدالوهاب خلاف:** ما أحسب أن اللجنة القديمة جرت على ذلك فى مراجعة المعجم، ولابد أنها اختبرته بمراجعة بعض مواده.
- **الأستاذ عباس العقاد:** إذا راجعنا خمسين مادة أو نحوها كفى ذلك فى الحكم على الطريقة التى جرى عليها المؤلف ومبلغ أمانته ودقته.
- **الدكتور طه حسين:** هذا لا يجوز فى اللغة والنصوص القديمة، فلابد من الدقة التامة؛ وذلك يقتضى المعارضة والمقابلة بين المعجم وأصله لسان العرب، فهل يتسنى للجنة أن تقوم بهذا الصنيع، وما الزمن الذى يمكن أن تستغرقه فى ذلك؟

[هكذا يلجأ الدكتور طه حسين فى مداخلته العاشرة إلى المبالغة فى التعقيد، بعد ما كاد العقاد يسهله وييسره ويجعله أقرب إلى التنفيذ والإنجاز]

- **الأستاذ أحمد أمين:** أقترح أن نكتب لوزارة المعارف أن الكتاب صالح للطبع، وأن المجمع ليس له وقت فراغ لمراجعته بدقة، فإذا أرادت طبعه ألفت له لجنة تتولى ذلك فيه.
- **الدكتور طه حسين:** لا أستطيع أن أقول إن المعجم صالح أو غير صالح، وحسبى أن أشير على وزارة المعارف بأن تؤلف له لجنة تدرسه.
- **الدكتور فارس نمر:** مما أذكره أن تسهيل البحث على القارئ كان أهم سبب

فى موافقتنا على طبع هذا المعجم، أما تغيير الكتب القديمة أو عدم تغييرها فلم يكن موضع بحث.

[كان الأستاذ فارس نمر قد ناهز التسعين حين حضر هذه الجلسة فقد كان من مواليد ١٨٥٥، ومع هذا فقد ساعدته ذاكرته على أن يكتشف [أو يتذكر] السبب الذى جعل المجمع يوافق على قيام وزارة المعارف بطبع هذا المعجم وهو التسهيل على القارئ والباحث..]

- **الأستاذ أحمد أمين**: أمامنا الآن طريقان: إما أن نأخذ برأى اللجنة السابقة ونطلب إلى وزارة المعارف أن تعهد بإتمام المعجم والإشراف على مراجعته إلى بعض رجالها، وإما أن نؤلف من المجمع لجنة تراجع بعض مواد المعجم لنعرف دقته فى النقل والترتيب، فإذا أخذنا الطريق الأول فإننا نرسل إلى وزارة المعارف الكتاب الآتى:

«سبق أن قرر المجمع [الموافقه على طبع] هذا المعجم، وقد اتخذ هذا القرار بناء على مراجعة لجنة منه لبعض المواد، فإذا رأت وزارة المعارف طبع المعجم عهدت إلى بعض رجالها بإتمام المراجعة وإتمام النقص فيه»

- **الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف**: يمكن أن نقول لوزارة المعارف إن المعجم من ناحية الشكل مفيد فى ترتيبه الحديث، ولكن لا يمكن من ناحية موضوعه أن نقول إنا واثقون به، فإن وثقت به الوزارة طبعته.

- **الأستاذ أنطون الجميل**: إن للآثار القديمة من الحرمة ما يمنع أن تمسها يد بالتغيير أو التبديل، وقد رأينا أن تمثال (فينوس) كيف وجد ناقصا وبقى على حاله ولم يجرؤ واحد من الفنانين ـ على رسوخ أقدامهم فى الفن ـ أن يكمله، ولهذا فإنى موافق على عدم المساس بالمراجع القديمة، ولكن من ناحية أخرى قد ترى الوزارة فى معجم المرحوم النجارى تسهيلا على الباحثين ، لذلك أقترح أن نكتب إليها ما يأتى:

«لا يخفى على وزارة المعارف أن المجمع ماض فى وضع المعجم الوسيط والمعجم التاريخى ومعجم ألفاظ القرآن الكريم، فلا يتسنى له مع ذلك النظر فى قاموس لسان العرب على الأسلوب الذى وضعه المرحوم الأستاذ النجارى، ولذلك إذا رأت الوزارة أن القاموس الذى أخذه الأستاذ النجارى عن لسان العرب قد تم وضعه بأمانة تامة كما ورد فى الأصل، وأن التعديل الوحيد تناول ترتيب المواد دون المتن، استطاعت ـ بعد التثبت من ذلك ـ أن تقوم بطبعه ، وبخاصة أن طبعة لسان العرب الحالية قد نفدت» .

□ **الأستاذ الرئيس :** هل توافقون على نص الكتاب الذى اقترحه الأستاذ أنطون؟

ـ موافقة .

قصة زواج أديب السينما

المقصود بلقب أديب السينما فى هذا الفصل هو الأستاذ عبد الحميد جودة السحار وهو واحد من جيل الروائيين الكبار المعاصرين للأستاذ نجيب محفوظ، كما أنه ارتبط به بصداقة ممتدة، وقد نشرا فى مرحلة من المراحل من خلال لجنة النشر للجامعيين التى كانت نواة لمؤسسات نشر أسسها شقيقه سعيد جودة السحار صاحب مكتبة مصر وهو ناشر نجيب محفوظ.

وقد كان عبد الحميد جودة السحار واحداً من الأدباء المفضلين فى السينما المصرية، وفضلا عن هذا فإنه تولى رئاسة مؤسسة السينما كنجيب محفوظ .

وشأن كثيرين من الأدباء الرومانسيين الداعين إلى الحب والانطلاق فقد كان السحار على المستوى الشخصى محافظاً، كان كذلك فى شبابه، وعاش كذلك حتى مماته.

وفى هذا الفصل نقرأ نصين مهمين يفسر أحدهما الآخر بطريقة مذهلة، على أن الأهم من هذا الاكتشاف هو طريقة تعبير الأستاذ السحار عن مشاعره فى بساطة شديدة ودون أى تأويل أو إدعاء.

ولهذا فإنى أوثر أن أترك القارئ مع النصين.

❑

فى قصة قصيرة بعنوان «لو عرف السبب» فى المجموعة القصصية التى تحمل اسم «فى الوظيفة» للأستاذ السحار نصادف شخصية، «همت بك»، وهو مدير كبير يبحث لابنته التى ماتت أمها عن زوج من بين مرءوسيه الموظفين، وبالطبع كان الموظف يومها خير مَنْ يتمنى للابنة، وكان همت بك يحادث واحداً من هؤلاء الذين وضع عليهم العين وهو «فتحى» وقد قربه إليه ودعاه إلى بيته، وتبسط فجلس معه، وفى ذلك اليوم تناول فتحى مجلة أسبوعية وأخذ يقلبها، فرأى صورة فتيات بلباس البحر على الشاطئ فالتفت إلى همت بك وقال: «والله إنى لأعجب لأولياء أمور هؤلاء الفتيات كيف يرضى الأب لابنته أو الزوج لزوجته، أن تظهر أمام الناس فى مثل هذا اللباس؟ ما الذى بقى للزوج ليراه مما لم يره الناس؟!».

وهنا يرد همت بك فيقول: «هذا دليل ضعف الآباء والأزواج، وانفلات زمام زوجاتهم وبناتهم من أيديهم، إنى حرمت الإسكندرية على نفسى، حتى لا تقع عين سعاد على مثل هذه المناظر المشينة».

ترى هل كان هذا الرأى الذى بلوره السحار فى قوله: «ما الذى بقى للزوج ليراه مما لم يره الناس؟» رأى فتحى أو رأى همت بك؟ أم أنه كان رأى عبدالحميد جودة السحار نفسه؟.

❑

نقرأ فى مذكرات السحار أو سيرته الذاتية أنه كان ذات يوم يستذكر دروسه بالقرب

من شباك مكتبه، فما أن أضاء نور شرفته عند دخول الليل حتى أضاء نور فى أعلى شرفته فى البيت المقابل لبيتهم، فرأى فتاة تعود إلى كرسيها وتتناول كتابها وتعود للقراءة، ولم يكن فى ذلك شىء يشغله أو يعوقه عن مواصلة عمله، بيد أنه لاحظ أنه لما أطفأ النور فإن النور فى الشرفة المقابلة التى كانت الفتاة تقرأ فيها سرعان ما اطفئ أيضاً، فلفت ذلك انتباهه ولكنه لم يطلق لخياله العنان، فلما عاد بعد تناوله العشاء وأضاء النور أضىء النور ثانية، واتجهت الفتاة إلى كرسيها، وتناولت كتابها:

«ووقفت أرنو إلى الشرفة طويلا، إن ما يحدث الليلة لا يمكن أن يكون مصادفة، إنها تتعمد أن تجذب بصرى إليها وقد نجحت، فماذا تريد منى؟».

«وفى الصباح ذهبت إلى شارع فاروق لأستقل الترام إلى العتبة الخضراء فإذا بها واقفة هناك تتلفت، فلما رأتنى تظاهرت بأنها ترصد مقدم الترام، كانت فتاة بيضاء البشرة، شعرها يميل إلى الصفرة، لها عينان زرقاوان، قصيرة القامة، يميل جسدها إلى الامتلاء، وترتدى مريلة فى لون سن الفيل، وقد سندت حقيبة كتبها على أعلى عجزها فى رشاقة».

«وسولت نفسى أن أبدأها بالتحية إلا أننى أحجمت».

«وجاء الترام فصعدت إلى غرف الحريم، وتوجهت إلى غرف الدرجة الأولى، وفى ميدان العتبة الخضراء وقفنا جنباً إلى جنب ننتظر ترام الجيزة المنطلق إلى قصر العينى، فلما أقبل رحت أرقبها بطرف عينى فإذا بها تنظر نحوى فى عينين ثابتتين، فقفزت إلى الترام، وجعلت أرصد الطريق لأعرف أين ستهبط، ونزلت الفتاة عند الشارع الذى يؤدى إلى مدرسة الليسيه».

هكذا فهم السحار أنها طالبة بهذه المدرسة.

«وفى صبيحة اليوم التالى وقفت فى شباك مكتبى فإذا بها هناك فى شرفتها تمد عينيها إلىّ، فلما حملت كتبى وتحركت لأهبط إذا بها تتحرك للهبوط».

وتعمد السحار أن يتأخر فى الخروج، وخرج متأخراً فوجدها «لا تزال واقفة بعدما مر عليها ترامان تركتهما «ووقفت، وقد لوت عنقها ترصد الطريق الجانبى الذى سأقدم منه».

«أرضى ذلك غرورى فخرجت من مكمنى وتقدمت إلى محطة الترام فى ثقة.. إنها تنتظرنى ولاريب، فلو بدأتها بالتحية فقد تتظاهر بالخجل، وتطرق برأسها أو ترد تحيتى بصوت خافت، ولكنى لم أفعل ووقفنا جنباً إلى جنب».

«وركبت الترام وأطلقت لخيالى العنان، إننى أعرف البداية جيداً، وطالما مارستها مع فتيات الحى أن أبدأ بالتحية ثم نسير جنباً إلى جنب نتسامر فى أشياء عادية، ثم تكون ألفة، ثم لقاء كل يوم، ولكن ما مدى الشوط الذى سأقطعه معها أنا الذى صارت قرة عينى فى الصلاة؟».

هكذا يشير السحار إلى ما كان شائعاً فى تلك الفترة فى المنطقة التى كان يعيش فيها، وهو ما يعبر عنه كثيرون بأثر وجود اليهود وذوى الأصول الأجنبية فى الظاهر والعباسية وما كان متاحاً من انفتاح وعلاقات بريئة، أو غير بريئة.

❑

وعلى مدى تسع صفحات من كتابه «هذه حياتى» يستعرض عبد الحميد جودة السحار التفاصيل التى استغرقت أسبوعين من الزمن تقريباً، وهو يفكر مع قرائه بصوت عالٍ ويحدثنا عن أمنية جدته فى أن تزوجه إبنة عمه، وهى فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها أخرجها أبوها من المدرسة ذات يوم وأبقاها فى المنزل لا لشىء إلا لأنها خرجت ذات يوم مع الفتيات اليهوديات من أترابها فى المدرسة الإسرائيلية تشيع ميتاً يهودياً فلبست اللباس الأبيض وأمسكت بساط الرحمة (مثل أولاد اليهود تمام)، وبعد أن يروى السحار هذه الواقعة فى ختام حديثه عن عمه وابنة عمه ومحاولات جدته يقرر:

« هذا هو عمى الذى تريد جدتى أن أصبح صهره، وهذه هى ابنة عمى التى يراد لى أن أتزوجها.. وسخرت فى قرارة نفسى من كل المحاولات الساذجة التى كانت تبذل للربط بينى وبينها العمر كله».

هكذا بدأ السحار تفكيره فى الزواج من زاوية منحازة إلى التجربة الجديدة التى يعيشها ومنتصرة لهذه التجربة على ما هو متاح له، وربما يكون مفروضا عليه.

....

«وخرجت كالعادة فى الصباح لأركب الترام فى طريقى إلى مدرستى فألفيت فتاة الليسيه هناك تتلفت، إنها ترصد مقدمى ولاريب، وإذا بخاطر الزواج يطوف بى، وإذا بها جوارى على رصيف الترام، إنها تستطيع أن تقصر علىّ مشوار الحياة الطويل الشاق، فسأفهمها وتفهمنى، وسيكون هناك بينى وبينها شىء مشترك يخفف من وطأة قسوة الأيام».

هنا قرر السحار أن يكون سلوكه مع فتاة الليسيه سلوكا لائقا بفتاة ستصبح زوجته يوما من الأيام، فأصبح يتحكم فى أساريره إذا ما لاقاها.

❑

وتتطور الأمور فى اتجاه أكثر تودداً.

حتى كان عائدا فى شارع غمرة يوما من الأيام فإذا بها أمامه، «وأخذت تخفف من خطواتها ليلحق بها، ولم يكن فى الطريق سواهما، ولكنه كتم أنفاس كل عوامل الإغراء التى عربدت فى جنباته، فقد عزمت على ألا أقترف أية هفوة قد تعكر فى المستقبل صفو حياتهما الزوجية».

....

ونأتى إلى مطلع الصيف:

«وبينما كنت واقفاً على رصيف الترام أنتظر إذا بفتاة الليسيه تحدث إحدى

صويحباتها بصوت عال وتقول إنها ذاهبة إلى سيدى بشر عقب الانتهاء من امتحانها، ففطنت أن ذلك تبليغ لى وأنها دعوة لألحق بها».

وأعد السحار عدته للسفر إلى الإسكندرية فلما أصبح فى الإسكندرية وذهب إلى شاطئ سيدى بشر، وخلع ملابسه ونزل إلى الماء:

«ما كدت أشق طريقى حتى رأيتها بجسمها الممتلئ السمين، كانت تعوم مسافة قليلة ثم تقف منتصبة على قدميها وهى تهلل وتضحك فى فرح أشبه بفرح الأطفال»».

«واقتربت منها والتقت عيناى بعينيها، وقبل أن ألقى عليها التحية وقعت عيناى على صدرها العارى، إن ثدييها يكادان أن يفرا من عقالهما، فإذا بالابتسامة التى كادت أن تولد تموت على شفتى، وإذا بإحساس غريب يتملكنى، أهى الغيرة؟ ربما.. فالغيرة دليل الحب!».

«وخرجت من الماء وتناولت منشفة راحت تجفف بها جسمها، كان ساقاها متسقتين،وكانت أردافها ممتلئة، وإذا بسؤال يثور فى نفسى: ماذا بقى لى لأراه مما لم يره الناس؟».

❑

ويمضى السحار بعد هذا ليحدثنا عما دار بنفسه من صراع:

«فعقله يحاول أن يخفف عنه مرارة السؤال، فالإنسان الذى بين جوارحه حاول أن يتحضر وأن يجارى العصر الذى يعيش فيه، أراد أن يقبل ذلك الواقع، ولكن النشأة والبيئة تمردت عليها» .

«وحاول ليلتها أن ينام فلم ينم».

«وفى الصباح رأيتها تتحدث بالفرنسية مع بعض صديقاتها، إنها حلوة رقيقة، ولم

تكن وحدها التى ترتدى المايوه على الشاطئ، وقبل أن تصفو نفسى إذا بذلك الخشن النافر القابع فى أغوارى يقول فى سخرية:

«أتريد زوجة لك وحدك أم تريد مضيفة لبقة فى طائرة الحياة؟».

ولم يكن السحار يقدر أنه سيصير فى عداد الموظفين لا صغارهم ولا كبارهم، وإنما كان يتوقع أنه سيكون مثل باقى أفراد عائلته تاجرا «ليس فى حاجة إلى زوجة تأخذ بيده فى مجتمع بدأت المرأة تلعب فيه دورا مهما».

وعندئذ أخذ عبد الحميد السحار قراره على رمال الشاطئ:

«إننى سأستجيب إلى رغبات جدتى وسأتزوج ابنة عمى التى نشأت فى مثل بيئتى، وإن لم تتح لها الظروف أن تواصل تعليمها، فلست فى حاجة إلى زوجة لبقة تحسن استقبال أصدقائى.. فما كان أحد من أصدقائى فى تلك الأيام ليجرؤ على أن يطأ عتبة باب بيتنا، فالبيت لنا، والسلاملك للجميع».

❑

وشاءت الأقدار أن يعمل السحار موظفا، وأن يصبح من كبار الموظفين، وأن يرأس هيئة المسرح والسينما، وأن يكون أحد أدباء السينما البارزين.. وأن تكون له قصص رومانسية يشاهدها كل الناس على الشاشة الكبيرة.. كل هذا بعد أن تزوج ابنة عمه، وأنجب منها ثمانية.

❑

بقيت فى الموضوع طرفة من طرف الحياة التى لا تنتهى فقد كتبت هذا الموضوع فى نهاية ١٩٨٠ وشاء القدر أن تتولى طباعة الطبعة الأولى من كتابى هذا الذى بين أيدينا (١٩٨٤) مطبعة كان يديرها واحد من أبناء عبد الحميد جوده السحار الثمانية!!.

2

وجهات نظر متعارضة.. وعلاقات ثنائية

- بين عميدين : أحمد أمين وطه حسين
- بين عملاقين : العقاد والحكيم
- من أجل المجمع اللغوى محمود تيمور يرتقى بلغته : رأيان مختلفان لسهير القلماوى ويوسف السباعى
- شيوخ الأزهر ونقد الإبداع

بين عميدين: أحمد أمين وطه حسين

قال الأستاذ أحمد أمين فى كتابه «حياتى» بعدما تعرض للحديث عن الفترة التى قضاها عميدا لكلية الآداب:

«وكانت مأساة العمادة أنى فقدت بها صداقة صديق من أعز الأصدقاء وما أقل عددهم.. كان يحبنى وأحبه، ويقدرنى وأقدره، ويطلعنى على أخص أسراره وأطلعه، وأعرف حركاته وسكناته ويعرفها عنى، ويشاركنى فى سرورى وأحزانى وأشاركه، وكنت هواه وكان هواى، واستفدت من مصادقته كثيرا من معارفه وفنه ووجهات نظره، سواء وافقته أو خالفته، فأصبح يكون جزءاً من نفسى ويملأ جانباً من تفكيرى ومشاعرى، على اختلاف ما بيننا من مزاج».

ويمضى أحمد أمين يقارن بين مزاجه ومزاج صاحبه فيقول:

«فهو أقرب إلى المثالية، وأنا أقرب إلى الواقعية، وهو فنان يحكمه الفن، وأنا عالم

يحكمه المنطق، وهو يحب المجد ويحب الدوى، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهدوء، وهو مغالٍ إذا أحب أو كره، وأنا معتدل إذا أحببت أو كرهت، وهو نشيط فى الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء وأنا بطئ، وهو عنيف إذا صادق أو عادى، وأنا هادئ إذا صادقت أو عاديت، وهو واسع النفس أمام الأحداث، وأنا قلق مضطرب غضوب ضيق النفس بها، وهو ماهر فى الحديث إلى الناس فيجذب الكثير، وليست عندى هذه المقدرة فلا أجتذب إلا القليل، وهو فى الحياة مقامر يكسب الكثير فى لعبة ويخسره فى لعبة، وأنا تاجر إن كسبت كسبت قليلا فى بطء، وإن خسرت خسرت قليلا فى بطء، يحب السياسة لأنها ميدان المقامرة، وأنا لا أحبها إذ لا أحب المقامرة».

ويلتفت أحمد أمين ليقرر أن هذا الاختلاف فى المزاج كان نعمة ثم صيرته العمادة نقمة:

«ولعل هذا الخلاف بيننا فى المزاج هو الذى ألف بيننا، فأشعره أنه يكمل بى نقصه، وأشعرنى أنى أكمل به نقصى، جاءت العمادة مفسدة لهذه الصداقة، لأنه بحكم طبيعته أراد أن يسيطر، وأنا بحكم طبيعتى أردت أن أعمل ما أرى لأنى مسئول عما أعمل».

ثم دخل الخلاف مرحلة متقدمة:

«ثم ولىّ منصبا أكبر من منصبى يستطيع منه أن يسيطر على عملى، فأراد السيطرة وأبيتها، وأراد أن يحقق نفسه بأن ينال من نفسى، فأبيت إلا أن أحتفظ بنفسى، فكان من ذلك كله صراع أصيبت منه الصداقة، فحزن لما أصابها وحزنت، وبكى عليها وبكيت».

❑

وقال الدكتور لويس عوض فى مقال له عن «طه حسين الوزير» أعاد نشره فى كتابه «الحرية ونقد الحرية»:

«عدت إلى مصر فى أغسطس عام ١٩٤٠ وقضيت مع أهلى بالمنيا أكثر سبتمبر انتظاراً لبدء العام الجامعى لكى «أقدم» نفسى لكليتى حتى تحدد لى نوع العمل الذى أقوم به، وكان العميد يومئذ أحمد أمين، فسلمت عليه ثم خرجت من مكتبه بتوجيهه إلى قسم اللغة الإنجليزية الذى كان يرأسه أستاذى السابق كريستوفر سكيف، لمقابلة رئيس القسم الذى أوفدنى إلى الخارج بقصد عرض خدماتى عليه، وما أن رآنى سكيف حتى امتقع وجهه بغضب مكظوم أنساه أن يرحب بى وقال: «لماذا عدت؟ لماذا قطعت بعثتك؟»، وحاولت أن أشرح له أنى لم أكن وحدى فى ذلك، فقد كان معى قرابة مائتى مصرى عادوا جميعاً من انجلترا لأن حرب هتلر الخاطفة، أو على الأصح قنابل سلاح طيرانه، جعلت من انجلترا مكاناً غير مريح للبحث العلمى، فقد كان نصف أيامنا فى المخابئ بعد سقوط فرنسا، وتمالك سكيف نفسه وقال: ماذا تنوى الآن أن تفعل؟ فسألت: هل لى جدول فى القسم؟ فأجاب: لا، ولكن إذا وافقت على أن تدرس فى فؤاد الأول الثانوية يمكنك أن تبدأ غدا، قلت: أنا لا أتأفف من التدريس فى المدارس الثانوية، ولكنى أخشى أن كثرة أعبائه ستلهينى عن البحث العلمى، ولم يحر سكيف جوابا، وانتهت المقابلة، وعدت إلى عميدى أحمد أمين لأبلغه بقرار رئيس قسم اللغة الإنجليزية فحدجنى بنظرة عطف ولكنه لم يعلق بشىء، وخرجت آسفا أن تنتهى الأمور إلى هذا الحد، الجامعة توفدنى ثلاث سنوات إلى كامبريدج للبحث الأكاديمى، فيراد لى أن أدرس فى المدارس الثانوية».

ثم يستطرد الدكتور لويس عوض فى الحديث ممهداً لما يرويه من لقائه بالدكتور طه حسين وينتهى إلى قوله:

«وأيا كان الأمر فقد خرجت من مكتب عميدى أحمد أمين من كلية الآداب إلى مكتب أستاذى طه حسين فى وزارة المعارف [لاحظ هنا تعبير الدكتور لويس عن أحمد أمين بالعميد، وعن طه حسين بالأستاذ، مع ما أثر عن أحمد أمين من قوله إنه

أكبر من عميد وأصغر من أستاذ] لمجرد السلام والتحية، فى ذلك الصباح الغريب ذات يوم فى أوائل أكتوبر عام ١٩٤٠، وحين دخلت عليه بادرنى بالسؤال: متى وصلت؟ وماذا تفعل الآن؟ فشرحت له فى اقتضاب ما كان من أمر زيارتى للأستاذ سكيف ولأستاذنا أحمد أمين.. فالتفت طه حسين إلى سكرتيره وقال: «هات لى أحمد أمين»، وطلب فريد شحاتة سكرتير طه حسين أحمد أمين فى التليفون، وإذا بى أسمع طه حسين يقول لأحمد أمين فى هدوء: «قل لسكيف يبطل لعب، ويعطى لويس عوض جدولا فى قسم اللغة الإنجليزية»، ثم وضع السماعة دون أن يزيدكلمة واحدة. ودق قلبى لأنى أحسست أنى مقبل على عاصفة، ثم التفت إلىَّ طه حسين وقال: «روح دلوقتى لأحمد أمين.. دلوقتى»، هكذا: جملة واحدة لا زيادة! بلا استفسار ولا استشارة! وفى هدوء! ورسالة موجزة يحملها المعيد إلى أستاذ! ووضع السماعة دون أن يزيد!!

قال الدكتور لويس:

«وكانت الساعة قد بلغت الواحدة فانصرفت من عند طه حسين على عجل، وركبت تاكسى إلى كلية الآداب، ودخلت على أحمد أمين للمرة الثانية فقال لى مبتسما: «اذهب إلى سكيف وخذ جدولك»، وانطلقت إلى قسم اللغة الإنجليزية، وأدركت عندئذ أن طه حسين كان لا يزال يحكم كلية الآداب من مكتبه كمراقب للثقافة فى وزارة المعارف».

❑

من البحث فى التاريخ يتضح لنا أن الدكتور أحمد أمين عمل عميدا للآداب (أبريل ٣٩ ـ ١٩٤١)، وأن الدكتور طه حسين كان فى هذه الفترة بعد أن خلفه أحمد أمين فى العمادة قد انتدب مراقبا للثقافة فى وزارة المعارف، وحتى فبراير ١٩٤٢ حيث عين مستشاراً فنياً للوزارة.

فهل ياترى كان الصديق الذى فقده أحمد أمين هو طه حسين؟ الذى رشحه للعمل

بالجامعة عند افتتاحها وشاركه العمل فيها وفى لجنة التأليف والترجمة والنشر، وفى التأريخ لعصور الإسلام بنواحيها المختلفة فى برنامج مخطط قطع فيه كلاهما أشواطا واسعة، أم أن الصديق الذى فقده أحمد أمين كان طه حسين؟

إذا كان لويس عوض حريصا على أن يلجأ إلى التلميح الذى ربما كان أقوى من التصريح فإن الدكتور عبدالرحمن بدوى بما عرف عنه من قوة شخصيته وإيمانه بما يعتقد وتعبيره الواضح الصريح يقدم نفس الصورة لهذا الاختلاف فى الطباع بين العميدين ولكن فى صياغة أقوى وأكثر حدة.

والحق أننا نرى حقيقة الصورة وجوهر القضية أكثر وضوحاً بعد مرور السنوات أو بعد مرور عشراتها، فهذا الأستاذ المتريث أحمد أمين يحب لتلاميذه أن يكونوا ملتزمين متدرجين بينما طه حسين يريد لهم أن يدخلوا الصراع السياسى وأن يكتووا بناره وبمجده، وأن يكونوا صورة منه فى هذا الولوج إلى معترك الحياة السياسية، ولأن هؤلاء كانوا شبابا فانهم كانوا يفضلون أسلوب طه حسين، ومعاملة طه حسين، بل كانوا يفضلون طه حسين نفسه، وكانوا يظنون أن ترشيحه لهم للمجد أجدى عليهم من هذا الذى يفعله أحمد أمين بتعليمهم الالتزام والتأنى.. ومن العجيب أن مرور السنوات أثبت لنا بكل وضوح أن أسلوب طه حسين قد آذى هؤلاء فى شخصياتهم إيذاء بالغاً، وإن كان قد احتفظ لطه حسين بمكانة كبيرة فى تصوير ريادته وأستاذيته .. ولكن هذه المكانة جاءت على حساب شخصيات هؤلاء الأساتذة الذين كانوا تلاميذ نابغين ولكنهم تعرضوا لصورة من صور نمو أكاديمى كاريكتيرى غير متوازن على نحو ما نعرف جميعا حتى من دون أن نجد الشجاعة فى أن نصرح.

وفى ضوء الفقرات السابقة التى نقلتها كما هى بدون مقدمات أو تعليقات أرجو القارئ أن يطالع بكل هدوء ما يرويه الدكتور عبدالرحمن بدوى من معاناته بسبب أحمد أمين، ومن محاولة القضاء على هذه المعاناة بسبب طه حسين، وبوسع القارئ

وبخاصة إن كان أكاديميا جامعيا أن يكتشف أن الدكتور عبدالرحمن بدوى على المدى الطويل قد خسر بالفعل بهذه المساعدة التى قدمها له طه حسين وكذلك خسر الدكتور لويس عوض من قبل.

يقول الدكتور عبدالرحمن بدوى فى مذكراته:

«... وكما أشرت من قبل، كان المشرف الأول على هذه الرسالة [يقصد رسالة الماجستر] وكان عنوانها «مشكلة الموت فى الفلسفة المعاصرة» هو الأستاذ أندريه لالاند؛ لكنه سافر فى مارس سنة ١٩٤٠ قبل اتمام الرسالة، وجاء من بعده الأستاذ ألكساندر كويريه Koyré فتابع الاشراف على الرسالة. وفرغت من كتابتها فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤٠، ووافق كويريه على كتابتها على الآلة الكاتبة متهيئاً لمناقشتها. وكتب عنها تقريراً كله ثناء على الرسالة وتمجيد لقيمتها وأصالتها».

«وقدم التقرير إلى عميد الكلية آنذاك ـ أحمد أمين ـ من أجل عرض الأمر على مجلس الكلية لتحديد موعد للمناقشة».

وعند هذه النقطة يبدأ الدكتورعبد الرحمن بدوى هجوماً حاداً، هو فى جوهره خارج الموضوع، على عميد الكلية التى كان هو فيها معيداً، وهو يقول:

«وكان أحمد أمين رجلاً حقوداً ضيق الأفق تأكل قلبه الغيرة من كل متفوق، ومن كل متقن للغات أجنبية لأنه كان لا يعرف لغة أجنبية فيماعدا قشوراً تافهة من أوليات اللغة الانجليزية. وكان يسعى للتعويض عن عجزه هذا بانتحال أعمال الآخرين، خصوصاً الناشئة المتطلعون [يقصد المتطلعين] إلى الشهرة بالتسلق على جذوع الشخصيات ذات الشهرة أو النفوذ. وقد حاول أن يصنع معى هذا الصنيع، لما أن قدمت إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ وكان هو رئيسها ـ أصول كتابى: «التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية» فى أواخر سنة ١٩٣٩. فلم تفلح محاولته هذه وصددته منذ اللحظة الأولى. إذ قلت فى نفسى : وما شأن هذا الرجل بكتاب مؤلف

من دراسات بالألمانية والايطالية، وفى موضوع بعيد عنه؟! إنها منه صفاقة ما بعدها صفاقة. ونشرت الكتاب عند ناشرى الأول: «مكتبة النهضة المصرية». ولما صدر قدمت إليه نسخة، ولسان حالى يقول له: على الرغم منك صدر الكتاب! وهذه واقعة سأصادف العديد من أمثالها طوال حياتى فى الانتاج والنشر».

«فتذرع أحمد أمين، لما أن قدمت إليه تقرير الأستاذ كويريه، بمسألة شكلية تافهة، وهى أنه لم يتم تسجيل موضوع رسالتى فى الموعد القانونى، وهوعام قبل المناقشة! يا لسخافة التفكير، وتفاهة الادراك ! فهذا أمر لا قيمة له، ما دام قد مضى على حصولى على الليسانس عامان، وهو الشرط الأساسى فى مناقشة رسالة الماجستير».

ويتجاوز الدكتور عبدالرحمن بدوى كل الحدود فى نقده العارم والصارخ لالتزام أحمد أمين المنطقى والموضوعى بالقانون، ويقول:

«فتمسك أحمد أمين بهذه النقطة الشكلية التافهة وهى تسجيل عنوان الرسالة قبل عام من مناقشتها ووجد فيها ضالته للكيد بى وتحقيق حقده الدفين، فعرض هذه المسألة على مجلس الكلية، ولم يكن الدكتور طه حسين حاضراً ، وحمل المجلس على أخذ قرار بتأجيل المناقشة عاماً! وما أكثر الخشب المسندة فى مجالس الكليات حين لا يتعلق الأمر بمصالحهم الشخصية!».

«فلما علمت بهذا القرار ذهبت إلى الشيخ مصطفى عبدالرازق - وكان وزيراً للأوقاف آنذاك - وأخبرته بما حدث. فقام الشيخ مصطفى بالتوسط فى الأمر: فكلم أحمد أمين، لكن هذا الرجل الحقود لم يستجب. فكلم الدكتور طه حسين بوصفه عضواً فى مجلس الكلية؛ فتعهد الدكتور طه بإثارة الموضوع فى الجلسة التالية، وتحفز الحقد المتأجج فى صدر أحمد أمين فأثار مسألة: مَنْ يوافق على إعادة النظر فى الموضوع ؟ فانقسم المجلس إلى نصفين بالضبط: نصف موافق، ونصف غير موافق كان منه أحمد أمين رئيس الجلسة. ومادام من المقرر أنه عند تساوى الأصوات يرجح الجانب

الذى فيه رئيس الجلسة، فقد رجح قرار عدم الموافقة على إعادة النظر فى الموضوع. وانفض المجلس، وخرج الدكتور طه حسين مغضباً ساخطاً على هذا التصرف الدنئ من أحمد أمين. وكنت أنا أمام قاعة «مجلس الكلية» فى تلك اللحظة أنا ود. محمد مندور، فثارت ثائرتى فى وجه مَنْ توسمت أنهم كانوا من المعارضين فى إعادة النظر فى الموضوع، وساعدنى فى ذلك محمد مندور. وعلا الصياح بيننا وبين تلك «الخشب المسندة» المتملقة لأحمد أمين، فخرج أحمد أمين من مكتب العميد وجرى شجار بيننا عنيف».

«لقد بيّن د. طه لأعضاء المجلس أن الذى يدعو إلى عدم الالتفات إلى هذه النقطة الشكلية التافهة هو ان الأستاذ كويريه سيغادر مصر فى نهاية هذا العام الدراسى سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١، وهو المشرف على الرسالة، وهو حريص على أن يتولى مناقشتها لأنها عُملت معه. لكن أنى لمثل هذه الحجة البالغة أن تفعل فى عقول (إن كان لهم عقول) تلك «الخشب المسندة» من أعضاء مجلس الكلية ؟! وكان كويريه قد غضب غضباً شديداً لهذا التصرف من العميد، وأخبر د. طه حسين باستيائه الشديد من هذا الصنيع الوضيع، الذى لم يصدر عن أية مراعاة لمصلحة علمية وأذكر أنه قال لى، حيث حدثته فى الأمر؛ قال باسماً ساخراً: هذا جزاؤك، لأنك ألفت كتباً ونشرتها! الا فلتعلم إن كل كتاب تصدره هو بمثابة خنجر فى قلوب الحاسدين والحاقدين» .. وهذه كلمة حكيمة جداً، طالما عرفت صدقها فى كل مرة أصدرت فيها كتاباً، فى طول حياتى العلمية. لكن ذلك لم يزدنى دائماً إلا إيماناً برسالتى العلمية العلمية، وحرصاً على الاستمرار فى الانتاج، ولسان حالى فى كل مرة هو: موتوا بغيظكم أيها الحاقدون!».

«ثم تمت مناقشة الرسالة فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤١، وحصلت على الماجستير بتقدير ممتاز. وكان أعضاء اللجنة هم: الشيخ مصطفى عبدالرازق، ود. طه حسين، ود. ابراهيم مدكور. ودارت المناقشة بالفرنسية والعربية».

....

هكذا نرى من هذا النص الذى كتبه عبدالرحمن بدوى بكل حماسة أن القضية لم تكن تتطلب منه أو تقتضى أو تستأهل كل هذه المرارة لولا أنه كان لا يزال شابا يتمتع بما يتمتع الشباب به من حماسة وفورة وثورة [ولد عبدالرحمن بدوى عام ١٩١٧، ووقعت هذه الوقائع فى الفترة من ديسمبر ١٩٤٠ وحتى نوفمبر ١٩٤١ أى حين كان فى الثالثة والعشرين والأربعة والعشرين من عمره].

وبوسعنا أن نتجاوز مؤقتاً هذا الهجوم المكثف على أحمد أمين وعلى معارفه وعلى أخلاقه، وهو هجوم غير مبرر على الإطلاق، لنتأمل فى القضية من كل الأثواب التى ألبسها لها عبدالرحمن بدوى وحينئذ فاننا لا نملك إلا أن نعجب من موقف طه حسين الذى دفع بعبدالرحمن بدوى إلى هذا الموقف دفعاً دون أن يكون قد مهد الأمر مع أعضاء مجلس الكلية لاتمام «تمرير» مثل هذه «المخالفة» القانونية الصارخة التى تضرب عرض الحائط بكل النظم الجامعية من أجل قرب سفر الأستاذ المشرف فى نهاية العام الدراسى ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ أى فى يونيو أو يوليو ١٩٤١ وليس فى ديسمبر ١٩٤٠ .. ومع هذا فإن عبدالرحمن بدوى الذى أصبح بعد هذا أستاذاً كبيراً ورئيساً لأقسام عديدة من أقسام الفلسفة لايدرك وهو يروى ما يرويه ما هو واجب عليه من تقرير أن الأمور الجامعية لا تستقيم بمثل هذا التفكير!

ولو أن طه حسين كف عن أسلوبه فى تبنى مثل هذه الرغبات العجولة لتلميذه عبدالرحمن بدوى (ولتلميذه لويس عوض ولغيرهما) لكان نفع الوطن من أمثال هؤلاء قد تضاعف كثيراً عما حدث بالفعل!

ومن العجيب أن هذا العميد الذى يصب عليه عبدالرحمن بدوى جام غضبه لم يمانع فى أن يكون المناقشون على هذا النحو الذى ذكره عبدالرحمن بدوى نفسه، وهى لجنة من أساتذة الكلية نفسها وليس فيها من خارج الكلية أحد !!

ومن الطريف أيضاً أن عبدالرحمن بدوى لا يذكر تاريخ تسجيله للرسالة مع الأستاذ الثانى كويريه، ولا مقدار الأجل الذى انقضى منذ هذا التسجيل وحتى تمت المناقشة فى نوفمبر ١٩٤١ .. فاذا كان عبدالرحمن بدوى قد ناقش بمجرد انقضاء عام واحد على التسجيل فمعنى هذا أنه كان يريد أن يناقش (فى المرة الأولى) بعد انقضاء شهر واحد على التسجيل (نوفمبر ١٩٤٠ ـ ديسمبر ١٩٤١)، أما إذا كان التسجيل قد تم فيما قبل يوليو ١٩٤٠ فقد كان فى وسع عبدالرحمن بدوى أن يناقش فى يونيو ١٩٤١ قبل نهاية العام الدراسى وبهذا فقد كان بإمكانه أن يدرك أستاذه المشرف قبل سفره، وأما إذا كان قد تم فيما بين يوليو ١٩٤٠ ونوفمبر ١٩٤٠ فقد كان فى وسع عبد الرحمن بدوى أن يناقش رسالته قبل الميعاد الذى ناقش فيه بالفعل، وهنا ينبغى لنا أن نسأل عن السبب الذى أخره شهراً أو شهرين أو ثلاثة بينما كان عجولاً قبل عام كامل!!

وعلى كل الأحوال فقد ناقش عبدالرحمن بدوى رسالة أمام لجنة لم يكن هذا المشرف أحد أعضائها.

على أن ما يلفت النظر فى الموضوع كله أن الرسالة كانت عن الموت، ومع هذا فإن صاحب الرسالة ظل على حماسة كأنه يعيش أبداً، وهذا من دلائل عظمة البحث العلمى المتجرد عن الحياة نفسها، وعما فيها، حتى لوكان موضوعه هو الحقيقة الكبرى التى هى الموت. ولست أريد أن أقول فى هذا المجلس ما يستسهل الآخرون قوله من أن يلفتوا النظر إلى أنه على الرغم من أن الرسالة كانت عن الموت فان صاحبها لم يتعظ.

❑

لا أظننى قادراً على أن أنتهى من هذا الفصل رغم وصولى إلى نهاية جميلة ومؤثرة فى الفقرة السابقة ... ذلك أن فى جعبتى مفاجأة مذهلة تتعلق بأطراف هذه القضية وتتعلق أيضا بأسلوب الإدارة الجامعية فى عهد أصبحت هذه الإدارة فيها مقتصرة على توقيع أوراق وختم توقيعات، والأمر فى القصة التى سأرويها فيما يلى

يتصل، ويا للمصادفة، برجلين ممن نتحدث عنهما هما هذا العميد الذى حاول أن يلزم تلميذه بالقواعد الجامعية فى شأن الدراسات العليا. وهذا التلميذ نفسه، وقد أصبح أستاذاً قاسيا شديداً «نيتشوى الطابع».. والقصة التى نرويها هنا ذكرها الأستاذ محمود أمين العالم ضمن حديثه عن فترة تكوينة فى مجلة الهلال، وفيها يشير دون قصد إلى عناية العميد أحمد أمين بتعديل النظم الجامعية حين وجد هذه النظم تقود إلى غير ما وضعت من أجله من تقييم عادل، ولنقرأ هذه القصة:

يقول الأستاذ محمود أمين العالم:

«والواقع أننى رسبت فى السنة الأولى [يقصد السنة الأولى من دراسته فى كلية الآداب] رغم نجاحى فى جميع العلوم»!

«وكان ذلك بسبب نظام إدارى غريب كان هذا النظام يفرض على الطالب ألا يدخل الامتحانات الشفهية وكانت تشمل جميع المواد تقريباً إلا بعد دخوله امتحانات جميع المواد التحريرية»!

«وفى هذه السنة كانت اللغة اللاتينية من أصعب مواد الدراسة علىّ فقررت تأجيلها إلى الملحق لأستعد استعداداً أكبر للامتحان فيها. وكان معنى هذا تأجيل امتحاناتى الشفهية فى جميع المواد الأخرى التى كنت قد نجحت فيها بالفعل ونجحت فى امتحان اللغة اللاتينية فى الملحق أو ما كنا نسميه بالدور الثانى الذى ينعقد فى مطلع العام الجديد، ولكنى للأسف رسبت فى مادة أو أكثر فى الامتحانات الشفهية فما اهتممت اهتماما كافيا بمراجعة موادها إذ كنت مطمئنا إلى معرفتى بها بدليل نجاحى فى امتحاناتها التحريرية من قبل».

«والمفارقة الغريبة أننى رسبت فى امتحان الفلسفة فى هذه الامتحانات الشفهية. حضرت هذا الامتحان شبه نائم من إرهاق السهر طوال الليل محاولا تحصيل المقرر

كله وكان الدكتور عبدالرحمن بدوى ـ فيما أذكر جيداً ـ فى لجنة الامتحان وما أعتقد أنه اغتفر لى ذلك أبدا بطبيعته النيتشوية الصارمة»!

«المهم رسبت فى السنة الأولى وأذكر أن الأستاذ أحمد أمين انزعج لهذا جداً وسارع إلى تغيير هذا النظام الإدارى للامتحانات الشفهية».

❑

بوسعنا أن ندرك الآن كيف أن المعاناة السياسية فى السجون والمعتقلات قد صقلت شخصية الأستاذ محمود أمين العالم بما لم يتح للدكتور عبدالرحمن بدوى الذى رشحه طه حسين للمجد المبكر وتركه يتعذب أحيانا بهذا الترشيح، وكذلك فعل مع لويس عوض، ولو أن هذين الرجلين أخذا بعضاً مما فى خلق أحمد أمين لوصلا إلى ما لم يصلا إليه على الرغم من أن ما وصلا إليه كثير وكثير جداً.

بين عملاقين: العقاد والحكيم

لا جدال فى أن وجود الأستاذ عباس محمود العقاد قد أثرى الحياة الأدبية والنقدية فى العصر الذى عاش فيه على نحو لم يتهيأ لعصور تالية أو سابقة، وفى هذا الذى سنطالعه فى هذا الفصل سنرى كيف كان هذا القلم اليقظ بمثابة روح حية لعصر بعثت فيه الحياة الأدبية والعقلية والنقدية بفضل وجود نشاط هذا الرجل العظيم الذى كان ينقد الكتب الجديدة بصفة أسبوعية (على الأقل) حتى مع كونه عضواً فى مجلس الشيوخ وعضواً فى مجلس النواب، وقد كان عضوا فى كل منهما لدورتين..

كان الأستاذ توفيق الحكيم قد أصدر كتابه «مسرح المجتمع» وأرسل نسخة متواضعة التجليد أى مغلفة بالورق فحسب من الكتاب إلى الأستاذ العقاد، وكان الأستاذ العقاد

كالعهد به يجوب المكتبات ليطالع الجديد، فوجد فى اليوم نفسه نسخاً فاخرة وأنيقة التجليد من كتاب الحكيم الجديد، وفى مقال نقدى متميز يعرض العقاد المنصف عمل توفيق الحكيم بعبقرية نقدية متميزة تمسك بالخيط الرئيسى فى العمل الأدبى، وهو الصراع التقليدى مع فكرة المال أو الثروة، ولكن العقاد يستبطن نصوص الحكيم ليصل من خلال أحد حواراته الجيدة إلى حقيقته أو حقيقة نظرته للمال على نحو ما يراها فى عمله، وهى أن الحكيم ينظر إلى المجتمع وهو يعبد وثنه الجديد : المال، ومع أنه **لا يعبد الوثن مع العابدين** فإنه ـ أى الحكيم ـ **لا يستطيع أن يرفع نظره عن هذا الوثن**، والسر فى هذا كما يقول العقاد هو أن **الاحتقار لا يمنع الحب!!**

❑

ولا يكتفى العقاد بكل هذا التحليل الرائع والنقد المتميز ولكنه ببراعة شديدة يتخذ من قصة «النسخة العادية» مدخلاً جميلاً وطريفاً لنقده لعمل الأستاذ الحكيم، وقد وجد أن هذه المفارقة تصلح فى حد ذاتها كمدخل «واقعى» للحديث عن خلق «أدبى» يجتهد صاحبه [الحكيم] فى أن يصوره على نحو آخر.

ولنقرأ مقال العقاد «**بين نسختين**» من بدايته:

يقول الأستاذ العقاد:

«موضوع هذا المقال هو الفرق بين نسختين من كتاب صديقنا الأديب الفنان الأستاذ «توفيق الحكيم».

هكذا يقول العقاد فى مطلع مقاله مداعبا الحكيم بأقصى مداعبة ممكنة، ولكنها فى الوقت نفسه تمثل رواية صادقة لما حدث من تصرف غير حكيم قام به الأستاذ توفيق الحكيم حين أهدى العقاد نسخة عادية بينما النسخ الفاخرة متاحة.

وهو يستأنف حديثه مباشرة فيقول:

«واسم الكتاب «مسرح المجتمع» يضم بين دفتيه إحدى وعشرين مسرحية ذات الفصل الواحد أو ذات الفصلين أو ذات الفصول، جمعها الأستاذ فى نحو ثمانمائة صفحة من القطع الكبير، وعُنى بورقها وطبعها على عادته فى نشر كتبه الفنية».

«وجاءتنى من الكتاب نسخة هدية: **نسخة مغلفة بالورق** كنت أحسب أنها هى الطبعة الوحيدة للكتاب، ولكنى رأيت الكتاب بعينه بعد يوم واحد فى **جلد أنيق** فلم أدر ما هو وجه التفرقة بين النسختين، سواء أكانت النسخ معدة للبيع أم كانت معدة للإهداء».

«أردت أن أحسن الظن فقلت إن الأخ الأديب قد أحب أن يجعلنى ممن آثرهم بالسبق إلى اقتناء الكتاب، فلم ينتظر إلى تمام التجليد».

«وأردت أن أسيء الظن فقلت إنه يوم، فرد يوم، [أى يوم واحد] بين الوقت الذى تسلمت فيه النسخة المغلفة والوقت الذى رأيت فيه النسخة ذات الجلد الأنيق، فهل جاءت التفرقة من قبيل «الاقتصاد» أو جاءت من قبيل التمييز والتفضيل؟».

«إننى سأكتب عن هذه الهدية النفسية فى نسختيها، وأمنح صديقنا فرصة للحيرة فى مقصدى مما كتبت، فمن حق الحيرة أن تقابل بحيرة مثلها، أو بأحسن منها، وعلى الله التوفيق».

هكذا يتواضع العقاد بأسلوب بديع ليجعل عنوان المقال «بين نسختين» وليصل إلى حد القول بأنه سيجعل موضوع المقال «هذه الهدية النفيسة فى نسختيها»، وليجعل كتاب ومؤلفى العصر الذى نعيش فيه إذا ما قرأوا مقال هذا العملاق يتحسرون على أنهم لم يعيشوا عصره الذى كان يهتم بكل شيء ويقدر له قدره.

وها هو ذا الأستاذ العقاد يبدأ عرضه للمسرحيات فيقول:

«الأستاذ توفيق الحكيم نابغة من نوابغ الرواية المسرحية على أسلوبه الذى يرتفع عن الابتذال ولا ينقطع عن المجتمع ولا عن النظارة أو القراء».

«فهل فى وسعه أن يغض الطرف عن المجتمع وما احتواه من الطبقات والتقاليد والفروق»؟.

«كلا فالمجتمع وصورته لا يفترقان، وليس من التجوز البعيد أن تقول عن المسرح إنه صورة المجتمع، وإن اختلفت أساليب التصوير».

«والأستاذ توفيق دائب النظر إلى المجتمع ووثنه المعبود، وهل للمجتمع وثن أكرم وأحقر من المال؟»

«الأستاذ توفيق ينظر إلى المجتمع ووثنه، وهو لا يعبد الوثن مع العابدين، ولكنه لا يستطيع أن يرفع عنه نظره، ولا يستطيع أن يحتقر النعم التى يغدقها على عباده، وإن استطاع أن يعلم أنهم حقراء».

«وتسأله: لماذا لا تهجر هذا المعبد الذى لا ترضى عن عباده؟ فيقول لك انه هو المسرح الذى لا حيلة لى فى هجره، فانه هو الدنيا التى رصدتنى لها ربات الفنون، ولكل رب دنيا يرصد لها مَنْ يختارهم من المرسلين».

«قيل إن الاحتقار لا يمنع الحب، وحقيقة الأمر أن أخانا يحتقر ذلك الوثن ولكنه لا يبغضه ولا ينفر منه، ولو أنه أعطى خياره لطرد عباده من محرابه، ليستأثر به بعدهم على شعائر جديدة وإيمان جديد».

«سمعته مرة ينعى حظ الأديب لأنه يظل أديبا وزملاءه يرتقون دونه فى المناصب والدرجات».

«ولو أنه اكتفى بأن ينعى حظ الأديب لما عجبت، فإن حظ الأديب فى الشرق مبخوس فى نجاحه، ومبخوس فى إخفاقه، ولكنه لم يكتف بهذا بل ظن أن فلانا وفلانا من الذين تسنموا المناصب والدرجات أعظم شأنا منه وهو فى طليعة الأدباء النابهين! وهذا هو موضع العجب، لأن مجتمعات الأرض كلها لا تستطيع أن ترفع مخلوقا من مخاليق الوظائف التى تصنعها «فبريقة» الداواوين إلى مقام فوق مقام الفن والأدب».

«فهل يقبل الأستاذ البدل؟ وهل يتمناه؟ وهل يظن أن اعتزاز المخلوق الديوانى [المقصود هذا التعبير الجميل هو موظف الحكومة الذى يجلس فى الدواوين] مشروع معقول وأن اعتزازه هو بأدبه وفنه مفتعل مردود؟»

❑

هكذا يسقط الأستاذ العقاد أفكاره الطوباوية فيما يتعلق بعظمة الفن والأدب ويوجه نظر صديقه الحكيم إلى أن هؤلاء الذين يسبقونهما إلى الوظائف العليا ليسوا أفضل منهما على أية حال.

وهو فى العبارة السابقة مباشرة يصل إلى أقوى موقف ممكن فى مثل هذه القضية.

وهو يستأنف الحديث فيقول موجهها حديثه للحكيم

«كلا. يا أخانا.. ان الآفة كلها أنك مغيظ من ذلك الوثن لأنك لا تبغضه ولا تعافه، ولكنك تريده على شرطك أنت ولا تريده على شرطه هو، وذلك هو موضع الخلاف!.»

ويبدأ الأستاذ العقاد فى نقد إحدى مسرحيات الحكيم التى ضمها كتابه «مسرح المجتمع»، ويجيد كالعادة عرض الأفكار التى عبرت عنها المسرحية، كما يجيد تقييم المسرحية من الناحية الفنية وهو يقول:

«وفى هذه المجموعة مسرحية بارعة بعنوان «الرجل الذى صمد» أو بعنوان «تيار المجتمع» يجرى فيها الحوار بين زميلين قديمين أحدهما يخسر المال فى سبيل المبدأ والثانى يخسر المبدأ فى سبيل المال، والزميل الحريص على مبدئه فى حاجة إلى بضع مئات من الجنيهات ينفقها فى زفاف بنته، وبين يديه عشرات الألوف معروضة عليه، لأنه مطلوب للعمل فى إدارة شركة تمنحه ثمانية آلاف جنيه ليتوسط عند صديقه وزير المالية فى صفقة كبيرة ، وليس من المنظور أن يرد الوزير رجاءه لأنه رئيس اللجنة المالية بمجلس الشيوخ ، ومعروف بتشدده فى مراجعة القوانين والحسابات ، ولعلهم يعرضون عليه إدارة الشركة ليستريحوا من دقته فى الحساب..»

ويستعرض العقاد نموذجاً من نماذج الحوار الذى يديره الأستاذ الحكيم بين هذين الرجلين، وهو حوار فنى ممتع حافل بكثير من المعانى والفلسفة، ولا يجد العقاد حرجاً فى إيراد فقرات كاملة من حوار الحكيم وكأنه معتز بها وينتهى بعد هذا الاستعراض إلى التعقيب بقوله:

«.... والحوار كله على هذا النسق فى جودة التعبير عن وجهتى النظر ولكن كلمة «العضلات القوية» تكشف عن الصراع بين احتقار الوثن والتطلع إلى نعمه وهباته، ولولا هذا الصراع لما كان هناك تيار ولا كانت هناك حاجة إلى العضلات القوية، فإنما يحتاج إلى العضلات القوية مَنْ وقع فى التيار، وما أبعد المسافة بين المصطرعين المجروفين فى التيار، وبين الناظر إليهم من علٍ دون أن يخوض فيه أو يعوم؟!»

ويضيف العقاد ما يؤكد عبقرية الحكيم فيقول:

«وصدق الأستاذ توفيق حين وصف عبادة المال بأنها إيمان جديد، فهى فى الواقع

شىء لا يقبل التعليل، وهى من ثم تشبه الإيمان بهذه الصفة لأنها قد حلت محل الإيمان، فهم يطلبون المال للمال كما يعبد الصوفى الله لله ، وشر الإيمان أن يتعلق الضمير بخرافة يعلم أنها خرافة ولكنه بين يديها عاجز مغلوب».

❑

وفى النهاية يلقى الأستاذ العقاد بمفاجأته الطريفة:

«الآن يستطيع صديقنا (أى الأستاذ توفيق الحكيم) أن يحار فيما أردته بهذا التعقيب الغريب».

«هل يحسن الظن فيحسب أنه تقدير للكتاب؟ أم يسىء الظن فيحسب أنه انتقام للتفرقة والتمييز بين النسختين؟»

«كلاهما جائز».

❑

ولا يغفل العقاد الإشارة إلى نقطة «علمية» مهمة، فقد تصور الحكيم فى مسرحيته أن أى عضو فى مجلس الشيوخ لابد أن يستقيل إذا ندب لإدارة شركة من الشركات، بينما لم يكن هذا المبدأ الطوباوى معمولا به فى ذلك الوقت، ولأن الأستاذ العقاد نفسه كان عضواً فى مجلس الشيوخ فإنه يذكر بكل وضوح حقيقة أن هذا المبدأ غير معمول به، ولو أنه بحكم مثاليته يتمنى لو كان الأمر كما صوره - خطأ - الأستاذ توفيق الحكيم، وهو يعبر عن هذا المعنى بكل وضوح فى ختام نقده ويقول:

«وجائز معهما أن أذكر أننى عضو فى مجلس الشيوخ، وأن أذكر أديبنا بأن الشيوخ [أى أعضاء مجلس الشيوخ فهكذا كانت تسميتهم، وذلك من قبيل تسمية عضو مجلس النواب بالنائب] لا يستقيلون من المجلس إذا ندبوا لإدارة الشركات كما تخيل فى

كلامه عن صالح بك رئيس اللجنة المالية، ولوددت أن الأمر كما تخيل صديقنا الأديب الحكيم، فهكذا فى الحق ينبغى أن يكون حكم الشريعة على المشترعين».

❑

بقيت بعد هذا نقطة لا أخالنى منصفاً إذا أنا لم أشر إليها على الأقل، وهى أن العقاد نفسه ربما كان بطلاً لمسرحية الحكيم، فهو عضو فى الشيوخ بل عضو بارز وهو نموذج لأولئك الذين ينتصرون للمبدأ على المال، ويخسرون المال فى سبيل المبدأ، وهو مع هذا ظل حريصا على قيمه ومبادئه رغم كل ما كان يضطره إلى المال.

من أجل المجمع اللغوى

محمود تيمور يرتقى بلغته

رأيان مختلفان لسهير القلماوى ويوسف السباعى

من الطرف المتداولة فى تاريخنا الأدبى المعاصر أن الأستاذ محمود تيمور حين أصبح مرشحاً أو مؤهلاً للترشيح لعضوية مجمع اللغة العربية عمد إلى بعض نصوص قصصه المكتوبة باللغة العامية (والدارجة) فحولها إلى اللغة الفصحى. ومع أن هذا التصرف أرضى كبرياء اللغة الفصحى والمتحيزين لها والأكاديميين إلا أنه فى الوقت ذاته جعل البعض الآخر يتساءل عن مدى حق المبدع فى أن يطور إبداعه على هذا النحو.

وبالإضافة إلى هؤلاء وأولئك فإن طائفة ثالثة رأت المعنى الذى عبرت عنه اللغة الفصحى فى هذه القصص بمثابة معنى آخر غير ذلك الذى عبرت عنه اللغة العامية.

وفى رأيى المتواضع أن محمود تيمور، ومَنْ فعل مثله، قد أبدعوا مرتين، وبوسع القارئ أن يقرأ النص فى طبعتيه أو فى إصداريه أو فى لغتيه، ويتأمل مدى توافق الإبداع فى الحالين.

لكنى فى هذا الفصل أحب أن أستعرض مع القارئ مقال الأستاذ يوسف السباعى فى مجلة الرسالة الجديدة فى مايو ١٩٥٤ ، وكان يوسف السباعى رئيس تحرير هذه المجلة التى كان الرئيس السادات نفسه مديرها العام، وقد كتب السباعى مقاله الافتتاحى بعنوان «من عامل ارتست ... إلى فنان» ملخصا بهذا العنوان ما فعله تيمور حين غير اسم القصة من «أبو على عامل ارتست» إلى «أبو على الفنان» والحقيقة أن يوسف السباعى لم يبدأ بالهجوم على محمود تيمور فى هذه الجزئية وإنما آثر أن يتصدى للثناء الذى صبته الدكتور سهير القلماوى على تصرفه هذا، وقد ورد ثناؤها فى حديث إذاعى، وربما يجعلنا هذا نستطرد لنثنى على مدى قدرة الأحاديث الإذاعية فى ذلك الوقت المبكر على استيعاب مثل هذه الآراء القيمة التى أصبحت الآن لا تجد مَنْ يهتم بإبرازها ولا حتى بإيرادها فى أى صحيفة أدبية أو غير أدبية.

❑

والحق أننا نرى مناقشة يوسف السباعى مناقشة عميقة المضمون على عكس الشائع أو المتوقع من ضابط هاو للأدب ومشغول فى الوقت نفسه بالسلطة فى ذلك الوقت المبكر من عهد الثورة. ولذلك نجد السباعى قادراً على أن يستنتج من نصوص الدكتورة سهير القلماوى أنها اعترفت بأن الثوب القديم كان أنسب للمعنى الذى

عرضته القصة، وهو يسجل عليها بذكاء واضح هذا التناقض الذى وضعت نفسها فيه.

كتب الأستاذ يوسف السباعى يقول:

«سمعت الدكتورة سهير القلماوى تحيى فى حديث لها بالإذاعة الأديب العظيم الأستاذ محمود تيمور لهذا الروح الذى أملى عليه وهو فى الذروة من الشهرة أن يجود فنه فيعيد كتابة قصة أصدرها من جديد ليجود وينقح ويغير على سبيل الكمال»، أما هذا الذى أعاد أستاذنا كتابته.. ليجوده وينقحه ويغيره فى سبيل الكمال.. فهو أبو على.. الذى رفعه تيمور من «عامل أرتست» إلى درجة فنان».

«وأنا لا أبحث هنا فى «أبى على» نفسه.. كيف.. كان.. وكيف أصبح.. وما فعل به صاحبه وخالقه.. الأستاذ تيمور. وإنما أبحث فى نظرية التجويد والتنقيح التى أخرجها إلينا أستاذنا الكبير وأيدته فيها وحيته عليها دكتورتنا النابغة».

«وأنا أحب تيمور.. وأحب دائماً أن أشارك فى تحيته فى كل شيء إلا فيما حيته عليه سهير من تجويد وتنقيح».

«بل إنى لأرى الدكتورة تناقض نفسها بذلك التأييد وتلك التحية.. فهى تعترف فى حديثها بطفافة التغيير وبأن القصة مرتبة نفس الترتيب جملة جملة.. ثم تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول ما معناه إن الثوب القديم كان أليق بأبى على وأنسب له. وفى قولها اعتراف صريح واضح بأن غرض المؤلف الذى من أجله أعاد كتابة قصته وهو كما جاء فى المقدمة:

«ليبدل ويغير فيها حتى يخرج الموضوع فى ثوب أليق وأقرب إلى رضائه من الناحية الفنية»، لم يتحقق.. بل على النقيض تحقق عكسه».

هكذا ينتبه السباعى إلى نقطة جوهرية،تتعلق بمدى ما يمكن للمبدع أن يتصوره من قدرته على تطويع وسائل جديدة أو أثواب جديدة للتعبير عن فكرة عبر عنها من قبل بإجادة حين أجاد استخدام القالب المناسب لها .

❑

كذلك نجد يوسف السباعى وهو منتبه تماما إلى حقيقة أن هذا التبديل أو التغيير لا علاقة له بالنضج الفنى، وهو ينبه إلى حقيقة أن كل مرحلة من مراحل الفنان لها إنتاج مخصوص، ويضرب الأمثلة على الفروق التى يمكن أن توجد بين هذه المراحل.

والحاصل أن الأستاذ السباعى قد وصل فى تناوله لهذه القضية إلى آفاق متميزة من الإلمام بالفن والدراسات الفنية والنقدية مما كان يفوق صورته المرسومة فى الأذهان ، وبخاصة على يد بعض الأيدولوچيين الذين ناصبوه العداء على الدوام ، وهو يقول :

«هل هذا هو التجويد والتنقيح الذى تراه الدكتورة؟ والذى تؤيده وتحيى الكاتب من أجله...».

«على أية حال لتر ما تراه.. فجوهر الموضوع عندى ليس ما تراه أو ما لا تراه. وأنا لا أناقش حدوث التجويد أو عدم حدوثه.. وتحقيق غرض تيمور أو عدم تحقيقه لأنى أعترض على مجرد محاولته».

«فالفنان الخالق يظهر لنا انتاجه على مختلف مراحل حياته.. ولا شك أن هذا الانتاج يتطور بتطور تفكيره وشعوره فى تلك المراحل المختلفة».

«وكل إنتاج له إنما يعبر عن طبيعته فى تلك المرحلة.. ويعكس لنا صورة من نفسه وأحاسيسه».

«وكل مرحلة من مراحل الفنان لها قدرتها على إنتاج مخصوص... وميلها إلى اتجاه معين حسب الانفعالات التى تتعرض لها نفس الفنان فى تلك المرحلة وحسب تكوينها الداخلى وطريقتها فى التفكير والإحساس.. واستقبال الأحداث الخارجية المنعكسة عليها.. ثم قابليتها لإرسالها وقدرتها عليه».

....

«والمسألة ليست مسألة نضوج وتحسين.. بل هى تغير فى التفكير وتبدل فى الإحساس. فالفنان قد يكون فى شبابه أكثر قدرة على إنتاج كل ما يمس القلب فهو مفرط فى الحساسية، مرهف فى المشاعر سريع الالتقاط والانفعال، سريع التأجج والاشتعال.. وهو فى كهولته أكثر قدرة على إنتاج كل ما يمس العقل.. فهو مفرط فى التروى.. والاتزان.. وكلا الإنتاجين له وزنه وقيمته .. وليس من المعقول أن نطلب من الفنان - وهو فى دور الكهولة - وقد تبدلت مشاعره وتغيرت طريقة تفكيره أن يمسك بما أنتجه فى شبابه ليعيد تجويده وتنقيحه بما يلائم تفكيره الحالى فى تلك المرحلة ويبدل ويحور ما لا يعجبه وهو فى سنه هذه مما كان يعجبه وهو فى سنه تلك».

«هذا غير معقول أبدا.. فإنتاج الفنان الأول قد خرج من نطاق ملكيته وهو بنشره وإذاعته قد أضحى ملكا للقراء فهو لا يملك حق تبديله ولا تغييره . والتاريخ سيحتفظ بأصله الأول أراد هو أم لم يرد».

«وإذا كان كل كاتب أو فنان يمسك بنتاجه كلما تقدم به السن ليبدله ويحوره فلن نجد لنتاج الفنانين فى خاتمة حياتهم إلا ما أقروه فى شيخوختهم.. وما انعكس من

نفوسهم وهم فى آخر مراحلهم والحياة ليست كلها شيخوخة. وليست كلها حكمة وعقل.. من إنتاج آخر العمر».

❑

ويصل يوسف السباعى إلى المجاهرة برأيه فى أنه فيما يتعلق بمحمود تيمور على وجه الخصوص فإنه، هو وأقرانه، يفضلونه على نحو ما كان لا نحو ما أراد أن يطور نفسه.

«... أما عن تيمور بصفة خاصة. فأنا أؤكد له ويشاركنى الكثير ممن سمعت آراءهم، أننا نحب إنتاج تيمور الأول.. نحب إنتاجه الطلق السهل المعبر بلا تجويد وتنقيح ولا تكليف.. فإذا كان هو وزمرة الزملاء من كبار الكتاب واللغويين.. قد أضحى ضائق الصدر بصورته القديمة.. فليرسم غيرها.. ولكن حذار من أن يمد يده لإتلاف الأخرى بزعم إصلاحها».

❑

ثم يناقش يوسف السباعى علاقة هذا التبديل باختيار محمود تيمور عضوا فى المجمع اللغوى ويشير إلى الفارق بين ما يمكن لنا أن نسميه عقلية تيمور المؤسسية، وعقلية توفيق الحكيم المتمردة على روح المؤسسة ، والحق أنى فى هذه الجزئية أكاد أنحاز إلى محمود تيمور الذى يمثل التزاماً بروح المؤسسة، وأذكر فى هذا المجال أن تيمور قد أفاد مجمع اللغة العربية إفادات حقيقية، وخاصة فى تبنيه للنشاط الرائد فى لجنة ألفاظ الحضارة حيث وضع الحضارة كثيراً من الألفاظ العربية لكثير من الألفاظ والمعانى المستحدثة .

يقول السباعى:

«وإنى لأسائل نفسى.. أيمكن أن يكون سبب ذلك كله.. عضويته للمجمع اللغوى.. وشعوره بضرورة التزمت والتحفظ التى يحتمها عليه مركزه كعضو فى المجمع»..

«أيمكن أن تكون عضويته هذه.. هى التى أشعرته بالخجل والحرج من صاحبه القديم «أبو على عامل أرتيست» فأبى ألا أن يرفعه ليجعل منه «أبو على الفنان»» .

«إذا كان ذلك صحيحا .. فأشد ما يحزننى انضمام أستاذنا الحبيب توفيق الحكيم إلى المجمع ولشد ما أخشى منه أن يمسك بعودة الروح وينهال عليها تجويدا وتنقيحا» .

«شىء واحد هو الذى يطمئننى.. وهو قول الحكيم لى: «لقد أخذونى عضوا كما أنا... ولن أغير ما بى» وعندما قلت «أخشى أن يفسدك المجمع» أجاب «بل أخشى أن أفسده» .

❑

بقى أن نشير إشارة تاريخية طريفة إلى أن محمود تيمور قد سبق توفيق الحكيم إلى عضوية مجمع اللغة العربية حيث اختير لهذه العضوية فى نهاية ١٩٤٩ على حين اختير الأستاذ توفيق الحكيم فى ١٩٥٤ . وكان تيمور من أوائل الأدباء الذين انتخبوا لعضوية هذا المجمع بعد مجموعة الأدباء الذين شملتهم قرارات التعيين ولم يسبق تيمور من الأدباء إلى الفوز فى الانتخابات إلا الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى الذى انتخب فى نهاية ١٩٤٧ والأستاذ أحمد حسن الزيات الذى انتخب فى النصف الأول من عام ١٩٤٩ ، ثم جاء توفيق الحكيم بعد تيمور.

❑

ولكن ما هى قصة محمود تيمور مع المجمع اللغوى قبل انتخابه عضواً فيه ؟

يمكن لنا البدء بتلخيص القصة فى أن انتاج محمود تيمور القصصى نال إعجاب المجمعين المكلفين بفحص الإنتاج المقدم للحصول على جائزة المجمع، ودفع هذا الإعجاب اللجنة إلى أن تقرر أن يُمنح الأستاذ تيمور وحده الجائزة عن إنتاجه القصصى كله، وعندما رفع تقرير هذه اللجنة للاعتماد من مجلس المجمع توقف

ثلاثة من أعضاء المجمع اللغوى (هم الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والدكتور أحمد زكى) وطلبوا أن يكون التتويج للأعمال القصصية التى بالفصحى فقط، وقد وافق أعضاء المجمع على هذا الرأى الذى ذاع وشاع وانتشر بعد هذا ومن ثم فقد وجد الأستاذ تيمور نفسه مدفوعا إلى أن يعيد صياغة أعماله القصصية التى لم تكتب باللغة الفصحى، وكانت النتيجة على نحو ما يرى القارئ لهذا الفصل أن تحولت «عامل أرتست» .. إلى «فنان» ومن الطريف أن مداولات أعضاء مجمع اللغة العربية فيما يتعلق بهذا التحديد للإنتاج القصصى التيمورى المستحق للجائزة قد دارت على الورق. وفى منتهى السلاسة، والسبب فى هذا أن جلسة المجمع التى كانت مخصصة لإقرار لجنة الأدب عقدت بالتمرير، بسبب إجازة مفاجئة قررتها الحكومة بمناسبة بدء الجلاء عن المعسكرات الانجليزية، ولم يكن بد من أن يتم عقد الجلسة بالتمرير بناء على اقتراح أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد وذلك لأن موعد حفل توزيع الجوائز كان قد حُدد سلفاً، وهكذا أبدى الأعضاء آرائهم على الورق على نحو ما لخصناه.

ومن حسن الحظ أن النصوص الكاملة متاحة فى كتابنا هذا فى الفصل العشرين حيث قدمنا بيانا تفصيليا بقرارات مجمع اللغة العربية فيما يخص جوائز المجمع وذلك عند حديثنا عن زكى مبارك، وبوسع القارئ أن يعود إلى الصفحات ١٩١ ـ ١٩٣ .

شيوخ الأزهر ونقد الإبداع

لازلت حفيا بتكرار الحديث عن دور الأزهر فى الاستنارة الفكرية فى العصور السابقة على الشمولية، ولا أزال أضرب المثل على هذه الاستنارة بشخصيات شيوخ الأزهر الكبار الذين كانوا علماء فى اللغة والأدب بنفس القدر الذى كانوا فيه علماء بالأصول وبالفقه.

ولست فى حاجة إلى أن أنقل للقراء نصوصاً من كتابات هؤلاء الأئمة الكبار فى نقد الأعمال الأدبية والفنية، فربما تكفينى الإشارة إلى الكلمة التى كتبها الشيخ مصطفى عبد الرازق عن صوت السيدة أم كلثوم وأدائها، أو الكلمة التى كتبها فى نقد مسرحية «أهل الكهف» للأستاذ توفيق الحكيم.

وربما أكون بحاجة إلى أن أشير إلى ارتفاع نسبة إسهامات الأزهريين علماء وطلبة

فى مجلة الرسالة، وحبهم للأستاذ أحمد حسن الزيات ولمجلته، وأذكر أن زوج خالتى المغفور له الشيخ عبد الحليم هلالى وكان أول دفعته فى كلية الشريعة ظل يحتفظ بأعداد الرسالة كاملة بعد ما اشتراها وقرأها عدداً عدداً، وليس من شك فى أن هذه المواظبة كانت من أبرز العوامل فى اتساع أفقه وارتفاع مستوى فهمه وحكمه على الأمور.

❑

وأكاد أعتقد أن طه حسين قد أفاد إفادة عظمى من رد الشيخ محمد الخضر حسين عليه حين نشر كتابه «نقض الشعر الجاهلى» فقد تولى هذا الشيخ الجليل تصويب كل فقرة من فقرات طه حسين فى كتابه، وقد قدم هذا التصويب الدقيق [والضخم الذى كون كتابا كبيراً عظيماً] خدمات جليلة للغة والأدب ولمنهج البحث والتاريخ والأسلوب وبناء العبارة ، والحق أن القارئ لنص الشيخ محمد الخضر حسين فى الرد على الدكتور طه حسين يدرك إلى مدى كان طه حسين لا يزال بحاجة إلى الإحاطة بالتراث العربى والتمكن منه على نحو ما تمكن منه محمد الخضر حسين، كذلك يلاحظ القارئ لنص الشيخ محمد الخضر حسين أن طه حسين لم يكن قد تمكن بعد من أدواته البحثية، وهذا لا يقلل من قيمة طه حسين عند مَنْ يدركون أن فوق كل ذى عليم، ولعله أتجاوز هذا إلى تأكيد ما أشرت إليه فى مطلع هذه الفقرة من أن طه حسين كان محظوظاً حين صادف مثل هذا التصويب العلمى الممتاز الذى كان كفيلا بأن يدله على مواضع الخطأ فى استنتاجاته أو نقولاته أو تفكيره وبحثه.

❑

وقد أشرت فى فصل سابق (هو الفصل السادس صفحات ٦٣ - ٧٠) إلى مدى الحظ الذى صادفته الحياة الأدبية بوجود أستاذ كبير ناقد يقظ كالأستاذ العقاد يقرأ ما يصدر ويقيمه ويعلق عليه وينشر كل هذا التقييم والتوجيه على الناس، ولم يكن هذا دأب العقاد

وحده، وإنما كان يشاركه فيه أقرانه من رواد الحياة الثقافية فى عصر ازدهارها، وإن كان العقاد قد تفوق عليهم جميعاً .

وفى هذا الفصل يطيب لى أن أتناول الجانب الآخر من القضية، وهو الحديث عن نموذج من نماذج التكوين الواعد لمشايخ الأزهر (اللاحقين) وهم فى مرحلة الشباب والفتوة العلمية.

وهذا هو الدكتور طه حسين، هو الآخر، لا يجد حرجا فى أن يكتب بنفسه عروضا للكتب الجديدة يشارك بها مع الشباب المتابعين لحركة الكتب فى باب «صدر حديثا» الذى كانت مجلة «الكاتب المصرى» تختتم به أعدادها، وكان بابا جاداً متعدد الصفحات حريصاً على تتبع الإصدارات الجديدة والتعريف بها ونقدها.

ومن الجدير بالذكر أن مجلة الكاتب المصرى نفسها [أو الدار التى كانت تصدرها] كانت تنشر كتباً مترجمة، ومن هذه الكتب ترجمة كتاب أو قصة «وازن الأرواح» للكاتب الفرنسى اندريه موروا (عضو المجمع اللغوى الفرنسى) وقد عربه عبدالحليم محمود (مدرس علم النفس بكلية اللغة العربية) هكذا جاء التعريف بالمؤلف والمترجم فى الإعلان الذى صدر عن هذا الكتاب فى مجلة الكاتب المصرى نفسها.

وفى عدد إبريل ١٩٤٦ من هذه المجلة الرصينة كتب طه حسين ناقداً (أو عارضا) هذه الترجمة فأثنى ثناء شديداً على المترجم، وإن كان لم يعفه فى نهاية المقال من قرصة نحوية على عادة طه حسين فى معظم نقده، كما لخص للقراء موضوع القصة التى ترجمها هذا الأزهرى المتميز الذى أصبح شيخاً للأزهر بعد ربع قرن من هذه الترجمة.

يبدأ الدكتور طه حسين عرضه للكتاب المترجم بقوله:

«لست أدرى أأثنى على الأستاذ عبدالحليم محمود لأنه أقدم على الترجمة أم لأنه أحسن فى الترجمة. ولعل من الحق أن أثنى عليه للأمرين جميعا. فالأستاذ عبدالحليم محمود شيخ من شيوخ الأزهر، تخرج فى معهدنا الدينى العظيم، ثم سافر إلى فرنسا فتعلم لغتها، وأخذ من ثقافتها بحظ، وتخرج فى الفلسفة، وعاد فاستأنف فى الأزهر

حياة جديدة لم تخل من بعض الجهد. وهو الآن يقدم إلينا قصة فرنسية، قد ترجمها إلى العربية. وكل شيء جائز، حتى أن يترجم شيوخ الأزهر قصص أندريه موروا. وما من شك فى أن هذه آية من الآيات التى تدل على تغير الزمان، وعلى أن مصر تمضى حقاً إلى أمام لا تداعب فى ذلك ولا تحب المزاح».

«ومن الحق أن نسجل للأستاذ عبدالحليم محمود أنه لم يترجم فكاهة، ولا مجوناً، ولا تهالكا فى الحب، ولا إمعاناً فى الغرام، وإنما ترجم قصة إن لم تكن فلسفة فهى شيء يتصل بالفلسفة اتصالا متينا. ويكفى أن تعلم أن موضوع القصة هو البحث عن خلود الروح. وقد صدق الله العظيم فى قوله الكريم:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

ويبدأ طه حسين فى التعريف بالعمل الفنى لاجئا إلى تلخيصه فيقول:

«والقصة التى ترجمها الأستاذ عبدالحليم محمود تنتهى إلى أن الروح من أمر الله، وإلى أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا. فهى قصة طبيب قرأ فى بعض الصحف أثناء الحرب العالمية الأولى أن زميلا له فى الطب قد استكشف أن وزن الجسم الإنسانى ينخفض بعد الموت انخفاضاً مفاجئاً، جرب ذلك مرة ومرة، فلما استيقنه استنبط منه أن هذا الانخفاض دليل قاطع على وجود الروح، وأن الجسم إنما ينخفض وزنه لأن الروح يفارقه».

«قرأ الطبيب چيمس هذا فى الصحف، فعنى به واستأنف التجربة فصحت له، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، وإنما مضى فى تجربته إلى مدى أبعد».

....

وبعد أن يستعرض طه حسين موضوع القصة فى عبارات سريعة قادرة على التلخيص يبدأ فى تقريظها وتقريظ مترجمها على نحو بديع ويقول:

«فالقصة كما ترى علم وفلسفة وتجربة. والترجمة سهلة يسيرة صادقة، وفى أسلوبها العربى رصانة وجمال».

ونأتى إلى موضوع «القرصة» اللغوية التى كان طه حسين يحرص عليها فى تعامله مع الجيل التالى من الكتاب والعلماء، وها هو يواجهنا بها فيقول:

«وكنت واثقاً بأنى لن أجد فيها خطأ نحوياً أو لغوياً لمكان الشيخ المترجم من علوم اللغة والنحو، ولكنى رأيت الرأس مؤنثاً، فلأحمل ذلك على الخطأ المطبعى. ولأشكر للأستاذ جهده، ولأهنئه بما أتيح له من توفيق، ولأتمن له المزيد من هذا الجهد، ومن هذا التوفيق».

❑

وإذا كان لابد من تصوير أسلوب طه حسين فى النقد وتمسكه بعرض بعض الأخطاء اللغوية أو النحوية فلنا أن نقارن هذا الذى فعله طه حسين مع عبد الحليم محمود وهو قرصة خفيفة فحسب بما فعله فى وقت معاصر مع سكرتير تحرير مجلة الكاتب المصرى نفسها الأستاذ حسن محمود حين كتب ينقد كتابه كليمنصو فقال فى نهاية النقد:

«إن كنت آسف أشد الأسف لأنه لم يسلم مما يتورط فيه المترجمون عادة من هذا الخطأ اللغوى الذى يمكن اتقاؤه بشىء قليل من العناية. فالأستاذ حسن محمود يتجافى عامداً أو غير عامد عن بعض الأصول التى لا ينبغى أن يتجافى عنها الكتاب. فقاعدة التذكير والتأنيث تلقى منه عناء شديداً. وفى الكتاب أغلاط نحوية لا أدرى أأحملها عليه هو أم أحملها على الخطأ المطبعى، ولكنها على كل حال لا تُطاق ولا يصح أن تشوه جمال كتاب كهذا الكتاب. وما أحب أن أمثل لما فى الكتاب من خطأ فى اللغة والنحو، فسيجد القراء هذا الخطأ وسيعرفونه بأنفسهم، وسيغيظهم ذلك كما غاظنى، ولعل الأستاذ حسن محمود يعتبر بذلك [أى يتعظ على نحو ما نقول الآن] فيعنى بلغته ونحوه أولا، ويصلح ما فى هذا الكتاب من خطأ حين يعيد طبعه إن شاء الله»

3

ملامح سياسية فى الحياة الأدبية

- منذ نصف قرن : على أيوب يدعو إلى وزارة للفنون الجميلة
- يوسف إدريس والانطباع الأول عن السادات
- محمود فهمى النقراشى باشا فى منام سياسى
- غاندى بين شاعرين مصريين (أحمد شوقى وسعيد عبده)
- عبد الرحمن الرافعى ينتقد جهود النحاس فى إنشاء الجامعة العربية

منذ نصف قرن: على أيوب يدعو إلى وزارة للفنون الجميلة

كان على أيوب بك من الوزراء السعديين، بدأ وفديا كعادة أقطاب الحركة الوطنية، وآثار الانضمام لأحمد ماهر والنقراشى عندما انفصلا عن الوفد وأسسا الهيئة السعدية، وقد أتاح له انتماؤه لهذه الهيئة أن يتولى الوزارة عدة مرات بدأت عام ١٩٤٠ حين رؤى تدعيم وزارة حسن صبرى بمجموعة من وزراء الهيئة السعدية عند تشكيلها فى يونيو ١٩٤٠ وحين خرج السعديون من الوزارة بعد أقل من ثلاث شهور خرج معهم ولم يعد إلى المناصب الوزارية إلا بعد أكثر من ثمان سنوات حين تولى وزارة المعارف خلفاً للسنهورى فى فبراير ١٩٤٩ حين آثر السنهورى أن يرأس مجلس الدولة وأن يتنازل عن منصبه الوزارى، وكان السنهورى قد خلف فى وزارة المعارف

الدكتور محمد حسين هيكل باشا الذى كان بدوره قد خلف نجيب الهلالى باشا الذى كان سلفاً له أيضا، وهذا التسلسل يعطينا فكرة عن قيمة على أيوب فى عصره وهى القيمة التى جعلته يتولى هذه الوزارة بعد هؤلاء الأفذاذ، وقد ظل الرجل وزيراً للمعارف حتى نهاية عهد وزارة إبراهيم عبدالهادى فى يوليو ١٩٤٩ حيث أصبح وزيراً للشئون الاجتماعية فى وزارة سرى الائتلافية الكبرى.

وهكذا فقد كان الرجل قيمة كبيرة فى حد ذاته، على الرغم من أن ترداد اسمه فى التاريخ يرتبط أكثر ما يرتبط بواقعة لم تصور بدقة حولى مقتل ابنه على يد الملك فاروق شخصيا وهى واقعة من الوقائع التى يتغلب فيها الفولكلور حتى يطغى على نواتها الأصلية. وهى على كل حال ليست موضوع حديثنا فى هذا الفصل.

إنما نحن معينون بهذا الفهم الراقى الذى دفع وزيراً سابقا للمعارف (كان على أيوب كذلك حين نشر مقاله فى مجلة الهلال فى مارس ١٩٥١) إلى أن يكتب بنفسه مطالبا بإنشاء وزارة للفنون الجميلة والآثار.

❑

والحق أن دعوة على أيوب مختلفة تمام الاختلاف عما تم فى بداية عهد الثورة من إنشاء وزارة للإرشاد القومى (فى نهاية ١٩٥٢) تحولت بعد هذا إلى وزارة للثقافة ثم انفصلت إلى وزاريتين (وأحيانا أكثر) واستقر الانفصال على أن تكون هناك وزارة للإرشاد القومى (سميت الاعلام بعد هذا عند سيادة الميل إلى تهذيب الألفاظ المتعلقة بسيطرة أجهزة الدولة) وأخرى للثقافة.

دعوة على أيوب كانت على العكس من هذا تطالب بما يطالب به الرأى العام الآن من وزارة خاصة للاثار تنفق الإيرادات الناشئة عن الآثار فى حماية الآثار، لا فى أغراض مظهرية أخرى.. ويتفوق عل أيوب على الدعوات الحالية بأن يجعل الأمر فى إطار دعوة أكثر منطقية وأكثر رقيا إلى وزارة للفنون الجميلة.

وهكذا فانه يربط الآثار بالفنون الجميلة ولا يربطها بالمخازن والعهدة والعرض والتسجيل أو الترميم على أحسن الأحوال.

❑

نقرأ مقال على أيوب ويعجبنا فيه مدخله، وتعرضه لفكرة أخرى لا خلاف عليها كى يخلص منها إلى فكرته وهو يقول:

«ازدادت أعباء وزارة المعارف وتشعبت أعمالها وتضخمت ميزانتيها نتيجة لتطور التعليم فى مصر، واتساع نطاقه، واعتباره حقا لكل مصرى ومصرية، وهناك من يقترحون لعلاج هذه الحالة أن توزع أعباء الوزارة على الإدارات الإقليمية فى المحافظات والمديريات. على أن خيرا من ذلك وأجدى فائدة أن تنشأ وزارة جديدة للفنون الجميلة والآثار، فتحمل عن وزارة المعارف جانبا كبيرا من الأعباء الملقاة عليها، وفى الوقت ذاته تلقى الفنون الجميلة والآثار ما تستحقه من رعاية واهتمام».

هكذا سرعان ما يصل على أيوب إلى جوهر فكرته وهو يقول:

«إن المصريين لا ينقصهم الاستعداد الفطرى للنبوغ فى الفنون. وقد عرضت فى أوربا أخيرا منتجات فنية لبعض الصبية المصريين من أهل الريف، فبهرت رجال الفن هناك، وشهدوا بأن عبقرية قدماء المصريين التى صنعت المعجزات لا تزال كامنة فى سلالاتهم المنبثة على ضفاف النيل».

«ولكننا ما زلنا ننظر إلى الفنون الجميلة على أنها لون من ألوان الترف والكماليات، فى حين أنها من أهم مقومات الحضارة والترقى».

....

❑

ثم ها هو على أيوب يتحدث عن حال الآثار على نحو ما لمسه كوزير مسئول ويلخص بعبارة جيدة كثيراً من الأمور التى ندركها اليوم:

«وعندنا من الآثار المصرية القديمة والإسلامية والقبطية كنوز عظيمة لا تقوّم بمال، لكنها لا تلقى منا ما تستحقه من العناية وحسن التقدير، ولا زال كثير منها مطمورا فى الأرض، أو مهملا فى المبانى الأثرية. ولا زال المعروض منها فى مختلف المتاحف ينقصه الترتيب والتنسيق، بل لا زال بعضه يتسرب إلى الخارج بلا انقطاع».

«ووزارة المعارف المشغولة بمشاكل التعليم وسد حاجات الطلاب والمدرسين التى لا نهاية لها، ليس لديها من الوقت والجهد والمال ما يكفى بعد ذلك كله لرعاية الفنون الجميلة والقائمين بأمرها من فنانين وموظفين. وهى لا تستطيع أن تقتطع من ميزانيتها ما يكفى لرعاية الآثار والقائمين بشؤون المتاحف المختلفة».

«ولكن وزارة تنشأ للفنون الجميلة والآثار خاصة، تستطيع أن تتفرغ لها، وأن تتعهد العبقريات الفنية الكامنة فتعمل على إبرازها وتنميتها، فتزدهر الفنون ويكثر الفنانون النابغون. كما أنها تستطيع أن تتعهد الآثار الموجودة بالصيانة والتنسيق، وأن تزيد فيها بما توجهه من عناية خاصة لأعمال البحث والاستكشاف».

«وهكذا، يتضح أن إنشاء وزارة للفنون الجميلة والآثار فى مصر، أمر لابد منه، ولا يحتمل أى إبطاء أو تسويف».

يوسف إدريس والانطباع الأول عن السادات

تعلق كثيرون بالدكتور يوسف إدريس وأدبه لأسباب كثيرة تتعلق بموهبة هذا الأديب العظيم، ولكننا لانستطيع أن ننكر أن بعض هؤلاء قد تعلقوا بقصصه نظراً لما كان يعبر عنه من معانٍ جريئة طالما افتقدوا مَنْ يعبر عنها، كذلك كانت مقالات يوسف إدريس تحظى باقبال القراء وإعجابهم، لأنه كان قادراً على أن يفرغ كثيراً من الشحنات النفسية الكبيرة التى تعتمل بها نفوسهم، أو لأنه كان يعبر عن بعض ما يريد بعضهم التعبير عنه فى صورة غاضبة أو فى لحظة غضب.

وقد أخذ على يوسف إدريس إسرافه فى الشطط فى الخصومة والمديح على حد سواء، ولكنه فى النهاية كإنسان وكبشر كان صاحب عذر فى معظم مواقفه.

وقد استطرد الأستاذ أنيس منصور فى أحد مقالاته إلى ذكر واقعة تسريب الأستاذ

يوسف السباعى لخطاب حافل بالاعتذار والتمجيد كتبه له الدكتور يوسف إدريس فى لحظة صفاء وكيف أحرج نشر هذا الخطاب صاحبه يوسف إدريس.. واستطرد الأستاذ أنيس منصور مرة أخرى إلى قصة مشابهة للدكتور يوسف إدريس مع الرئيس حسنى مبارك، وحين طلب الأستاذ أنيس منصور صورة من خطاب الدكتور يوسف إدريس إلى الرئيس تعجب الرئيس وقال إنه لن يعطيه له لأن الكلام الذى احتواه الخطاب لا يمكن أن يصدر عن إنسان إلا فى اعتذاره إلى خالقه جل فى علاه.

ونحن نعرف أن يوسف إدريس، لأسباب لا يليق ذكرها، اندفع فى مرحلة معينة إلى الهجوم على الرئيس السادات على نحو فظيع ومكثف ووصل به الأمر أن صور حرب أكتوبر كأنها تمثيلية، وبعث أحد القراء برسالة بهذا المعنى إلى بريد الأهرام، ونشر الأهرام الرسالة ، وافتعل الدكتور يوسف إدريس أزمة مع الأستاذ صلاح منتصر مدير تحرير الأهرم حينذاك، وحاول أن يصور أن هذا كله لم يحدث ولكنه للأسف الشديد كان قد تورط بالفعل فى إصدار كتابه الغير المشرف «البحث عن السادات» وفيه ما فيه من هجوم مفزع مع أن يوسف إدريس فى بداية حياته العامة كان من رجال السادات بل كان يعمل معه فى الخمسينات فى المؤتمر الإسلامى.

❑

يذكر القراء كثيراً من أطراف هذه المواقف ولكن الموقف الذى لم يحظ بالشهرة ولا بالضوء وربما كان أهم من هذه المواقف جميعا لأنه موقف صادق وحقيقى، وهو وحده، فى رأيى المتواضع، بمثابة الموقف الأولى بأن يأخذ وصف «الموقف المعبر» عن نظرة يوسف إدريس الحقيقية للسادات، وإذا كان القول الإنجليزى بان الانطباع الأول هو أفضل الانطباعات كثيرا ما يثبت فعاليته فان فى تأمل موقف يوسف إدريس، هذا الذى أشير إليه فى هذا المقال، أكبر دليل على حقيقة موقفه من السادات ومن زعامته بعيداً عن كل ما لحق من الحسابات والتحالفات والاتفاقات والظروف والإغراءات.

تمثل هذا الموقف في المقال الذى كتبه يوسف إدريس فى الأهرام عقب اغتيال السادات مباشرة، وسنورد للقارىء نص المقال بأكمله وما تضمنه من نصوص عاقلة متزنة مسئولة فى مواجهة جريمة الاغتيال، وفى تقدير موقف الشعب من حرص على إظهار الرغبة فى مواصلة سياسة السادات بالاجتماع حول الرئيس محمد حسنى مبارك.

إلا أنى أحب أن أبدأ بما أنهى به يوسف إدريس مقاله من حديث مباشر وجهه إلى روح الرئيس السادات على نحو ما يُخاطب الرسل والقديسون الذين يكون إيمانهم برسالتهم وطريقهم عظيما وخطيراً، والذين يكون استشهادهم من أجل الكلمة يقولونها فتسيل لها دماؤهم، وهو لهذا يقول مخاطباً السادات:

....

«أما أنت أيها الزعيم الراحل فارقد ترعاك رحمة الله فلقد قلت كلمتك واستشهدت فتحولت الكلمة الى رسالة فليس سوى استشهاد الإنسان فى سبيل رسالته دليل أكبر دليل على عظم الإيمان بها.

ولقد كان إيمانك بطريقك عظيما وخطيرا

ولكن، أكان لابد يا إلهى أن تسيل دماؤك هكذا؟!

أكان لابد؟!

ويبدو أنه كان لابد!!.

فليس هناك وسيلة أخرى كى يستحيل الزعيم الى رسالة».

❑

على هذا النحو ختم يوسف إدريس المقال، أما المقال نفسه فيبدأ بتعبير يوسف إدريس عن ذهوله ومن مشاركته للشعب المصرى ذهوله وهو يبدأ مقاله بقوله:

«مثل الشعب المصرى ذُهلتُ لما حدث.

«ومثل الشعب المصرى اتخذ ذهولى ذلك الطابع الذى حير العالم واختلف المحللون حول تفسيره لا. لم يكن مثل الحزن الذى أصاب شعبنا يوم وفاة عبدالناصر فقد كنا أيامها أطفالا مات أبونا وتركنا نواجه وضع هزيمة منكرة وإرادة مكسورة وكان انفعالنا بالغ العنف وتعذيب الذات واليأس».

هكذا يفتتح يوسف إدريس مقاله **بالمقارنة العاقلة المتزنة بين موقف الشعب من وفاة عبدالناصر ووفاة السادات** وهو كما نرى يقدم فى مرحلة مبكرة أفضل التحليلات للفارق بين الموقفين، وربما يدهش كثيرون من أن يكون يوسف إدريس قد عبر عن هذا المعنى على هذا النحو الذكى الرصين فى هذا الوقت المبكر، وهو يواصل تحليله فيقول:

«حزننا على السادات كان حزن الأبناء الناضجين الأبناء الذين كبروا وامتحنوا ولم تعد كلمة أو حدث يضعهم ويقيمهم أو يقعدهم. حزن شعب عريق فى مفهومه لماهية الحكم والحاكم ووضع الزعيم من القافلة، ودور القافلة اذا استشهد الزعيم».

ربما أتوقف لأشير إلى أن أيا من أنصار السادات لم يصل إلى هذا التعبير الجميل والتصوير الأجمل الذى وصل إليه يوسف إدريس، وهو ما يدلنا بكل وضوح على ما لا أكف عن التنويه به من أن **العقل الذكى هو أكبر منصف فى هذه الحياة**، ولهذا فإنى حريص على أن أشرك القراء بالمتعة ببقية هذا المقال:

«... كانت حيرتى الأولى من حيرة الشعب. حيرة لم تطل، فالخليفة مبارك قائم وموجود وشهم ومقاتل وشجاع وفى عنفوانه، والمشكلة هى وضعه فى مقعد القيادة أولا والاطمئنان إلى أن القافلة ماضية فى طريقها ولن تتوقف أبدا، وبعد هذا نستطيع أن نحزن ما شاء لنا الحزن، وأن نسترجع الذكريات، وأن نتحسر».

وبمشاعر صادقة وحقيقية وراقية وتفكير متزن ثاقب يعبر يوسف إدريس عن رأيه فى حادث الاغتيال فيقول:

«لقد كان مصرع الرئيس السادات على تلك الصورة الوحشية المدبرة من رؤوس باردة شديدة الذكاء، ولكنها عمياء بالتعصب الأسود، تحركها دوافع الوحش الكامن فى الانسان، الحادث المخيف الغادر البشع المسجل بالصوت والصورة. من قلب درعه الحصين يمتد خنجر متسلل غادر ويمزق محتوى الصدر، شيء كهذا أبدا لم تعهده مصر ولا رآه كل مَنْ فيها من أحياء. وبمثل ما نطق الرئيس الجليل بآخر كلماته: لا.. لا.. لا.. كان الشعب بكل ملايينه يجأر معه أيضا: لا.. لا.. ليست أبدا هذه هى الطريقة للاختلاف... لا يمكن أن يكون الارهاب وسيلة لفرض رأى أو تحقيق مطمع. الإرهاب وسيلة الجبناء وسلاح الخسيس فهو يطعن به الآمن. ولابد أن يستعمل غدرا».

❑

وهنا يتوقف يوسف إدريس ليطرح اسئلته المستنكرة لأن يصدر مثل هذا التصرف عمن صدر عنهم ويقول:

«ومتى كان الغدر سلاح الشرفاء؟ ومتى كان الغدر سلاح المسلمين؟ ومتى كان الغدر سلاح المصريين؟ ومتى كان الغدر سلاح الشباب؟».

....

❑

وينتبه الدكتور يوسف إدريس إلى معنى مهم وذكى وهو أن الشباب ليسوا هم المسئولين عن الاغتيال لأن هذا يتناقض مع طبيعتهم، وهو يعبر بتسامٍ شديد وبإجادة بالغة عن هذه الفكرة ويقول:

«إن الشباب شباب لأنه يواجه، ولأنه لا يطعن من الظهر ولا يغدر، إن الشباب

دائما وأبدا شريف فى كل أهدافه ووسائله، شريف حتى اذا استشهد فى سبيل، لا أقول أهدافه ولكن حتى وسائله، فخير للشاب أن يستشهد بشرف على أن يطعن بغدر إعلاء لكلمة الحق فأى حق هذا الذى وسيلته الخيانة والضعة».

«إن الحق أشرف بكثير من أن يؤخذ غيلة وجبنا، الحق يؤخذ دائما بالحق، وبالشرف وبالكرامة، وبكل عزة الشرفاء الكرماء المؤمنين».

....

ويلتفت يوسف إدريس فى حماسة وتدفق ليواجه قتلة السادات ومَنْ كانوا لا يزالون مصرين على المضى فى طريقهم، وهو يقول بكل صدق المتحمسين:

«ألق هذا الخنجر من يدك أيها الشاب الأعمى، ضع هذا المسدس جانبا، فهذه وسائل العاجز الجبان فى تحقيق أهدافه، وسائل القتلة واللصوص وقطاع الطرق، وأنت لست بقاتل أو لص أو قاطع طريق. أنت ـ إذا كنت إنسانا مؤمنا حقا ـ فلتدع الى سبيل ربك وحقك بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر والجهاد الطويل، وليس بقطع الطريق وقتل الأبرياء وطعن الظهور».

❑

ويعود يوسف إدريس ليعبر بكفاءة منقطعة النظير عن حقيقة موقف الشعب المصرى فى لحظات تلك المحنة العابرة ويقول:

«وقفت مصر وقفة رجل واحد تقول: لا، للإرهاب لا يمكن أن يسود قانون الإرهاب فهذا ليس إسلاما، إنها أساليب الجيش الأحمر الفاشى فى ايطاليا وألمانيا واليابان بلاد الشرك والالحاد وليست أسلوب المسلمين مهما كان تفرد هؤلاء المسلمين فى دعوتهم أو تنوع طرقهم للإيمان. هذه أساليب غريبة مجنونة مشبوهة، فلا، وبالقوة والضرب

على أيديكم لا وألف لا. هكذا قالت مصر بسكونها المحير، ثم بقومتها قومة رجل واحد تقول لحسنى مبارك: نعم، عشرة ملايين نعم، بنفسى، شاهدتها، لأول مرة أحسها إحساس الحقيقة وألمسها لمس اليد، تُقال فى مصر ويمثل ذلك الإجماع والاقتناع. إنه أول استفتاء شعبى حقيقى على ثورة ٢٣ يوليو و١٥ مايو يقول فيه الشعب، غير متأثر بدعاية أو بأى رأى مملى عليه، وإنما من صميم ذاته وكيانه وإرادته. يقول نعم».

إلى هذا الحد وصل الدكتور يوسف إدريس، وقد ترك مشاعره الصادقة تعبر عن نفسها، **ونحن نراه، على عكس ما نتوقع، حريصا دون أن يضطره أحد على أن يقرن ١٥ مايو بذكر ٢٣ يوليو وفى هذا وحده أكبر دليل على مدى ما يمكن للوطنية الحقة** أن تعبر عنه على أقلام مثل هذا الأديب صادق الشعور.

❑

على أن يوسف إدريس لا يقف فى مقاله عند هذا الحد وإنما هو يبدأ بجسارة شديدة فى مخاطبة حكومات دول الرفض التى حاولت أن تستغل حادث الاغتيال فى تقديم تصوير مختلف للشعب المصرى، وهو يجاهر بما يخاطب به هذه الأنظمة، ويقول ما لم يصل غيره إلى مستواه:

«ولتسمعها مدوية دول الرفض، ولتصدقها إن شاءت، أو لتصدق نفسها إن شاءت، ولكن عليها أن تتأمل، وتتأمل جيدا هذا الموقف من الشعب المصرى، فهو قرار الشعب يتخذه بأعظم مما يتخذ به أى زعيمٍ أو رئيسٌ القرار... هذه المرة.. الشعب هو القائد وهو الذى يقول، وبمطلق إرادته وحريته يقول. والشعوب لا تقوم أو تقول فى حياتها إلا مرات قليلة جدا. هذه المرات نسميها نحن ثورة. ولذلك أنا أعتبر ما حدث يوم ١٣ أكتوبر ثورة بكل أبعاد ومعانى الثورة، وما اختيار حسنى مبارك قائدا لهذه الثورة إلا

لأنها ثورة جادة هائلة فى حاجة لقائد مسيرة شاب شجاع قوى فى الحق غير هياب ولا وجل. ومَنْ لى بحسنى مبارك آخر له مثل هذه الصفات».

....

❑

ثم يؤكد يوسف إدريس على هذه الفكرة، منطلقا إلى حديث صادق إلى الشباب المسلم فيقول:

«بكل الرهبة والأمل، بكل ما مضى وما كان وما سوف يكون، قال الشعب بإصرار وإلحاح كلمته، وأصبحت كلمته هى العليا».

«أيها الشاب المسلم، اسمع هذا جيدا، أصبحت كلمة الشعب هى العليا وأنت إذا أمسكت السكين بعد هذا فعليك أن تذبح كل هذا الشعب، عشرات الملايين منه، لتفرض رأيك وحدك، وسوف، كما لابد تدرك، يمزقك هذا الشعب، لو حاولت، إلى ملايين القطع، لن يرحمك، فإرادة الشعب من إرادة الله، أما إرادتك أنت فمن إرادة أميرك، وأميرك بشر، تأمل الفارق بهدوء، واكتشف بنفسك الخدعة فهو يزعم أن إرادته هو، وليست إرادة الناس والمسلمين، هى الأصل، وتلك كذبة كبرى».

محمود فهمي النقراشي باشا في منام سياسي

كان محمود فهمي النقراشي رجلا عظيما.. عرف باستقامة الخلق ونزاهة اليد وسلامة القصد، وخلاصة قولي في وصفه أن صفات الشخصية كانت أعظم بكثير من صفاته السياسية، وعلى كل الأحوال فلست معنيا في هذا الفصل بالحديث عن تقييمي لدوره الوطني أو في السياسية المصرية ولكني مع هذا لا أستطيع أن أمضي من دون هذه الإشارة الكفيلة ببيان موقف مبدئي.

خرج النقراشي من الوفد (١٩٣٧) على إثر خلاف بينه وبين بعض زملائه من وزراء الوفد.. كان النقراشي في هذا الخلاف داعيا إلى ما يقارب النزاهة، وكان مخالفوه دعاة إلى ما يقارب إمضاء ما سيكون على حسب ما يريد له أن يكون.

وتولى النقراشي رئاسة الوزارة ورئاسة الهيئة السعدية، وشارك في وضع كثير من الأسس للعلاقات السياسية الخارجية لمصر، كما حقق كثيراً من الانجازات السياسية الداخلية مما يصعب تلخيصه هنا.

وأمسك النقراشي وهو رجل الأمن بزمام البلد فى الداخل من دون أن يفرط فى الإجراءات، إيمانا منه بقدرته على معالجة المضاعفات مهما أزمنت.

وقُتل النقراشي فى مصعد وزارة الداخلية وهو يومئذ رئيس الحكومة ووزير الداخلية القدير، قتله طالب من شباب الإخوان المسلمين تنكر فى زى ضابط، وتنكر لرجل كان له فضل عليه وعلى والده، وعلى أمثاله من الشباب الذين ظنوا أنهم ركبوا وسائل السياسة إلى غاياتهم، فركبتهم السياسة بشرورها إلى نهايات مبكرة للآمال وللحياة نفسها.

ومن غريب المفارقات ما يروى من أن رجال الأمن عرضوا على النقراشي قبل اغتياله بساعات كشفا ضم اسم مغتاله ضمن من كانوا يبغون القبض عليهم حفاظا على الأمن.. لكن النقراشي لم يشأ أن يوافق رجاله على طلبهم لا لشيء إلا لأن الله أراد له هذه النهاية.

ومات النقراشي ففجع فيه كثيرون..

وردد بعض الناس إنها إرادة الله : «مَنْ قتل يقتل ولو بعد حين»، وقد قتل «الزعيمان القاتلان» بيد العدالة الإلهية!!

كان هؤلاء يرون أن ماهر والنقراشي كانا بلاشك وراء مقتل السردار، وهو الاتهام الذى برأتهما منه المحكمة بعد أن كانا على شفا حبل المشنقة.. وكان البعض الآخر من هؤلاء يرددون الاتهام الأقل أدلة وذيوعا ورواجا وحظا من التصديق، وهو اتهام النقراشي وماهر بأنهما كانا وراء حملة الاغتيالات السياسية التى شنتها بعض تنظيمات سرية عقب تشكيل حزب الأحرار الدستوريين فأودت بحياة اثنين من كبار أعضائه هما عبدالرازق وزهدى.

❑

وعلى عادة ردود الأفعال السياسية والفكرية التى تخضع للظروف المواكبة للحظة الرحيل فقد كان الموقف من النقراشي إيجابيا، وقد حظى النقراشي بقدر كبير من التكريم والتقديرعقب وفاته وقد ساعد على هذا أن حزبه «الهيئة السعدية» كان لايزال فى السلطة ولم يكن هناك مانع من أن يطلق اسمه على شوارع وميادين ومدارس

كثيرة فى أنحاء القطر كله، كما ساعد على هذا أن اغتياله المفاجئ والقاسى فجّر مشاعر التعاطف معه، ومع سياسته كما ساعد على هذا أنه كان ثانى رئيس للهيئة السعدية ورئيس للوزراء يغتال، وذلك قبل أن تمضى ثلاث سنوات على اغتيال سلفه وصديقه أحمد ماهر باشا

وبالاضافة إلى هذا التخليد فإن كثيراً من الكتابات المنصفة للنقراشى وجدت طريقها إلى النور، ولا يزال صدى هذه الكتابات موجوداً فيما صورت به هذه الفترة من تاريخنا المعاصر.

وقد وجدت فى إحدى مكتباتنا العامة القديمة كتاباً ألفه مَنْ يدعى حسن متولى غنيمة فى أعقاب مقتل النقراشى ونشرته «دار الفكر الحديث للطبع والنشر» - والكتاب من الكتب التذكارية التى تتناول حياة بعض الأشخاص البارزين مركزة على نواح مضيئة أو تاريخية أو رسمية فى حياتهم دون أن تعرض مجموع هذه الحياة.

يقع الكتاب فى ١١٠ صحفات من الحجم الصغير، وقد أتم مؤلفه كتابته فى ١٠ يونيو ١٩٤٩، أى بعد مقتل النقراشى بحوالى ١٦٠ يوما (وهو أمر لابد لنا من الإشارة إليه).

أما المؤلف فقد عبر عن نفسه بأنه وكيل ومراسل صحف، وأن مقره شارع إسماعيل باشا بالسويس. لاشك إذاً فى أنه كان من هؤلاء الذين مارسوا هذه المهنة حبا فيها وسبيلا إلى الثقافة أو الصحافة أو السياسة شغفوا بها.

❑

ونأتى إلى الكتاب:

ينفق المؤلف اثنتى عشر صفحة فى بداية كتابه فى التعبير عن رؤيا رآها فى نومه (هكذا يقول)، ولم يكن له من قصد فى اختراع هذه الرؤيا إلا أن يسند دور رواية أمجاد النقراشى إلى ملك من الملائكة الذين يقرأون صحائف الأعمال فى حضرة ملك الأرض والسموات جل جلاله.

هكذا بلغ الهوس السياسى (أو التعصب) مبلغه من العقول حتى طغى على اعتقادهم فى عدل الله الذى بيده الجنة والنار، فلم يجعلهم يتركون هذه المسألة لربهم ويتفرغوا لما يليق بهم من الدعاء لمحبيهم، أو الاستغفار لهم.

ولنا أن نتأمل كيف بلغ الهوس السياسى مبلغه حتى جعل مثل هذا المؤلف يقدس بعض أمجاد البشر التى هى - فى الأول وفى الآخر- لاتريد عن أن تكون أمجادا فى عيونهم هم ونظرهم هم، وإذا به يحول هذه الأمجاد البشرية إلى أمجاد بمقاييس السماء ومعاييرها، وحسبك فى هذا أن يبدأ المونولوج الذى يقرؤه الملك الكريم بقوله:

«بسم الله نبدأ تلاوة صحيفة أعمال ابن من أبناء مصر البررة الذى كان من أوائل المنادين بحريتها فى نهضتها، والوطنى الذى شغف بحب وطنه فعاش حياته يجاهد لاستقلاله ورفعته».

لكن الأعجب من هذا والأكثر مدعاة للدهشة أننا نرى كيف قص المؤلف رؤياه فى حديث مستطرد طويل، وسنقتطف بعض فقراته فى هذا القص حيث يقول:

«أتيحت لى فرصة للخروج إلى الصحراء، فسلكت الطريق إلى غايتى حتى اطلعت على الصحراء بفضائها الواسع ورملها القبرى وشمسها الضاحكة وصمتها المرهوب».

....

....

«فهممت بالعودة، ولكننى شاهدت شخصا هرما طويل اللحية أشيب الشعر جالسا فى هدوء».

[فقرة فى وصف الشيخ وخلو نفسه وهدوء باله].

[فقرة أخرى فى تأكيد هذا المعنى].

[فقرة ثالثة فى وصف الشيخ وهو يحدث نفسه: «ليت شعرى لماذا قضى علىّ أن أبقى على الأرض إلى الآن وأحفادى سبقونى إلى جواره»].

[فقرة تصور ما دار بينه وبين الشيخ من حوار].

....

«فجعلتُ أسأله عما دار بخلده، مستفهما عما جال فى نفسه من خواطر فقال: لقد عشتُ طوال حياتى علنى أجد فى الحياة هدوءا أو راحة، فلم أجد، فجئت هنا أقضى البقية الباقية من عمرى متعبدا فى هدوء وراحة، ولكنى الليلة لمحت فى صفحة السماء شيئا غريبا عله يعود ثانية.. فأشاهده ثم أفارق بعده الحياة».

[ثم نطالع فقرة يلح فيها المؤلف على الشيخ أن يقول له ما هذا الذى رآه، والشيخ لا يجيبه وإنما يبكى، «ثم أحس بالشىء قد عاد، فرفع رأسه وشخص ببصره فى السماء كأنه يتصفح كواكبها»].

....

«وفى هذه المرة انكشف أمامى ما انكشف لهذا الشيخ فسبح خيالى فى الفضاء، ونسيت نفسى، وشعرت بأن الأفق قد اختفى، وأن الأرض قد انصهرت تحت قدمى، وأن السماء قد انقشعت، وأصبحت أنا والشيخ على بساط طائر فى جوف فضاء شاسع لا محيط له، ولا أفق، ولا سماء، ولا أرض كأنه كرة جوفاء...».

«وفجأة أحسست بأن البساط يهبط بنا رويدا رويدا، ولكن أين يستقر؟ وليس هناك ما يهبط عليه، ثم وقف بنا فى وسط هذا الفضاء وامتد منها طريق مستقيم لا نهاية له، فاهتزت أوصالى ولكنى دهشت حين شاهدت حيزا من الملائكة منزلين من حيث لا أعلم بعدد نجوم السماء وقد اصطفوا على جانبى هذا الطريق المعلق فى الفضاء».

❑

أرجو أن يلاحظ القارئ تصور صاحب المنام للملائكة وكأنهم على هيئة حرس الشرف، وهو تصوير غير بديع بلاشك، ونعود إلى نص صاحب المنام:

«ثم ظهر فى نهايته قصر منيف تعجز يد الإنسان عن بنائه، ويقف حد التفكير فى إبداعه، بنى هذا القصر فى لمح البصر من نور وهاج أضاء الفضاء ثم خرج منه ملاك لابس رداء مزركشا وقد تدلى خلفه على الأرض كذيل الطاووس، وفى يده صولجان

ضرب به الأرض فظهرت حول هذا القصر جنة قطوفها دانية، فيها نعيم يشهده المقربون المنعمون.. أبرار طاهرون على الآرائك تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يمر عليهم ولدان مخلدو ن...».

«ولمحت برجين عاليين فوق هذا القصر وقف على كل منهما ملاك ماسكا بيده بوقا طويلا من الذهب الخالص.. ثم أرسل الملاك علامة لهذين الملكين فنفخ كل منهما فى بوقه نفخة زلزلت البساط تحت قدمى ثم لمحت البساط ينفصل عن الطريق الذى امتد منه وأخذ يسبح فى ذلك الفضاء.. ثم أحسست بهزة عنيفة فى محيطه ظهرت بعدها فجوة واسعة بدت منها الأرض بما حوت فعلمت أنى فى العالم الآخر.. وأخذت أراقب هذه الفجوة فإذا بى أرى قبرا فى وسط القاهرة قد افتتح عاليه وظهرت منه جثة أخذت فى الارتفاع حتى خرجت من القبر ممدودة على رخامة ناصعة البياض.. ثم نزل القبر وأخذت الجثة ترتفع رويدا رويدا إلى أن وصلت الفجوة فنفذت منها إلى الفضاء الشاسع اللانهائى واستمرت فى ارتفاعها إلى أن وصلت أول الطريق فوقفت والتحمت الرخامة بنهايته».

«نفخ الملكان فى بوقيهما فشاهدت طائرا يرفرف بجناحين ناصعى البياض فى هذا الفضاء - ولا أعلم من أين أتى - وأخذ يهبط من علياء الفضاء إلى أن وصل إلى الجثة الهامدة فحام حولها ثم اختفى فعلمت أنه روح هذه الجثة.. ثم شاهدت هذه الجثة تنتفض وتهم من مرقدها جالسة.. ثم أخذ البساط يرتفع ويحوم حول الطريق، ثم وقفت فى الفضاء بالقرب منه فشاهدت ملاك الرحمة الواقف أمام القصر يتقدم فى الطريق، والجند على جانبيه حتى وصل إلى الجثة التى دبت فيها الحياة، ومد يده إليها وأمسك بيدها، ثم طلب منها الوقوف فوقفت، وهنا ضغط بيده على أصابع يدها وهزها هزة شديدة فانكست فى لمح البصر بثوب فاخر لا يعرف نسيجه.. ثم توج رأسها بتاج مكسو بالأحجار الكريمة المتلألئة يشع منها النور كضوء القمر.. فأمعنت النظر فى هذا المخلوق فوجدته ابن مصر البار دولة محمود فهمى النقراشى فطار لبى فرحا وانشراحا لهذه المفاجأة الغريبة»..

ويستطرد مؤلف المنام فيقول:

«ووالله ما هى بغريبة منذ ودع دولته الدنيا إلى حوارييه، ولكن الغريب أن أراها بعينى، وهنا انحنى الملاك أمام النقراشى ودعاه للسير أمامه إلى نهاية هذا الطريق».

«ومشى النقراشى فى موكب حتى إذا وصل أمام باب القصر نفخ الملكان فى بوقيهما فخرج من القصر ملكان يحملان كرسيا.. ووضعاه أمام القصر، ثم طلب الملاك من النقراشى الجلوس فجلس وهو حائر من عظمة كل ما حوله قائلا: ياعجبا أهذا كله لأجلى! فرد عليه الملاك: نعم.. ثم خرج بعد ذلك من القصر صفان من حور عين واصطفا على جانبيه وأخذت كل واحدة منهن تقدم له ما يشتهى من الفواكه وتسقيه من رحيق مختوم، بينما ملاك الرحمة قد أخرج من طيات ملابسه صحيفة سلمها للنقراشى فتسلمها بيده اليمنى ثم أعادها له ليقرأها فأمسك الملاك بأحد طرفيها بين يديه ليتلوها عليه أمام هذا الحشد من الملائكة، وقد هرع أصحاب الجنة التى حول القصر إلى الاستماع فعلمت أنها صحيفة أعماله».

❑

لا نتجاوز إذا قلنا إن العقلية التى كتب بها هذا النص، هى عقلية الهوس السياسى، وهو هوس يستند إلى الخلفية المتوقعة لمثل هذا الهوس، وهى خلفية رسمية جدا حتى إن صحيفة الأعمال يسلمها صاحبها للملاك بعدما تسلمها منه (والأمر فى هذا مصور على نحو ما يحدث فى خطاب العرش تماما بتمام)، ولم يفت المؤلف أن يجعل الملاك يضع على رأس النقراشى تاجا مُحلى (كالطربوش لأنه لا يكون الإنسان العظيم الذى عظمته كعظمة النقراشى من دون غطاء للرأس).

والفجوة التى فى الفضاء تظهر منها الأرض بحيث يتبين الرائى قبرا فى وسط القاهرة (وهذا نوع مبكر من إبداع وهمى يسبح فى الخيال العلمى الكاذب).. إلخ.

❑

لعلى أعود الآن لأذكر القارئ بما أشرت إليه من أن هذا الكتاب قد كُتب بعد وفاة النقراشى بأكثر من ١٦٠ يوما، وقد كانت هذه الفترة كفيلة بذهاب فورة العاطفة

والنظر إلى الأمور بعين العقل، لو كانت الحالة التعبيرية صادقة، ولكن بقاء مثل هذه الفورة ليس إلا دليلاً واضحاً على أن الحالة التعبيرية لم تكن إلا نوعا من الخبل أو الهوس السياسى يتراجع معها إدراك حقائق وطبائع الأمور.

فإذا قرأت الكتاب أو صحيفة النقراشى كما أرادها المؤلف وجدتها خلوا من أعماله التى ظنها المؤلف لا تليق بمثله ككفاحه الوطنى المبكر، أو اشتراكه فى ثورة ١٩١٩ أو مساهماته الجليلة فى التنظيمات السرية، أو كخلافه مع الوفد (١٩٣٧)، وترشيحه فى الانتخابات، ونشاطه السياسى فى الوزارة التى تولى أمرها ... إلخ. بينما يركز الكتاب على أمور هامشية تماما تليق بسكرتير النقراشى لا بالنقراشى نفسه، وهذا وجه الخطورة فى تقييم أمثال النقراشى بمثل هذا الأسلوب، ومن العجيب الذى لابد من الإشارة إليه أن صدى مثل هذه الكتابات الوهمية لايزال يسيطر على صورة بعض أقطاب حياتنا السياسية فى الوجدان الشعبى.

❑

وبعد هذا كله فاننا نجد الكتاب يصل إلى النهاية المتوقعة حيث يقول مؤلفه:

«... وهنا طوى الملاك صحيفة أعمال هذا البطل العظيم وأعلنه بدخول الجنة فاصطف الجند من الملائكة تحية له.. أما أنا فقد هبط بى البساط من فجوة انفتحت فى محيط هذا الفضاء إلى الحياة الدنيا وقد سمعت دولة النقراشى يقول مودعا إلى الجنة «وداعا يامصر، وداعا يامصر، وداعا يامصر فى حمى الفاروق».

هكذا فإن المليك المفدى لم يفته حظه فى مثل هذا الكتاب الخيالى.. وكيف كان من الممكن أن يفوته مثل هذا الحظ.

❑

لعلى أذكر هنا ما انتبه إليه الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه عن الإمام الشافعى فى حديثه عن الكتب التى تناولت مناقب الأئمة حيث قال فى عبارة جميلة: «وقلما تجد كتابا فى مناقب الأئمة إلا وفيه باب لما رأى الإمام المترجم له فى المنام وما رئى له».

غاندى بين الشاعرين أحمد شوقى وسعيد عبده

أبدأ بان أذكر أنى أدين ببعض ما فى هذا الفصل للمغفور له الأستاذ على حمدى الجمال رئيس مجلس ادارة الاهرام ورئيس تحررها ونقيب الصحفيين، مع أنه لم يشتهر بالكتابة فى الموضوعات الأدبية. ولكنه كان من جيل من الصحفين الذين أدركوا كل جوانب الحياة وشاركوا فى متابعة أنشطتها المختلفة والمتباينة، وقد أشار إلى موضوع هذا الفصل ضمن مقال له فى مجلة الرسالة الجديدة فى عام ١٩٥٤.

وكان غاندى ومن بعده نهرو يعتبران الحركة الوطنية فى مصر بزعامة الوفد المصرى رائدة لهما فى حركة تحرير الهند من الاحتلال البريطانى وكانت بينهما وبين زعماء الوفد لقاءات ومراسلات عديدة، وتحفل المذكرات المنسوبة إلى النحاس باشا بكثير من الإشارات إلى مراسلات بين الزعيمين النحاس ونهرو فى كثير من القضايا الساخنة.

ولأننا نؤمن بدور الشعر فى تخليد التاريخ فلابد لنا أن نتأمل فى تحية أمير الشعراء أحمد شوقى لغاندى عندما مر الزعيم الهندى بمصر فى طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٣١ أى قبيل وفاة شوقى:

وهذا هو نص قصيدة شوقى على نحو ماوردت فى الشوقيات التى أصدرتها الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان بتحقيق الدكتور على عبدالمنعم عبد الحميد والقصيدة من بحر الهزج «مفاعيلن مفاعيلن» وقد نبهنى الدكتور عبداللطيف عبدالحليم «أبو همام» إلى أن فى بعض أبياتها ظاهرة «الكف» وهى حذف آخر حرف من التفعيلة الثانية لتكون «مفاعيل»:

بَنى مِصْرَ، ارْفَعُوا الغارَ	وحَيُّوا بَطَلَ الهِنْدِ (١)
وأدُّوا واجِباً، واقْضُوا	حُقُوقَ العَلَمِ الفَرْدِ
أخُوكُمْ فى الْمُقاساةِ	وعَرْكِ الْمَوْقِفِ النَّكْدِ (٢)
وفى التَّضْحِيَةِ الكُبْري	وفى المُطَّلَبِ، والجُهْدِ
وفى الْجُرْحِ، وفى الدَّمْعِ	وفى النَّفْيِ مِنَ الْمَهْدِ
وفى الرِّحْلَةِ لِلْحَقِّ	وفى مَرْحَلَةِ الوَفْدِ
قِفُوا حَيُّوهُ مِنْ قُرْبٍ	عَلَى الفُلْكِ، ومِنْ بُعْدِ
وغَطُّوا البَرَّ بِالآس	وغَطُّوا البَحْرَ بِالوَرْدِ (٣)

** **

عَلى إفْريز (راجْبُوتا	نَ) تِمْثالٌ مِنَ الْمَجْدِ (٤)
نَبِيٌّ مِثْلُ (كونفُشْيُو	س)، أوْ مِنْ ذلِكَ العَهْدِ (٥)

---

(١) الغار: شجر ينبت فى جبال السواحل ، دائم الخضرة، يصلح للتزيين، وكان الرومان يتخذون منه إكليلا يتوجون به القائد المظفر.

(٢) الموقف النَّكْد: العسر.

(٣) الآس: شجر ورقه عطر، يعرف عند العامة بالريحان.

(٤) راجبوتان: اسم الباخرة التى أقلت غاندى من الهند إلى لندن.

(٥) كونفشيوس: نحو (٥٥١ – ٤٧٩ ق. م) فيلسوف صينى، أسس مذهبا فلسفيا أدبيا، لا يقر بالله، إنما يدعو إلى حياة عائلية واجتماعية مثلى.

قَـــريبُ القَـــولِ والفـــعْلِ	مِنَ الْمُنْتَظرِ الْمَـــهْـــدي
شَـــبـــيـــهُ الرُّسْلِ فِى الذَّوْد	عَـــنِ الحَـــقِّ، وفـــى الـــزُّهْـــدِ
لَـقَـــــــــدْ عَـلِّمَ بِـالحَـقِّ	وبِالصَّـــبْـــرِ، وبِالقَـــصْـــدِ

* *   * *

ونادى الْمَـــشْـــرِقَ الأقْـــصى	فَلَبَّـــــاهُ مِنَ اللَّحْـــــدِ
وجـــاءَ الأنْفُسَ الْمَـــرْضَى	فَـــداواهَا مِنَ الحِـــقْـــدِ
دَعـــــا الـهِنْدوسَ والإسْـــلا	مَ لِـلألْـفَـــــــــــةِ والـوُدِّ
بِسِـــحْـــرٍ مِنْ قُـــوَي الرّوح	حَـوَى السّيْـفَـيْنِ فى غِـمْـدِ (٦)
وسُـلْـطـانٍ مِـنَ الـنَّـفْـس	يُقَـــوّى رائِضَ الأسْـــدِ
وتَـوفِـــــــيـقِ مِـنَ الله	وتَيْـــسِـــيـــرِ مِنَ السَّـعْـــدِ
وحَـــظٍّ لَـــيْـــسَ يُـعْـــطـــاهُ	سِـــوَى الْمَـــخْلوقِ لِلْخُلْد
ولا يُؤخَـــــــذُ بِـالْحَـــــولِ	ولا الصَّـــــولِ، ولا الْجُنْد (٧)
ولا بِـالْـنَسْلِ والْـمَـــــالِ	ولا بِـــالْـــكَـــدْحِ والْـكَـــدِّ
ولَكِنْ هِـبَـــــةُ الْمَـــوْلى	ـ تَعـــالى الله ـ لِلْعَـــبْـــدِ

* *   * *

سَـــــلامُ الـنّيلِ يـا غَنْدِى	وهَـــذا الـــزَّهْـــرُ مِـــنْ عِـــنْدى
وإجْـــــــلالٌ مِـنَ الأهْـرا	مِ، والـكَرْنَـكِ، والـبَـــــرْدِى
ومِنْ مَـــشْـــيَـــخَـــةِ الوادِى	ومِنْ أشْـــبَـــالِهِ الْمُـــرْدِ (٨)

---

(٦) يقصد بالسيفين: المسلمين والهندوس.

(٧) الحول: الحذق وجودة النظر. والصول: السطوة والقوة.

(٨) الشاة: الواحدة من الغنم أو المعز (للذكر والأنثى). والبرد: كساء مخطط يلتحف به. وقد كان لغاندى، كما نعرف، عنز يحلبها ويشرب لبنها، ومغزل يغزل عليه لباسه.

سَلامٌ حالِبَ الشَّاةِ   سَلامٌ غازِلَ البُرْدِ [٩]
ومَنْ صَدَّ عَنِ المِلْحِ   ولَمْ يُقبِلْ عَلى الشُّهْدِ
ومَنْ يَركَبُ ساقَيْهِ   مِنَ الهِنْدِ إلى السِّنْدِ [١٠]
سَلامٌ كُلَّما صَلَّيْـ   ـتَ عُرْياناً، وفى اللِّبْدِ [١١]
وفى زاوِيَةِ السِّجْنِ   وفى سِلْسِلَةِ القَيْدِ
مِنَ (المائِدَةِ الخضرا   ء) خُذْ حِذْرَك يا غَنْدي [١٢]
ولاحِظْ وَرَقَ «السير»   وما فى وَرَقِ «اللورْد»
وكُنْ أبرَعَ مَنْ يَلعَـ   ـبُ بالشِّطْرَنْجِ والنَّرْدِ
ولاقِ العَبْقَرِيِّينَ   لِقاءَ النِّدِّ لِلنِّدِّ
وقُلْ: هاتُوا أفاعِيَكُمْ   أتى الحاوى مِنَ الهِنْدِ !
وعُدْ لَمْ تَحْفِلِ الذّامَ   ولَمْ تَغْتَرَّ بالحَمْدِ
فَهَذا النَّجْمُ لا تَرْقَى   إلَيْهِ هِمَّةُ النَّقْدِ
ورُدَّ الهِنْدَ لِلأُمَّـ   ـةِ مِنْ حَدٍّ إلى حَدِّ

** **

روى الأستاذ على حمدى الجمال أن الأستاذ محمد توفيق دياب الصحفى الكبير ورئيس تحرير الجهاد لما قرأ هذه القصيدة وضعها فى باقة من الزهر وأرسلها باسم جريدة الجهاد ـ التى كان يصدرها فى ذلك الوقت ـ وسلمت للضيف الكبير على المركب «راجبوتان» التى كانت تقله إلى انجلترا عندما رست فى قنال السويس.

---

(٩) الشهد: (بضم الشين وفتحها) عسل النحل ما دام لم يعصر منه شمعه.

(١٠) السند: اسم مكان يطلق على الجزء الشمالى الغربى من الهند، وأكثره الآن يقع فى باكستان الغربية.

(١١) اللبد: كل شعر أو صوف متلبد.

(١٢) يشير سعيد عبده إلى مؤتمر المائدة المستديرة وقد عبر عنها بالمائدة الخضراء ليعطى الايحاء بمائدة القمار التى تسمى بهذا الاسم.

وقد اختار الأستاذ الجمال بعض أبيات من هذه القصيدة للنشر فى مقاله الذى جعل عنوانه: «قصيدة شوقى التى قدمت إلى غاندى فى باقة من الزهر».

وكان من بينهما البيت القائل:

ولاحـظ ورق السـيــر   ومـافى ورق اللـــورد

ولكن المطبعة بدلت كلمة ورق ووضعت بدلاً منها كلمة دوق، ولعل الناسخ رأى الكلمة أنسب للاتساق مع لقبى السير واللورد فزاد هذا اللقب الثالث.

على أن أطرف ما صادفه هذا البيت من أخطاء أنه فى طبعة لونجمان التى أنقل عنها صمم الناسخ على أن يضع فوق ياء السير شدة مفتوحة، وكأنه ظن أن المقصود هو كلمة السيَّر جمع سيرة، وهكذا نشر البيت فى مقال الأستاذ الجمال محرفاً بوضع «دوق» مكان «ورق» ونشر فى طبعة لونجمان محرفا بوضع «السيَّر» موضع «السير» ولولا وزن الشعر لصعب إدراك مثل هذين الخطأين.

وكانت فى شوقى قدرة رائعة على وضع الكلمات الأجنبية فى سياق أبياته الشعرية دون أى إخلال بالوزن أو القافية أو بالموسيقى الداخلية للنص الشعرى.

❑

كذلك فإن طبعة لونجمان آثرت أن تجعل قول شوقى:

ومَــنْ يـركــب سـاقـيـه

بصيغة:

ومَــنْ تـركــب سـاقـيـه

وقد نبهنى إلى هذا الخطأ أستاذى الأستاذ عصام الهنامى.

❑

ونأتى إلى قصيدة سعيد عبده وقد أنشدها فى مناسبة سفر وفد مصرى إلى الهند، وأقام الدعابة فيها على فكرة كانت شائعة عن رئيس مجلس الشيوخ المصرى محمود

بسيونى بك (الذى ينسب إليه شارع الأنتكخانة في وسط مدينة القاهرة) حيث اشتهر بأنه كان يحيى الرجال باحتضانهم، سواء عرفهم أو لم يعرفهم، وكان بسيونى قد اختير رئيسا للوفد المسافر إلى الهند وهكذا يخاطبه الدكتور سعيد عبدة فيقول:

يارايح الهند سلم لى على غـــــاندى

وادعـــيـــه لأكلة مـــشلتت باللبن عندى

القـــائد اللى مـــا نال حـــتى نصـــيب جندى

ومتحضنوش والنبى سامحه عشان خاطرى

غاندى يا بسيونى بيه مش أد الاحضان دى

ادعيه يزور مصر هوه ومغزله وشاته

وعند هذا الحد ينتقل سعيد عبده إلى التعريض بالزعماء المصريين الذين أصبحوا فى حاجة إلى أن يتعلموا من غاندى التجرد والزهد، وهو يقرصهم بألفاظ حداد فيقول متحدثاً عن غاندى:

عـــريان كـــمـــا هوه من دنيـــاه ولذاته

والدنيـــا، لو حب، تســجـــد تحت ابيـــاته

يطعينا فى التضحية كام درس لخسرنا

واللى زمان كانوا فينا بيستحوا ماتو

أصـــبـــحنا غـــريان وملمـــومين على رمـــه

اصـــبـــحنا لا عـــفـــة ولا ايمان ولا ذمـــة

اصبحنا، زى الغجر ، ياشوم ما أصبحنا

ايد بتسرق العيش والثانية بتقلوظ العمة

عبد الرحمن الرافعى ينتقد جهود النحاس فى إنشاء الجامعة العربية

كان الأستاذ عبد الرحمن الرافعى من رموز الحزب الوطنى القديم، وقد تميز عن كافة زملائه من القانونيين بعنايته بكتابة التاريخ المصرى، وقد بذل فى هذا المجال جهدا صادقاً ومتصلاً ولم يتوان فيما كتب من تاريخ وتحليل تاريخى عن إظهار حقيقة رأيه ومعتقداته دون لف أو دوران، كما أنه لم يلجأ إلى التدليس والتحوير إنما عبر بوضوح حتى عن معتقداته المخالفة للأغلبية، وعلى سبيل المثال فإنه كان ضد الوفد وزعامته للأغلبية ولكنه لم يخف هذا ولم يكف عن انتقاد سياسات الوفد كلما أتيح له ذلك بيد أنه لم ينسب إلى الوفد تصرفات أخرى بخبث أو التواء، ولم يقصر فى الثناء على الوفد فيما يرى أنه كان مستحقاً للثناء عليه، وبالإضافة إلى هذا تميزت آثاره

المكتوبة بالجد والاجتهاد فى تحصيل المعلومات وتحقيقتها وتوثيقها وبالاعتراف بمناطق القصور عن الإدراك، ولهذا بقيت آثاره وأفكاره حتى اليوم تلقى الاحترام، وينقل عنها حتى اولئك الذين يختلفون مع صاحبها فى توجهاته.

وليس من الغريب أن نقرأ لعبدالرحمن لرافعى عبارات مشحونة باليأس من الأمل فى الاتفاق العربى ومن السياسات العربية، وقد كتب الرافعى هذه الأفكار مبكرا قبل قيام الثورة وقبل تنامى النزعة القومية، وهنا ينبغى أن نشير إلى نقطة جوهرية وطريفة وربما يتعجب لها بعضنا وهى أن الرافعى كان يعنى بالحركة القومية [فى أسماء كتبه ومؤلفاته ونصوصه] ما يجرى فى مصر ولم يكن يشغل نفسه بالمعنى القومى بمعناه العربى وإنما كان يقصد به الانتماء المصرى فحسب، أى أنه يعنى بالقومى ما نتعارف عليه الآن بأنه وطنى فحسب أو مصرى بتعبير أكثر دقة. بل إننا نراه فى كتابه «فى أعقاب الثورة المصرية» يوجه انتقاداته إلى النحاس باشا بكل وضوح وصراحة عند حديثه عن إنشاء جامعة الدول العربية ويقول ما نصه:

«عُنى النحاس فى أواخر عهد وزارته [يقصد الوزارة السادسة التى استمرت فى الحكم حتى أكتوبر ١٩٤٤] بالمساهمة فى إنشاء جامعة للدول العربية تضم شملها وتوحد بينها، وكان إنشاء هذه الجامعة بإيعاز من بريطانيا».

هكذا يستخدم الرافعى هذا الفعل «إيعاز» بدلا من أن يستخدم «اقتراح» أو «مشورة» أو «توجيه».. **وهنا تبدو مهارة المؤرخ «القانونى» الذى يمتلك ناصية اللغة بحيث يختار اللفظ الذى يعطى ما يريده من إيحاء تاريخى على مرحلتين: مرحلة القراءة السريعة للقارئ العادى، ومرحلة القراءة المتأنية والاقتباس الذى يمارسه المؤرخون والباحثون**، وفى الحالين فإن هذا

اللفظ «وحده» يكفل للرافعى ما لا تكفله مجلدات أنفق مؤلفوها من سكرتيرى السلطة مئات الألوف من موازنات المخابرات الأجنبية من أجل تمرير مثل هذه الفكرة من خلال مقالات مستطردة طويلة ثم كتب منتفخة الصحفات.

❑

ويبدأ الرافعى فى تصوير سياسة النحاس فى هذا المجال على أنها هروب من تعاون مرجو من هذا «الزعيم» أى من النحاس مع الأحزاب المصرية الأخرى، وهو يقول فى هذا المعنى:

«..... وكان الأجدر بالنحاس أن يعمل على توحيد جبهة مصر الداخلية لتكون يداً واحدة أمام الأحداث التى واجهتها خلال الحرب العالمية وبعد انتهائها، ولكنه ترك الوحدة الداخلية جانباً ورفض أن يمد يده إلى المعارضة، بل إلى المستقلين، وسار على سياسة حزبية ممقوتة مما جعل الانقسام والمرارة يتزايدان فى البلاد، واهتم بالتوحيد بين الحكومات العربية، وقد تبين مع الزمن أن لا إخلاص ولا تضامن بين هذه الحكومات، وأن معظمها تسيره السياسة الاستعمارية البريطانية أو الأمريكية، أو الأهواء الشخصية، وأن جامعة الدول العربية لم تفد مصر بل جلبت عليها خسائر كبيرة».

....

هكذا تتدفق الأفكار التى يكتبها عبد الرحمن الرافعى على **نحو يعجز عنه كل المعادين للعروبة**، ومن المذهل أن الرافعى نفسه لم يكن مصرى الأصول، ولكن الإحساس بالوطنية المصرية فى ذلك الوقت كان أقوى من أى شىء.

❑

ويعود عبد الرحمن الرافعى ليكرر الفكرة التى تتردد كثيرا فى أوقات اليأس من أن

تقوية مصر وحدها كفيلة بخدمة القضايا العربية بأفضل من وجود الجامعة العربية، وهو يقول:

«ولو أن النحاس عمل على توحيد الصفوف فى مصر لاستطاع بغير شك أن يخدم البلاد أعظم خدمة، ولخدمت مصر القضايا العربية فى سائر الأقطار بأكثر مما أفادتها جامعة الدول العربية.

....

ويقدم الرافعى تلخيصاً للاجرءات التى اتبعت فى انشاء الجامعة العربية ووضع مثياقها ويقول:

«اجتمعت وفود مصر وسوريا ولبنان والعراق وشرق الأردن فى الإسكندرية فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ بهيئة لجنة تحضيرية، ووالت اجتماعاتها لعقد ميثاق الجامعة، وانتهت إلى وضع ما سمى «بروتوكول الإسكندرية» وتم التوقيع عليه يوم السبت ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ بإدارة جامعة فاروق الأول.. يتضمن هذا الميثاق تأليف جامعة للدول العربية من الدول العربية المستقلة التى تقبل الانضمام إليها، ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى «مجلس جامعة الدول العربية» تمثل فيه الدول المشتركة فى الجامعة على قدم المساواة، ومن أهم بنود هذا الميثاق أن فلسطين ركن مهم من أركان البلاد العربية، وأن حقوق العرب لا يمكن المساس بها، وأعلنت اللجنة تأييدها لقضية عرب فلسطين بالعمل على تحقيق أمانيهم المشروعة وصون حقوقهم العادلة».

ويستطرد الرافعى إلى الحديث عن أزمة فلسطين بعبارات لم تفقد صلاحيتها:

«ولعلك تذكر ما أصاب فلسطين وعرب فلسطين من الكوارث دون أن تعمل الدول

العربية مجتمعة أو منفردة عملاً جدياً لتحقيق أمانى أهلها و«صون حقوقهم العادلة»، وهكذا تبين أن جامعة الدول العربية كانت حتى اليوم (١٩٥١) هيئة شكلية أقرب إلى المظاهر البراقة منها إلى العمل الجدى المثمر».

على هذا النحو كان الرافعي سابقاً لعصره بأكثر من خمسة عقود.

❑

وفى موضع آخر من كتاب الرافعى المؤرخ [بعد مائة وعشرين صفحة] نرى انتقاد عبد الرحمن الرافعى لسياسة الدول العربية تجاه فلسطين صارخاً عالى الصوت، وهو يفرق بجرأة وشجاعة بين أداء الجيش المصرى والجيوش العربية الأخرى، فيجعل البطولة من نصيب الجيش المصرى وحده ويقول:

«وقد اتفقت الدول العربية على أن تدخل فلسطين بجيوشها بمجرد خروج القوات الإنجليزية منها، لكى يعيدوها إلى أهلها العرب ويخرجوا منها قوات اليهود».

«على أن سياسة الدول العربية فى هذه المسألة الخطيرة كانت خرقاء متخاذلة، سايرت إلى حد كبير مقاصد السياسة البريطانية».

«فقد كان واجباً عليها لو كانت جادة فى إنقاذ فلسطين، أن تمد المجاهدين فيها بالعتاد والسلاح والمال والمتطوعين قبل انتهاء الانتداب البريطانى، وعلى الأخص منذ صدر قرار التقسيم من هيئة الأمم المتحدة، وكان يكفى هذا المدد والعون لكى يحول دون تمكين اليهود من وضع أيديهم على البلاد، فإن المجاهدين العرب قد قاوموا الانتداب البريطانى واليهود معاً سنين عديدة من قبل، فلو أنهم لقوا من الدول العربية العضد والعون دون إعلانها الحرب، لكان ذلك كافيا لمنع اليهود من إنشاء دولتهم،

ولكن الدول العربية مسايرة منها للسياسة البريطانية وإبقاءً على صلاتها الودية بها، لم تحرك ساكناً حتى انتهى الانتداب البريطانى، وتركت الوقت يضيع سدى فى اجتماعات عقيمة وتصريحات جوفاء لم تقترن بأى عمل جدى، ولم تتحرك جيوشها إلا بعد خروج الإنجليز من فلسطين وتسليمهم إياها إلى اليهود».

«ثم إن هذه الجيوش ـ مع الأسف ـ كان ينقصها العتاد والسلاح والقيادة الصالحة، وكان ينقصها أيضا الحزم وخلوص النية والتعاون الصادق بين الحكومات العربية نفسها، فأدى هذا النقص والتخاذل إلى هزيمة هذه الجيوش أمام شراذم اليهود المنظمة المستبسلة فى الحرب والقتال».

....

هكذا نرى الرافعى بحسه الأدبى يجيد تصوير المفارقة: فكراهيته لليهود تجعله يعبر عنهم بوصف **الشراذم**، والتزامه الحقيقة والصدق فى وصف ما حدث يجعله **يصف الشراذم بالاستبسال**.. وهكذا نجد وصفا دقيقاً وإن لم يتوافق مع مشاعرنا.

«... وقد ثبت من الحقائق التى تكشفت بعد انتهاء هذه الحرب أن هذه الجيوش لم تكن على تمام الأهبة والاستعداد، وتبين أن الجيش المصرى بالذات، وهو الذى وقع عليه العبء الأكبر فى هذه الحرب، لم يكن مستعداً الاستعداد الكافى للقتال».

....

وهكذا يلتفت الرافعى فى ١٩٥١ وقبل قيام الثورة إلى إنصاف الجيش المصرى ومن المذهل أنه **ينصف الجيش فى الوقت الذى يهاجم فيه قادته**، كما أنه يلتفت بذكاء شديد إلى **الثناء على قوات المتطوعين المصريين** التى لم تلق الآن

حظها من التقدير فى الكتابات التاريخية الرسمية، وذلك لسبب معروف ، ولم يعد من الممكن تجاهله حتى لو تجاهله الرافعى نفسه، والسبب إسهام الإخوان المسلمين فى هذه القوات بدرجة كبيرة:

«على أن الجيش المصرى ـ ضباطه وجنوده ـ قد أدى واجبه كاملاً وبرهن على بطولته فى ميدان القتال، رغم الفوضى التى كانت تسيطر على قيادته والنقص فى سلاحه وذخيرته ومئونته، وخططه الحربية، وقد أبدى المتطوعون من المصريين، شجاعة فى القتال تسطر لهم بمداد الشكر والثناء، مما برهن على أن الأمة المصرية تتوافر فيها الروح الحربية وصفات الجندية والشجاعة والاستعداد لخوض غمار الحروب، ولا ينقصها إلا القيادة الصالحة والعتاد والذخيرة».

4

لمحات أدبية في الحياة السياسية

- مجانية التعليم بين الوفد وخصومه

«رؤيتان لعبد الرحمن الرافعي وأحمد نجيب الهلالي»

- ثلاثة أجيال من وزراء آل سري:

عبد العزيز البشري ومصطفى أمين وقطعتان من الأدب السياسي

- في فلسفة المحسوبية والاستثناءات
- الدكتور هيكل يتعجب من مبدأ الميزانية لا تسمح

مـجـانيـة التـعليم بين الوفـد وخـصـومـه

رؤيتان لعبدالرحمن الرافعى وأحمد نجيب الهلالى

حقق الدكتور طه حسين مكسباً سياسياً وتاريخياً ضخماً بما نسب إليه من مجانية التعليم، وجعل التعليم كالماء والهواء، كذلك اعتزت حكومة الوفد بأن هذا الإنجاز قد تم فى عـهـدها، لكن كـثـيـراً من المفكرين الذين عـاصـروا هذه الفـتـرة وعـاشـوا أحـداثهـا يتـحـفظون على أن يكون هذا بمثابة إنجـاز، بل يعتبر بعضـهـم أن طه حـسين قد آذى الوطن بهذه الخطوة التى لا نزال نعيش آثارها الجانبية حتى اليوم.

من ناحية أخرى فإن «غير الوفديين» لا يرون فى الإنجاز الذى أجاد الوفد تـقديمه إنجازاً حـقيقياً، وإنما هو فى رأيهم إنجاز مظـهرى لا يتـعدى رفع شعارات براقة على واقع جميل موجود بالفعل.

ومن المهم قبل أن نتناول النصوص التى تطرح مثل هذه الرؤية أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهى أن الحوارات حول مثل هذه القضايا كانت تدور بين عقول كبيرة وأفئدة عامرة بحب الوطن وحب الحقيقة ،ويكفى لتصوير هذا أن نستعرض أسماء الوزراء الذين تعاقبوا على وزارة المعارف فى السنوات العشر السابقة على الثورة [وذلك من دون أن نشير إلى فتراتهم فيها أو إلى انتماءاتهم الحزبية أو إلى الوزارات التى عملوا من خلالها أو إلى رؤساء الوزراء الذين عملوا معهم..] يكفى فقط أن نذكر أسماء وزراء المعارف فى هذه الفترة لنكتشف مدى الثراء الفكرى الذى سيطر على هذا العصر، وهو ما كان كفيلا بأن تكون دعوة كدعوة مجانية التعليم وإتاحته كالماء والهواء، بمثابة دعوة قابلة للتنفيذ فيما يشبه لمح البصر، وذلك بدون إلغاء سنة من سنوات التعليم أو إعادتها، أو شغل الوقت بهذه المناقشة والمزايدة طيلة ١٥ عاماً كاملة.. وهذا هو الفارق الضخم بين عصر وعصر، ومناخ ومناخ.. وهو ما قد يشفع ـ على عكس ما نتوقع ـ لكل وزرائنا المعاصرين.

هذه هى الأسماء: أحمد نجيب الهلالى (وكانت هذه هى المرة الثالثة له) ـ محمد حسين هيكل (وكانت هذه هى المرة السادسة له) ـ عبد الرزاق السنهورى (لأول مرة) ـ محمد حسن العشماوى ـ السنهورى (مرة ثانية) ـ على أيوب ـ أحمد مرسى بدر ـ العشماوى (مرة ثانية) ـ طه حسين ـ محمد عبد الخالق حسونة ـ محمد رفعت ـ محمد سامى مازن ـ محمد رفعت (مرة ثانية) .

وعلى الرغم من ضخامة هذه الأسماء فإن بعضهم قد عملوا بالفعل كوكلاء لوزارة المعارف فى عهد أسلافهم وقبل أن يصبحوا وزراء للمعارف.. وهو ما يعنى أنهم كانوا مرشحين لهذا وأن الترشيح صادف أهله كما أنه ، أى الترشيح، قد خدم بطريقة علمية وعملية وذكية.

❑

ونأتى إلى النصوص التى نتناولها فى هذا الفصل وهى نصوص بديعة، ونبدأ بنص للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى وهو يستعرض فيه أسباباً ومبررات قوية تدعم وجهة النظر المعارضة للوفد والمنتقصة من دوره من خلال قطعة جميلة من الأدب السياسى والتاريخى تضمنها الجزء الثالث من كتابه «فى أعقاب الثورة المصرية» حيث يقول:

«... وتعنى الوزارة - يشير إلى وزارة الوفد الأخيرة (١٩٥٠- ١٩٥٢) - أكثر ما تعنى بالمشروعات البراقة، تقررها وتنفذها بطريقة مرتجلة لا تؤدى إلى الفائدة المقصودة منها، لأنها ليست موضع دراسة جدية، بل هى أقرب إلى أن تكون وسيلة للدعاية فحسب».

«خذ لذلك مثلاً مشروع مجانية التعليم الثانوى والفنى، لقد أعلنه النحاس فى خطاب العرش الذى ألقاه فى يناير سنة ١٩٥٠، وتبين مع الزمن أن الأمر فيه لا يعدو أن يكون دعاية للوفد من ناحية، وإفساداً للتعليم من ناحية أخرى».

❑

هكذا يقرر الرافعى بكل وضوح، ودون أن يهتز قلم، ودون أن يخشى الرأى الشائع، أو ما استقر فى الوجدان الشعبى تجاه هذه القضية، وهو يقدم مبرراته لهذا الحكم القاسى فيقول:

«فالمجانية كانت مقررة قبل تأليف وزارة النحاس، إذ كانت حقاً فى التعليم الثانوى لكل طالب حصل على ستين فى المائة من الدرجات، وكان التعليم المتوسط بالمجان لكل طالب لم يحصل على هذه النسبة».

«أما إطلاق المجانية فى التعليم الثانوى من هذا القيد فلا يقصد منه إلا الدعاية للوفد، وفيه ضرر بالتعليم وبالحالة الاجتماعية للبلاد، إذ أنه يصرف التلاميذ عن أن

يحوزوا بجدهم واجتهادهم الستين فى المائة التى كانت مشروطة للمجانية، وفيه، تبعاً لذلك هبوط لمستوى التعليم».

«كما أن تعميم التعليم الثانوى بالمجان دون الاستعداد الكافى له من المدرسين الأكفاء والأماكن الصالحة يؤدى إلى حشر الطلبة فى الفصل الواحد بأكثر مما تحتمله قواعد التدريس وأصول التربية، وبالتالى إلى هبوط مستوى التعليم والأخلاق بينهم، وقد حدث فعلاً أن زادت الوزارة عدد التلاميذ فى كل فصل على الحد الذى تقتضيه نظم التدريس الصحيح، مما جعل المدرسين لا يستطيعون أن يؤدوا واجبهم فى تعليم تلاميذهم، وتبين أن المستوى العلمى والخلقى لهؤلاء التلاميذ قد هبط عما كان عليه .... فهذا النظام أدى إلى انحطاط مستوى التعليم الثانوى ويؤدى تبعاً لذلك إلى انحطاط مستوى التعليم الجامعى، ويرجع بالتعليم والأخلاق جميعاً إلى الوراء».

«على أن جعل التعليم الثانوى كله بالمجان قد صرف التلاميذ عن التعليم الفنى الزراعى والصناعى والتجارى الذى كان بالمجان من قبل، وفى هذا ولاريب إضرار بنهضة البلاد الاقتصادية وتعطيل للإنتاج الصناعى والزراعى فيها، ولكن لا بأس فى نظر الوفد من كل هذه العواقب السيئة إلى جانب الدعاية للوزارة الوفدية بأنها قررت جعل التعليم الثانوى جميعه بالمجان، فى حين أنه لم يتقرر فى أرقى البلاد كانجلترا وأمريكا، إذ توجد فيهما مدارس ثانوية خاصة يدفع أولياء الأمور فيها مصروفات».

على هذا النحو الهادئ والعفيف يهاجم عبدالرحمن الرافعى سياسة الوفد التعليمية فى حكومته الأخيرة من دون أن يذكر اسم طه حسين من قريب أو بعيد، فهو يرى المسألة كلها حزبية ودعائية، ومن ثم فإنه لا يكلف نفسه الهجوم على مَنْ رفع صوته بها أو مَنْ نسبت إليه بعد ذلك، أو لعله لم يكن يرى مبرراً لاختصاص شخص ما بهذا الهجوم، ولم يكن الرافعى غافلاً عن أن هذه الخطوة تلاقى من الطنطنة قدراً كبيراً، ولكن هذا لم يكن يمنعه من أن يبدى رأيه على نحو ما أبداه من قبل فيما يتعلق

بالجامعة العربية بل بالإنتماء العربى لمصر!! وهو ما تناولناه فى فصل آخر من كتابنا هذا.

❑

على أن هذا الهجوم الذى يشنه عبدالرحمن الرافعى على تبنى الوفد سياسة هادفة إلى مجانية التعليم لم يكن أول ولا آخر هجوم على هذه السياسة الوفدية أو أقطابها بل إن جهود نجيب الهلالى وزير المعارف الوفدى السابق على طه حسين ، وكان وزيراً للمعارف فى وزارتى النحاس الخامسة والسادسة (فبراير ١٩٤٢ ـ أكتوبر ١٩٤٤) كانت تلقى كثيراً من هذا القبيل من الهجوم فى أثناء تقلده الوزارة وبعد خروجه منها، ومن الجدير بالذكر أن طه حسين نفسه كان المستشار الفنى لوزارة المعارف على عهد نجيب الهلالى باشا، بل إن الهلالى كان هو الذى رشح طه حسين للنحاس باشا حين اعتذر هو عن قبول وزارة المعارف فى وزارة الوفد الأخيرة فى يناير ١٩٥٠ .

ومن أطرف الأدبيات المتاحة لنا مقال ساخر عميق السخرية كتبه الهلالى باشا ونشره فى أول عدد من أعداد مجلة الكاتب المصرى التى صدرت برئاسة تحرير طه حسين فى أكتوبر ١٩٤٥ أى بعد ترك الرجلين المسئولية الوزارية من المعارف بأقل من عام، وقد وضع طه حسين هذا المقال فى أول مكان بعد مقاله كرئيس للتحرير، وقد جعل الهلالى باشا عنوان المقال «تكافؤ الفرص» .

ويحتاج مقال أحمد نجيب الهلالى شأن كل مقالاته فى هذه المرحلة إلى كثير من التقديم كى تفهم السخرية كسخرية لا كمديح، وكى تفهم السخرية من الذات على حقيقتها كتعظيم للذات، وكسخرية من الآخرين فى صورة سخرية من الذات، وكى نفهم الانتقاد كانتقاد لا كثناء، وبالإضافة إلى تنبيهنا هذا فإننا نشير إلى أن الهلالى جعل مقاله على هيئة رسالة موجهة منه إلى طه حسين، بلقب سيدى الدكتور دون أن

يذكر اسم طه حسين، وهو أسلوب تحفظى احتياطى، وهو يشير إلى أنهما شُغلا بالجد معا طيلة ثلاث سنوات وانتهيا منه فى سنة ١٩٤٤ (أى بخروجهما من المسئولية عن الوزارة كوزير ومستشار، ثم يشير إلى أن الهزل بدأ سنة ١٩٤٥ ، ولهذا معنى خبئ ذلك أن الهلالى بالقفز من أكتوبر ١٩٤٤ إلى ١٩٤٥ يريد أن يتفادى الهجوم على الدكتور هيكل باشا الذى خلفه فى وزارة المعارف مباشرة فيما بين أكتوبر ١٩٤٤ وحتى خرج من الوزارة ليتولى رئاسة مجلس الشيوخ فى مطلع ١٩٤٥ حيث خلفه السنهورى باشا، ونحن نعرف أو ربما يجدر بنا أن نذكر للقراء أن الخصومة كانت مشتعلة تماماً بين طه حسين والسنهورى باشا، وأن طه حسين تمادى فى هذه الخصومة إلى الحد الذى أخذ يسخر فيه من السنهورى فى كل ناحية حتى فى شكله، وقد نشر طه حسين فى هذا الصدد مقالات لا يمكن وصفها إلا بأنها فظيعة وسخيفة ومتوحشة، بل إنه اتبع اسلوب الجاحظ فى التربيع والتدوير.

ومما قد يصعق له القارىء أن يرى الهلالى وهو يلمح إلى أن الذى بدأ الهزل هو الدكتور السنهورى باشا وهو لا يعبر عنه إلا بوصفه أنه من «رجال القانون الذين تولوا شئون التربية والتعليم»، وهذا هو نص عبارة الهلالى وكأنه كان يستشرف تغير اسم الوزارة من «المعارف» إلى «التربية والتعليم» قبل أن يحدث هذا بتسع سنوات، ومن العجيب أن هذا الوصف ينطبق على هيكل باشا والسنهورى باشا (نفسه) والهلالى باشا وخلفهم العشماوى باشا، ولكن ذكاء الهلالى فى الصياغة الموحية يحتفظ بهذا الوصف للسنهورى وحده، وربما كان معه ، من حيث لا يدرى ولا يقصد، حق أيضا فإن السنهورى باشا هو أبرز رجال القانون هؤلاء جميعاً فكراً وعلماً.

❑

ويبدأ الهلالى فى الحديث عن إحساسه الساخر بالتشاؤم من عبارة «تكافؤ الفرص» ويحرص فى الوقت ذاته على أن يشير إلى أنه هو الذى صك هذا التعبير ومع هذا فإنه

آسف عليه، وهو يؤصل لهذا الأسف نتيجة للهجوم الذى شن على هذا المبدأ التنموى الجميل، ويقول:

«أمّا الجد فقد فرغنا له ثلاث سنين، وفرغنا منه فى سنة ١٩٤٤ ـ وأما الهزل فقد بدأ فى سنة ١٩٤٥ . ولكل من الجد والهزل مقياس. والمقياس لغة هو القانون. فإذا أردت أن تعرف حد الهزل فى «تكافؤ الفرصة» وجب أن ترجع إلى رجال القانون الذين يتولون شؤون التربية والتعليم، وهم قد قالوا «إنّ الهزل ضد الجد. والمراد به أن ينطق الإنسان بالعبارة راضياً مختاراً . لكنه لا يريد معناها الحقيقى ولا المجازى، بل يصدر عنه الكلام لعباً محضاً لا يقصد به أى معنى» . ولا أكتمك يا سيدى الدكتور أننى تشاءمت بعبارة «تكافؤ الفرصة» عندما اهتدينا إليها فى سنة ١٩٤٣ . فمن الألفاظ ما يجر الشؤم على المعانى، ومنها ما يجر الفأل والبركة. وكان خليقاً بنا أن نتطير من هذين اللفظين وبخاصة لفظ «التكافؤ»؛ فقد جرى به قلم محكمة النقض والإبرام سنة ١٩٣٤ . جرى به هذا القلم فى معرض المهاترة والسب والقذف، فقررت المحكمة العليا أنّ القذف والسب المتبادلين لا يقتضيان التعويض لما بين القاذفين من تكافؤ فى السيئات. ولذلك قلت إننى تشاءمت لما قررت المحكمة العليا. وقد أدركت الآن أنّ تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً صحيحاً يدك نظام المجتمع المصرى؛ لأنّ تعليم الفقراء يفقر الأغنياء، وفقر الأغنياء داهية دهياء».

هكذا يسخر الهلالى باشا بسرعة رهيبة من مضمون هجوم مخالفيه فى الرأى، وقد صور حجمهم على نحو كاريكاتيرى ساخر.

❑

ثم يبدأ الهلالى باشا فى تبنى وجهة نظر معارضى فكرة «تكافؤ الفرصة» عارضا هذه الفكرة بطريقة بديعة. وإن تكن ملتوية بعض الشىء وهو لهذا يقترح على طه

حسين ألا يكون من الذين يعيشون بالأمانى كما يصورهم بيت الشعر الذى استشهد به فى نهاية مقاله عن تكافؤ الفرصة ونشر التعليم ، مقترحاً عليه فى المقابل أن يكون من أولئك الذين يعبر عنهم قول شاعر آخر، وهو يفيض فى هذا المعنى بألفاظ وتراكيب أقرب إلى تعقيد الصياغة فيقول:

«ولا يخفى عليك يا سيدى الدكتور أنّ المتعلمين هم زينة المجتمع. ومن الخطأ البين أن نحاول تعليم الشعب كله فيصبح كله زينة. وإخالك لا تجهل أنّ «أمراض الزينة» عند الأطباء من الأمراض الملعونة. ومن عجب يا سيدى الدكتور أنك تخطب وتكتب، ولكنك لا تعلم حقيقة ما تكتب ولا تدرك معنى ما تقول. أنت من أضعف خلق الله، ولكن الله وضع فيك سرّاً. وقد رأينا من ضعاف الناس مَنْ تجرى على ألسنتهم أسرار الغيب، وهم لا يعلمون أنهم يتكلمون بما وراء الغيب وأنّ كلامهم - كما يقول الصوفية - مستخلص من الطبائع متصل بحقيقة الحقائق. وقد تعودت أن أرجع مواضع «طلب المعانى» فى «مدارك» الصوفية لأدرك معنى أقوالك ، وما يجرى الغيب على لسانك. من ذلك أننى قرأت لك مقالا فى إحدى المجلات فى عام ١٩٤١ عن مستقبل الديمقراطية بعد الحرب. كان لك فيه آمال ومتمنيات؛ من أمثال تكافؤ الفرصة ونشر التعليم ، ثم ختمت مقالك ببيت من الشعر:

منى إن تكن حقّاً تكن أحسن المنى

وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغداً»

«فلما رجعت إلى كتب الصوفية وبخاصة أقوال نجم العرفان المسندة إلى قطب الواصلين، وجدت أنهم عقدوا لهذا البيت باباً بل أبواباً بعنوان «الأمانى الكاذبة ومضارها». ولم يقتصر كلامهم فى هذه الأبواب على الأمانى الكاذبة فى العلم والتعليم بل تناول كذلك الأمانى الكاذبة فى الغذاء والكساء. ثم قالوا فى أمثالك يا سيدى الدكتور إنكم «مغرمون بوصال صورة وهمية خيالية. مثلكم مثل الجائع والعارى يصور فى وهمه الغذاء والكساء وهو لا يأكل ولا يلبس». وقد أنحوا عليكم باللائمة

واعتبروكم مجانين. وأنت تعلم يا سيدى الدكتور أنّ المجنون شر من الأمى. وقد وصفك بعض كتاب الدنيا بأنك أمى فاحمد إليهم الله، الذى لا يحمد على مكروه سواه. أمّا سند الصوفية فى أنك مجنون فهو قولهم «العقل لوح فارغ والخواطر نقوش تنقش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوشه ما بين غرور وأمانى باطلة وسراب لا حقيقة له».

ولذلك ينبغى لك يا سيدى الدكتور أن تحذر شؤم هذا البيت من الشعر، كما ينبغى لى ولك أن نحذر من شؤم تكافؤ الفرصة.

وأولى بى وبك بل أولى بمصر كلها أن نتمثل بقول الشاعر:

أمنيــة ظفــرت نفــسى بهــا زمناً

واليـوم أحـسبـهـا أضـغـاث أحـلام»

❑

ثم يبدأ نجيب الهلالى باشا فى تحليل نفسى عميق لموقف أولئك الذين لا نزال نراهم فى زماننا هذا من الذين تعلموا بالمجان ومع هذا فإنهم يحاربون المجانية.. ومن العجيب أن هؤلاء كانوا موجودين منذ ستين عاما وربما أكثر، وكانت حججهم ودفاعاتهم لا تخرج عن الحجج التى نقرؤها اليوم لخلفائهم، والهلالى باشا بما عرف به من ذكاء وعبقرية يحلل موقفهم ويرده إلى حقيقة نفسية تتمثل فى شىء قريب من الغيرة التى تمنع المشاركة فى المحبوب، ولهذا فإنه يصفهم ويصف تصرفهم بالمحبة الصادقة من باب السخرية، وهو يرى أن هذه «المحبة الصادقة» للعلم تمنع قبول المشاركة فى المحبوب، ويرتب على هذا ما ينادى به هؤلاء.. ويقول مخاطباً طه حسين إن هذا هو التفسير الوحيد الذى يمكنك به أن تعلل محاربة مَنْ تعلموا بالمجان للفقراء من طلاب العلم:

«لقد طبقنا «تكافؤ الفرصة» كما أمر عمر بن الخطاب حين قال «آس بين الناس»

ولكننا حفظنا شيئاً وغابت عنا أشياء.. غاب عنا أنّ المحبة الصادقة للعلم تمنع قبول المشاركة فى المحبوب. فلا ينبغى للعلماء إن كانوا صادقين فى محبتهم للعلم أن يسهلوا للجهلاء سبيل مشاركتهم فيه . وبهذا وحده يمكنك يا سيدى الدكتور أن تعلل محاربة مَنْ تعلموا بالمجان للفقراء من طلاب العلم. وحقيقة الحال أنه لا يمكن تعليل ذلك إلاّ بصدق المحبة للعلم، وعدم قبول المشاركة فى المحبوب».

....

هكذا تحقق مثل هذه السخرية أروع رد على هؤلاء الذين يحاربون نشر التعليم ومجانيته!

❑

ويواصل الهلالى سخريته من معارضيه فيزعم لمستشاره طه حسين صدق ما نادى به هؤلاء من أن الشر المشترك بمثابة الخير، وأن الأمانى المجردة ألذ من الأمانى المتحققة، وهو يقول:

«وغاب عنا أنّ الشر إذا كان مشتركاً يصبح خيراً. وأنّ الأمانى أوفر حظاً فى اللذة من تحقيقها. ولم يكن ينبغى أن يغيب ذلك عنك. فأنت تزعم أنك أديب الشرق، ومع ذلك لا تذكر قول الأصمعى «تمنيك الشيء أوفر حظاً فى اللذة من قدرتك عليه». وقد أدرك شانئوك هذا الذى غاب عنك... فتكافؤ الفرصة وهو أمنية، أوفر حظاً فى اللذة من تكافؤ الفرصة بالفعل. وقد حسبت أن الدنيا كلها معك حين بشرت بهذا المبدأ، وغاب عنك أنك شيطان، وأن الباطل كله يتحيز مع الشيطان. وكذلك حسبت أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء كما يقول المسلمون. ولهذا عاونت الفقراء ، راجياً أن تسبق إليها معهم. وغاب عنك أيها المفتون أنهم إنما يدخلون الجنة قبل الأغنياء لأنهم يموتون قبلهم.»

❑

على هذا النحو يمضى الأستاذ أحمد نجيب الهلالى إلى أن يصل إلى تقرير أن خلفاءهما فى التربية والتعليم لم يعملوا شيئاً ذا بال على الرغم من أنهم يستقلون ما قام به الهلالى وطه حسين. وهو يعبر عن هذا المعنى بطريقة بديعة فيقول:

«ويزعم الزاعمون يا سيدى أنهم يستقلون ما عملنا. فأذكر أن نفراً من الصحابة جاء إلى دار النبى عليه الصلاة والسلام فسألوا أزواجه عن عبادته وقيامه وصيامه، فذكرن لهم عبادته فاستقلوها. ثم قالوا: لسنا كالنبى فانه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر كله، وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل كله. وهكذا بلا تشبيه ولا تمثيل حالك وحال أمثالك فى هذه الأمة المجنونة التى نعلن أنها تثق بفلان وفلان فى الحال والاستقبال، وأنها تغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر».

....

ويعاود الهلالى الهجوم بطريقة مكثفة ومركزة، وهو ينفى ثقة الأمة عن خصوم الوفد فى الحال والاستقبال، وكأنه لا يدرى أنه سيقع هو نفسه بعد سنوات قلائل فيما وقعوا فيه.. ولا يدرى أن عباراته ستكون صالحة لوصفه هو نفسه:

«أما أولئك النفر من أصحابك فإنهم قوم لا تثق بهم الأمة، لا فى الحال ولا فى الاستقبال، ولم تغفر لهم من ذنوبهم ما تقدم وما تأخر. فلا تعجب إن هم استقلوا جهودى وجهودك ، ثم قالوا كما قلنا إن العلم كالهواء والماء، ولعلهم قالوا كالغذاء والكساء، ولكنك تهزأ بهذا القول وتسخر منه، وتؤكد أنهم إلى الآن لم يعملوا شيئاً. فاذكر يا سيدى الدكتور أنّ «شيخ التربية» الصوفى قد قال ذات مرة للمريدين: «إننى أخاف من كل فعل لأنه قد يكون سبباً لهلاكى. فإذا أردت أن أخطو خطوة رفعت رجلى فارتعدت فى الهواء، ثم رددتها فارتعدت، ثم أعدتها إلى ناحية الخطوة

فارتعدت، وهكذا لا أكمل الخطوة حتى يقول مَنْ يرانى ما به إلا الجنون. وما يزال الواحد منكم على الطريق حتى يصل إلى هذه المرتبة».

❑

وفى ختام المقال يبدو الهلالى متفائلا بالمستقبل واعيا لفكرة أن الصواب سينتصر فى النهاية وهو يخاطب طه حسين فيقول:

«ولو أنطقنا «تكافؤ الفرصة» بلسان الحال لقال «رضيت من الغنيمة بالأياب». وهو مثل فى الخيبة يضرب عند القناعة بالسلامة لمن سعى إلى شىء فلم ينله غير أنه لم يعطب. وأؤكد لك يا سيدى الدكتور أن «تكافؤ الفرصة» لم يعطب وإن خاب إلى حين. ودليل ذلك أنه محمود بكل لسان، سواء فى ذلك الملاك والشيطان.»

ثلاثة أجيال من وزراء آل سرى

عبد العزيز البشرى ومصطفى أمين وقطعتان من الأدب السياسى

يحدثنا تاريخ الممالك والدول عموماً عن نوع من الوراثة غير وراثة العرش، هو وراثة الوزارة، حدث هذا كثيرا فى العصور الوسطى فى حضارة الإسلام، وفى تاريخ أوروبا الوسيط، وقبل ذلك وبعده، ولا بأس فى هذا ما استمتعنا بالمزايا التى يمكن لمثل هذا التقليد أن يحققها، وإن كان الأمر لايخلو بالطبع من نشأة عيوب لمثل هذا النظام تماما كما هو الحال فى وراثة العرش، والأمر فى هذا ليس فى حاجة إلى إيضاح.

وقد يكون من المناسب أن نتناول إحدى الحالات البارزة فى التاريخ المصرى الحديث، وهى حالة إسماعيل سرى باشا الوزير اللامع للأشغال الذى أصبح ابنه حسين باشا سرى وزيراً للأشغال ورئيساً للوزراء، كما أن زوج ابنته عبد الحميد سليمان باشا أصبح وزيراً للأشغال أيضاً بل وصل إلى رئاسة الوزارة بالنيابة لمدة ساعات قبل

أن يكلف صهره حسين باشا سرى بتشكيل الوزارة عقب الوفاة المفاجئة لحسن صبرى باشا عام ١٩٤٠ .

وبعد فترة قصيرة جداً فإن حسين سرى نفسه دفع (١٩٤٩) بزوج ابنته الدكتور محمد هاشم ليكون وزيراً فى الوزارة التى رأسها.. وبحلول ١٩٥٢ أصبح محمد هاشم وزيراً للداخلية فى آخر وزارات سرى باشا (يوليو ١٩٥٢) .

ولنبدأ القصة من البداية بقدر من التفصيل:

كان إسماعيل سرى باشا (١٨٦١ ـ ١٩٣٧) أول مصرى يتخرج فى مدرسة السنترال بباريس، كما درس فى انجلترا هندسة الموانئ، وفى فرنسا الهندسة الميكانيكية، وكان له فضل كبير فى إتمام مشروعات الرى والصرف فى مصر، وكان يُعد فى زمانه من المهندسين العالميين، وقد تولى وزارات الأشغال العمومية (والحربية والبحرية بالإضافة) فى وزارات عديدة بحيث يبلغ مجموع المدة التى عمل فيها وزيراً للأشغال فترة قياسية فى ذلك الزمان، وقد امتد توليه للمنصب الوزارى طويلا حتى شمل الفترة من ١٩٠٨ وحتى ١٩٢٦، مع فترات قصيرة جدا من الانقطاع عن المشاركة فى التشكيلات الوزارية.

أما حسين سرى باشا فهو ابن إسماعيل سرى باشا، وقد سلك فى الحياة بفضل أبيه، طريقا كالطريق الذى سلكه والده مع إضافات التفوق التى تكون من حظ الجيل التالى عندما يجد المجال أمامه مهيئا، وهكذا فإن حسين سرى باشا لم يتوقف عند حدود الوزارة التى وصل إليها فى سن مبكرة، ولكنه تعدى هذه المرحلة فى سرعة بالغة إلى رئاسة الوزارة، وتولى هذه الرئاسة خمس مرات لم يتفوق عليه فى عدد هذه المرات إلا النحاس باشا بحكم أمور عديدة، منها كونه زعيم الأغلبية، وطول عمره، وسبقه إلى ممارسة السياسة بل والرئاسة التى تولاها قبل أن يكون حسين سرى باشا مجرد وزير.

وقد كان حسين سرى زوجاً لخالة الملكة فريدة الزوجة الأولى للملك فاروق، أما

والد زوج حسين سرى وجد الملكة فريدة (لأمها) فهو رئيس الوزراء الشهير محمد سعيد باشا الذى عمل إسماعيل سرى باشا وزيراً تحت رياسته، وهكذا فانه خطب لابنه (رئيس الوزراء القادم فى علم الزمان) ابنة رئيس الوزراء الحالى (!!).

وتخطئ كثير من كتب التاريخ فتجعل حسين سرى بمثابة عم الملكة فريدة أو خالها، وهو خطأ بسيط وخطير فى نفس الوقت، والسبب فيه راجع إلى النقل عن المصادر الانجليزية التى لا تفرق بين العم والخال فكلاهما uncle كما لا تفرق (فى مرحلة أخرى) بين زوج العمة وزرج الخالة من ناحية وبين العم والخال وهكذا يستسهل مَنْ يأخذ معلوماته من المصادر الإنجليزية أن يترجم القرابة بأى لفظ من الألفاظ العربية، ومن هنا فقد يصبح زوج الخالة خالاً أو حتى عماً على الرغم من الاختلاف الظاهر فى لقب العائلة !!.

❑

ومن المهم أن نشير إلى أن الملك فاروق لم يكن يرتاح تمام الارتياح إلى حسين سرى باشا لا قبل زواجه من الملكة فريدة، ولا بعد هذا الزواج، ولا قبل طلاقه منها، ولا بعد هذا الطلاق، ولم تكن علاقة النسب هذه بمثابة عامل فى صعود حسين سرى ولا فى إبعاده، إنما كان العامل الأكثر تأثيراً فى صعود نجم حسين سرى هو علاقته بالانجليز وثقة هؤلاء به، وقد كان صديقاً شخصياً لأكثر من مسئول بريطانى.

ومع أن المقام ليس مقام حديث عن علاقة الملك بحسين سرى فإنه لا ينبغى لى أن أترك هذه النقطة بدون الإشارة إلى حقيقة أخرى مهمة لا تحتمل اللبس ولا التأويل وهى أن حسين سرى باشا، هو الآخر، لم يستطع العمل مع فاروق كرئيس للديوان حين عهد إليه بهذه المهمة عقب عودة الوفد إلى الحكم على يديه فى مطلع ١٩٥٠، صحيح أن قرار تعيينه صدر وأنه تسلم العمل، ومارسه، ولكنه سرعان ما ترك هذا العمل فى هدوء ودون ضجيج.

ونعود إلى إسماعيل سرى باشا الذى كان معروفا بحبه لأقاربه، وكانت قرابة الوزير فى عهده تفتح، كما نعرف، كثيرا من الأبواب، وبخاصة وظائف الحكومة التى لم يكن يتمتع بها مَنْ ليست لهم هذه الحظوة، ثم إن الأمر لم يكن يقتصر على الإلحاق بالوظائف عند أمثال سرى باشا ممن عرفوا بالبر الشديد لأقاربهم فى زمن كانت العلاقات الاجتماعية لا تزال تعلى من قيم الخير والمحبة والتكامل، وإنما كان الأمر يتعداه إلى رعايتهم فى هذه الوظائف بالترقيات فى موعدها، وأسرع من موعدها من باب الاستثناء، وتسكينهم فى المواقع المؤثرة التى تجلب الجاه والوجاهة والنفوذ.

كان هذا الخلق فى إسماعيل سرى باشا من أخلاقه البارزة، وتعود عليه أقاربه، وأراد هؤلاء من الناس أن يعاملوهم وقد أخذوا فى اعتبارهم هذه الحقيقة!

وهذا هو الأستاذ عبدالعزيز البشرى الأديب الدقيق الرقيق الساخر يصور لنا شخصية «إسماعيل سرى» على عادته فى تصوير شخصيات كبار رجال عصره فى مجلة «السياسة» فى الباب الأسبوعى «فى المرآة»، فلا يفوته أن ينوه بهذا الخلق من أخلاق سرى باشا.

يقول الشيخ البشرى رحمه الله:

«ومن أظهر صفات هذا الرجل أنه وصول لرحمه، دائب جاهد فى غير ملل ولا سأم، على كل ما يعود بالخير على ولده وأصهاره وسائر عشيرته، ولو مد له فى الحكم وبسط فى السلطان لرفت جميع موظفى الحكومة، وجمع إلى كل فتى من أهله ٤٥٧ وظيفة فى آن واحد حتى يستطيع أن يقصر وظائف الدولة عليهم فلا يتولى واحدة منها خارجٌ عنهم، وإن له فى دسهم فى الوظائف والقفز بهم إلى عليا المناصب لأحاديث تجمع وتنشر، وأفاكه تروى وتؤثر، وحسبك أن تردد النظر فى دواوين الحكومة، وسائر مصالحها لتقع فى كل واد على أثر من ثعلبة، ولقد بدأ يوما لبعض الحسدة أن يجمع ما يجبيه «آل سرى» من أموال الدولة، فخرج له منها ما يقوم بنفقات مصلحة كاملة «وعين الحسود فيها عود» حصنت آل سرى برب الفلق من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حسد إذا حسد».

ويمضى الأستاذ البشرى فى رسم لوحته الرائعة ليقول:

«ومن طريف ما يُروى له، وكل ما يُروى له فى هذا الباب طريف، أن وزيراً كان من زملائه له قريب فى وزارة الأشغال فسأله أن يرقيه إلى بعض مناصبها الخالية لأنه «قد استحق الترقية»، فتثاقل عنه سرى باشا.. وتوسط فى الأمر بعض إخوانهما فى الوزارة فقال لهم معالى «وزير الأشغال»: ولماذا أرقى له قريبه وعنده قريبى «فلان» لا يرقيه؟ فقيل له: ولكنه لم يحن بعد أوان ترقيته؟ قال: إذن نتربص بقريبه حتى يجيء الدور على قريبى، وتعلم، أيدك الله، هكذا يقول البشرى، أن صاحب الحاجة أرعن، فبادر الوزير الآخر بترقية قريب سرى باشا بالاستثناء فى سبيل ترقية قريبة بحكم الدور».

....

ومع هذا فنحن لا نزال فى حدود المعقول، ولكن عبدالعزيز البشرى كان أديبا عظيماً قادراً على أن يقدم لنا قصة بليغة أخرى يرويها بطريقة كاريكاتيرية فيقول:

«وجاء مرة أحد زملائه الوزراء من هذا الباب فسأله أن يرقى أحد صنائعه درجة على أن يرقى هو أحد أقرباء الباشا فى ديوانه درجة، فدار ذهن الرياضى الكبير [أى سرى باشا باعتباره مهندسا وعارفا بالرياضة] فى الحسبة فرآها تفرق ٢٤٠ قرشا فى كل شهر فتوقف الى أن يوفاها «على داير قرش» وتعاصى الأمر، وتعذر الحل، وأخيراً وبعد طول محادثات ومفاوضات توسط أحد الوزراء أيضا فى الأمر على أن يزيد قريبا لسرى باشا فى وزارته هو مائتى قرش، على أن هذا كل ما تبلغه طاقته ويدخل فى جهده، وذلك كله تفاديا من وقوع أزمة وزارية، وبعد لأى رضى سرى باشا بهذا الحل محتسبا عند الله ٤٠ قرشا فى كل شهر: كانت - لو أن فى البلاد عدلا وإنصافا - تعود على بعض الولد أو الأصهار أو الأقوياء، بشيء ولو قليل من اليسر والسعة والرخاء.. وكانت تضحية من نفس سرى باشا هائلة استحق بها أن يقام له تمثال، يخلد به «المثل الأعلى» للتضحية والإيثار على تطاول الأيام والليالى!».

ومن خفة دم الأستاذ البشرى أنه كان فى مقاله حريصاً على أن يعبر عن الأزمة الوزارية بمصطلحها الفرنسى... كما لو كان الأمر علماً وحقاً.

❑

ومضت السنون، وجاء حسين باشا سرى فسار على نهج والده العظيم، ولكنه فيما يبدو لنا كان يضاعف من قدر صلة الرحم قدر ما ضاعف له الله فى إكرامه بالمناصب، حتى إذا كانت وزارته الرابعة، وهى الوزارة التى ألفها فى سبتمبر عام ١٩٤٩ لإجراء الانتخابات التى عادت بالوفد [فى يناير عام ١٩٥٠] ، جاء سرى باشا بالدكتور محمد هاشم زوج إحدى بناته الثلاث (لم يرزق حسين سرى باشا ذكورا) ليكون وزير دولة قوياً ذا سلطة واسعة، أى من ذلك النوع من وزراء الدولة الذين يتولون بعض مهام رئيس الوزارة على سبيل النيابة والمساعدة، لا من النوع الآخر من الذين يكون وجودهم الوزارى لقبا بلا وزارة.

ومضى الدكتور محمد هاشم باشا وهو يومئذ شاب أتته الدنيا يمارس سلطاته الواسعة فى رئاسة الوزارة وفى وزارة الداخلية وقد أصبحت فى يديه مقاليد حكم البلاد، والحكم بين الأحزاب، وحكم الوزراء، والحكم بينهم، والتوسط بينهم وبين رئيسهم الذى هو صهره الجليل، ولم يكن شئ ينقص محمد هاشم باشا كى يمارس التفرد بكل ما أوتى من سلطة.

ويبدو بكل وضوح أن وجود شخصية من طراز الدكتور محمد هاشم فى ذلك الوقت قد أحدث ارتباكا فى تكتيكات الأحزاب حيث أصبح زعماؤها، يعاملون رجلا لم يعرفوه المعرفة الكاملة من قبل، كما أنهم، لم يعرفوا له اتجاها فى الحياة العامة أو السياسية، ولم يكن هؤلاء قد عاملوه بدرجة كافية ولا عرفوا نوع معاملته، إنما هى فى كثير من الأحيان المعاملة الأولى بينه وبينهم، وهكذا كان الدكتور محمد هاشم لا يجد حرجا حين يطلب من هؤلاء السياسين موافقته على تأجيل أمر من الأمور أو أن يستمهلهم الزمن لكى يجربوه، ويخبروا معدنه، وفى هذه الفترات من «الهدنة» كان هذا الوزير الشاب «المتنفذ» يحقق ما لا يتأتى لغيره لمن قيدهم الزمن بقيوده.

فإذا أضفت إلى هذا أن الرجل كان غير ملزم بماض منْ وعد أو خلق أو طبع أو دين سياسى، إنما هو يبتدئ مع هؤلاء من الصفر. أدركت مدى النفوذ الكامل الذى كان بوسعه أن يستغله على نحو متميز ومؤثر.

ومن ناحية ثالثة فقد كان فى وسع محمد هاشم أن يضرب ضربته ثم يعتذر بقلة خبرته السياسية أو قلة خبرته بالسياسة وقد كان أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الأشهر يلجأ إلى هذا الأسلوب ولكنه لم يفد منه على نحو ما أفاد محمد هاشم.

❑

وقد خلد التاريخ موقف الصحافة المصرية من هذا الوزيرالشاب بمقال رائع وبليغ كتبه الأستاذ مصطفى أمين فى مجلة «آخر لحظة» (٢١ سبتمبر ١٩٤٩) وأعاد نشره بعد عقود من الزمن فى كتابه «لكل مقال أزمة»، وكان المقال بعنوان «اخرج أيها الوزير الصغير»، وقد اشتهر هذا المقال فى ذلك الوقت، وحفظه الناس ورددوا فقراته، وذاع صيته بجملة (ليست فى النص الذى ننقله) يطلب فيها مصطفى أمين من صديقة الوزير الشاب أن يخرج من الوزارة لأن مكانه فى غرفة النوم فحسب، ومن المفيد أن نتأمل فى هذا المقال وفى كل ما يدل عليه:

«من نكد الدنيا أن صاحب المعالى الأستاذ محمد هاشم أصبح وزيراً فى هذا البلد، لا لأنه كفاية ممتازة، ولا لأنه نائب بارز، ولا لأنه قطب من أقطاب الأحزاب، ولكن لأنه زوج بنت رئيس الوزارة. وياويل أى رئيس وزارة يتولى الحكم بعد اليوم، ولا يختار زوج ابنته وزيرا، فإن الطريق إلى الوزارة أصبح - بعد تعيين الأستاذ هاشم وزيرا - طريقا سهلا ميسورا بفضل عقد يكتبه المأذون».

«وهكذا بعد خمس سنوات، حاربنا فيها المحسوبية والمحاسيب، وكافحنا فيها الاستثناءات، تتألف الوزارة القومية وعنوانها المحسوبية الكبرى والاستثناء الكبير فى شخص زوج بنت رئيس الوزراء».

نتوقف هنا لنفسر ما تشير إليه هذه العبارة وما فيها من النص على «خمس سنوات»

وهى تشير إلى جهود مصطفى أمين نفسه فى مؤسسة «أخبار اليوم» وصحفها، حيث بدأت «أخبار اليوم» الصدور قبل هذا المقال بخمس سنوات، ولكن العبارة مع هذا يمكن فهمها على نحو آخر للذين يفضلون أن يعتبروا صحف «أخبار اليوم» بمثابة صحف الهيئة السعدية، وقد كانت للهيئة السعدية مقاليد الحكم فى هذه السنوات الخمس إلا قليلا.

❑

ويمضى الأستاذ مصطفى أمين يؤثر فى القراء بما يروى من ثقافة تاريخية عاصرها القراء، فهى أقرب إلى فهمهم وتمثلهم والتأثر بها، ويختار مما حدث فى دكتاتورية موسولينى مثلا حين أصبح زوج ابنته شيانو حكما فى الخلافات.. وملجأ للشفاعات.. وملاذا للضعفاء.. ومقصدا للبائسين.

وينتقل مصطفى أمين إلى الحديث عن الدور أو الأدوار التى انتزعها محمد هاشم أو شيانو المصرى كما يسميه فيقول:

«وفى ثوان أصبح (شيانو المصرى) هو الحاكم بأمره، يعز مَنْ يشاء ويذل مَنْ يشاء، يقسم الدوائر بالبرجل أو بالمسطرة، ويعد كل حزب بما يحب ويهوى، ويصرح بأنه هو وحده الذى يدرس هل تكون مدة مجلس النواب بالدورات أو بالسنوات».

....

يشير مصطفى أمين إلى الدور الذى لعبه محمد هاشم فى ذلك الوقت فى إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية ورسم حدودها، وقد ردد أنصار كل حزب أنه حقق للأحزاب الأخرى مطالبهم على حساب حزبهم.

....

ونأتى إلى بيت القصيد أو السبب المباشر وهو ما يعبر عنه مصطفى أمين بقوله:

«ويجلس فى الداخلية يراقب الصحف ويصادرها ويهددها ويتوعدها»..

ثم يتجه مصطفى أمين بخطاب مباشر إلى محمد هاشم ويقول:

« باسم مَنْ تحكم أيها الوزير الصغير.. إنك لا تمثل أحدا فى هذا البلد.. لا هيئة ولا حزبا ولا فكرة ولا رأيا عاما.. ما أنت إلا صهر رئيس الوزراء.. كل صلتك بالدولة هى هذه الصلة.. فكأنه مطلوب منا أن نحنى رءوسنا لرجل كل كفاءته أنه تزوج ابنة رئيس الوزراء».

❑

وينتقل مصطفى أمين ليعبر عن تصرفات الدكتور محمد هاشم بطريقته المؤثرة فى تصوير أسلوب السياسيين الذين يعدون جميع الأطراف بما يرضيهم، ويكتفون بهذه الوعود، ويظنونها بمثابة واجبهم الأساسى وقد أدوه، وهو يقول:

«إنا نجد فى معالى الأستاذ هاشم نوعا عجيبا من الوزراء. لقد ذهب معاليه إلى معالى مكرم باشا [أى مكرم عبيد، وكان يتزعم حزبه الذى أسسه باسم «الكتلة الوفدية»] وقال له: اعتبرنى ممثل الكتلة فى الوزارة «وذهب إلى السعديين وقال لهم: اعتبرونى الوزير السعدى الخامس فى الوزارة، [كانت الهيئة السعدية ممثلة بأربعة وزراء فى هذه الوزارة] وذهب إلى كل من الدستوريين والوفديين يؤكد لهم أنه وزيرهم المخلص الأمين، ولم يبق إلا الحزب الوطنى وحزب مصر الفتاة.. ولا نعرف هل زارهما الوزير الصغير أو لا يزال فى الطريق».

«ويتلفت كل واحد من هؤلاء، فيجد أن الوزير الصغير يظن أن السياسة هى أن يوهم كل فريق أنه رجله الوحيد.. وهو ليس إلا فقاعة من فقاعات السياسة، أو طفلا من أطفال الحكم، ألبسوه بنطلونا طويلا، وأعطوه سيفا يلعب به ويهوش الناس، ويهددهم بقطع الرقاب».

....

يشير مصطفى أمين إلى ما كان قائماً فى ذلك العهد من لبس تلاميذ المدارس للبنطلون القصير، وهكذا فإن الوزير الصغير على حد وصفه كان مجرد طفلٍ يلبس بنطلونا قصيراً فألبسوه بنطلوناً طويلاً.

ثم يبدأ مصطفى أمين فى إظهار تهديداته للوزير ولصهره رئيس الوزراء معاً، ويبدو أنه يرد رداً مباشراً وخاصاً على تهديد من الوزير له بقطع رقبته:

«ولكن فليتأكد الأستاذ هاشم ودولة حاميه أن الرقاب لا تقطع بسيوف من خشب أو من صفيح، وأن (شيانو) وموسولينى لو بعثا من القبر لما استطاعا أن يحولا عقيدة أو يزعزعا إيمانا».

ويلمح مصطفى أمين إلى طبيعة العلاقة المتوترة بين أخباراليوم وبين الوزير الجديد:

«لقد هددنا الوزير الصغير بأننا إذا لم نسر فى ركاب الوزارة فسيصادر «أخبار اليوم» و«آخر لحظة» مرة، ومرتين، وثلاث مرات، وأربع مرات».

«فلما قلنا إن الأمر ليس فى يده، وإنما فى يد القضاء، أجاب إجابة سوف نقولها أمام القضاء، وإن كان معاليه قصد النيل من القضاء، فليعلم أننا نجل القضاء ونثق بعدالة القضاء».

«ولكن هذا التهديد والوعيد لا يخيفنا، فالحقيقة فى أيدينا أقوى من السيوف وأفعل من الديناميت.. إننا نردد ما يقوله الشعب فى كل مكان».

....

ثم يصل مصطفى أمين بعد هذا إلى ذروة البلاغة والتصوير فى مقاله مخاطبا محمد هاشم باشا بقوله:

«اخرج أيها الوزير الصغير.. فمقاعد الوزراء لم تخصص إلا ليجلس عليها الكبار. إن مكانك ياصاحب المعالى فى بيت حميك.. لا فى مجلس الوزراء. إن صلة النسب لا يجوز أن تكون مؤهلا فى بلد ناهض. إن مصر كلها تتساءل: أى معنى لاختيارك وأى مبرر لتقدمك الصفوف إلا أن يكون المطلوب من هذا البلد أن يحنى رأسه لرئيس الوزراء وأصهار رئيس الوزراء».

❑

وختم مصطفى أمين مقاله فى صراحة لا ينقصها الوضوح الشديد الكفيل بأن يثبت على القلم جموحه إن أريد إثبات هذا الجموح فقال:

«لا يا صاحب المعالى.. سيبقى فى مصر رجال يرفضون هذا الهوان، ولا يحنون رءوسهم إلا للكفاءة والتضحية والرجولة والشجاعة والإقدام».

«أما صلات القرابة والمحسوبية وصلات النسب، فليس مكانها دواوين الحكومة ومقاعد الحكام، وليست مصر ضيعة لأى وزير أو زعيم يملؤها بالأصهار والأقارب والمحاسيب، إنما هى للمصريين جميعا، وليس لرجل فيها حق أكثر مما لسواه من المصريين».

«وأخيرا فليعذرنا القارئ إذا شغلنا وقته ووقتنا بمسائل صغيرة.. فلقد طلب رئيس الوزراء من الوزراء أن ينحوا جانبنا المصائب الكبيرة.. التى تكون موضع خلاف ويبحثوا فقط المسائل الصغيرة.. التى ليست موضع خلاف».

«وبعد.. اخرج أيها الوزير الصغير...».

❑

يروى مصطفى أمين فى كتابه : « لكل مقال أزمة» قصة هذا المقال ويقول:

«ولم يخرج الدكتور هاشم من الوزارة عندما قرأ المقال، ولكنه واجه المشكلة لساعته، واحتار هل يشطب المقال فيقال عنه إنه استغل الرقابة لحماية نفسه، أم ينشره فلا يحميها من السخرية، عندئذ سأل حماه الرأى، فأشار عليه بنشر المقال».

❑

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى حوار صحفى طريف نشره مندوب مجلة «مسامرات الحبيب» مع الدكتور هاشم وقد سأله عن حاله بعد أن ترك الوزارة بعد اكتساح الوفد للانتخابات وإنتهاء مهمة الوزارة التى شكلت برياسة سرى لإجراء الانتخابات فأجاب الدكتور هاشم إجابة تنبئ بكل وضوح عن أنه كان يتمتع بقدر معقول من المواهب أتاح له الفوز بالوزارة، أو السبيل إلى الوزارة.

قال الدكتور محمد هاشم لمندوب مجلة «مسامرات الحبيب»:

«ولعل اغتباطى عند ترك الوزارة يعدل اغتباطى عند دخولى إياها، وقد يزيد، لأنى شعرت عند اشتراكى فى الوزارة بأنى مكلف بأداء خدمة عامة حرصت على إتمامها فى أحسن صورة ممكنة، فلما شعرت بالغبطة عند الخروج قد يزيد على شعورى بالغبطة عند الدخول أننى أعتقد أنى أرحت ضميرى».

وقد نشرت مسامرات الجيب» حديث مندوبها مع الدكتور هاشم (١٥ يناير ١٩٥٠) تحت عنوان: «اغتبطت لخروجى من الوزارة».

❑

بقيت طرفة أحب أن أذكرها فقد آثر الناسخ الذى تولى كتابة هذا الفصل أن يغير من اسم المجلة الأخيرة على نحو ما يراه هو لائقاً باسم المجلة، وقد سماها «مسامرات الجيب»، وعلى الرغم من تصحيحى للخطأ فى البروفة إلا أنه ظل على ظنه أن الاسم الذى اختاره أليق بالمجلة، وأظن أنه كان على صواب فى ظنه، وهو معذور إذا لم يدرك أنه كان هناك ما يسمى بكتاب الجيب وبروايات الجيب، وبمسامرات الجيب.. ما شأنه هو بهذا كله فى عصر لم يعد الجيب فيه مشغولا إلا بالنقود والمال.. ثم إن المسامرات فى البداية والنهاية مما يمت إلى الحبيب بصلة وثيقة، وصلة المسامرات بالحبيب أوثق من صلتها بالجيب، وهكذا فإن المنطق يقف فى صف «الخطأ» ولا يقف فى صف الصواب.

فى فلسفة المحسوبية والاستثناءات

من أهم وألطف وأطرف ما تقدمه لنا المذكرات السياسية تلك التفصيلات التى تتعلق بالمنازعات الشخصية التى تنشب بين الوزراء والكبراء بسبب عدم تحقيق البعض رغبات البعض الآخر، وبخاصة إذا ما كان الأمر متعلقاً بتوصية على وظيفة أو ترقية أو علاوة أو ما إلى ذلك كله من الأمور التى شاعت فيها المحسوبيات فى المجتمع المصرى.

وفى بعض الأحيان يبدو لنا من مطالعة بعض نصوصنا الأدبية أن المصريين هم أكثر الشعوب حساسية للمحسوبية، وضجراً بها، وذلك على الرغم مما استقر فى أذهاننا من أن القاعدة شبه المشهورة دوليا تنظر إلى المصريين على أنهم أصحابها، وأهلها، وصانعوها الأوائل.. ويبدو أن هذه السمعة ذائعة الصيت قد أثمرت نتيجة طبيعية هى هذه الحساسية الشديدة، التى تجعل الواحد منا لايكف عن التعبير فى كل زمان ومكان عن ضيقه وضجره بالمحسوبية المحلية، ولو عرف ما عند غيرنا لهان عليه أمر المحسوبية المصرية.

وقد لمست هذا المعنى وحدثنى فيه كثير من الذين اضطرتهم الظروف لقضاء بعض الحاجات المشروعة ـ بل المحبذة ـ فى خارج البلاد، فلم يكن أمامهم من سبيل إلا استشارة أصحابهم ومعارفهم من أهل البلد الغريب، فوجدوا التصريح بل الاعتراف بأن المحسوبية أحيانا ما تكون خير السبل وأسرعها وأقلها مئونة.

فيما قبل الثورة، كانت أبرز مجالات المحسوبية هى التعيين فى الوظائف والترقيات فيها، وكم عصفت الحكومات الحزبية بخصومها من كبار الموظفين، وكم رفعت من أنصارها وأتباعها لا لشىء إلا للانتماء الحزبى أو العصبى (نسبة إلى العصبيات).

ومن الواضح أن مثل هذه المحسوبيات تمثل صدى للولاء الحزبى من ناحية كما أنها تدل على التفكير فى ضرورة ولاء الأجهزة التنفيذية لفكر الإصلاح والتطوير المرتبط بتوجهات معينة، وهكذا فإن الإجراءات المنفذة لهذه المحسوبيات لم تكن تصدر فردية، وإنما كانت فى بعض الأحيان تصدر فى قوانين ومنشورات وقواعد (تتغير) وعلى مدى واسع، وكان الموظفون يتوقعون هذه التغيرات مع كل تغيير جوهرى فى انتماء الحكومات القائمة بالسلطة.

وليس هذا موضوع هذا الفصل وإنما نحن نكتفى بإلقاء الضوء على صورة أخرى من صور المحسوبيات فى الوظائف والدرجات كانت تستند فى جوهرها إلى علاقات القربى وتبادل المنفعة.

وسنرى من النصوص التى نقرؤها ما ينم بوضوح عن المجرى الذى تسلكه أمور الاستثناءات والمسحوبيات، وعن العلاج الذى يكون حاسما فى مثل هذه الأمور، وعن الحدود التى يقف عندها هذا العلاج تبعا لمقدرة الطبيب الذى يستعمله.

❑

تتضمن مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل باشا حديثاً عن واقعة مهمة قادته إلى رواية قصة حوار «عنيف» دار بينه وبين عبد العزيز فهمى فى أثناء اجتماع لمجلس الوزراء، ثم قصة حوارين هادئين ودودين (طويل وقصير) جريا بينه وبين زميله

حسين سرى باشا. وقد حدثت هذه الحوارات حين كان هذان الرجلان لا يزالان وزيرين وقبل أن يصبحا رئيسين لمجلس الشيوخ ولمجلس الوزراء.

وتدلنا هذه القصة على مدى ما كان يتمتع به عبد العزيز فهمى باشا من روح العدل والحق والقانون ووضوح الفكر وقوة المنطق، وكيف كانت أسلحته الفكرية هذه تمكنه من التصدى بقوة ووضوح فكرى لما يعرض أمامه من مسائل يظنها الآخرون - ومنهم هيكل باشا نفسه الذى هو الراوى - قابلة للمضى هكذا بدون أية قاعدة.

والحق أن هذه القصة تنبئنا عن بعض السر فى المكانة الرفيعة التى تبوأها عبد العزيز فهمى فى نفوس وعقول وقلوب معارضيه، فقد كانت مواقفه متوافقة مع ذهن قانونى صاف، وعقل حاضر، وحب متأصل للعدالة.

وليس هذا بمقلل من قيمة الدكتور هيكل الذى يستحق الثناء على أنه روى موقف مَنْ اختلف معه بهذه الثقة والأمانة، وأنه تقبل اعتراض عبد العزيز فهمى فى هدوء، وأنه لم يكابر ولم يلتف على الحقائق ولم يهمل ذكرها.

ونرى فى هذه القصة بحواراتها الثلاثة صورة تعبيرية بليغة ترسم لنا بكل وضوح «أصالة» و«عبقرية» وجود مبدأ الاستثناءات فى النظام الحكومى المصرى، ومن المهم أن نلتفت فيما سوف نقرؤه إلى أن الدكتور هيكل باشا وهو مَنْ هو يعترف (بطريقة لا واعية) بثلاثة أمور فى غاية الخطورة بالإضافة إلى ما اعترف به فى وضوح.

- وأول هذه الأمور أنه لم يعن بأن يبرز لنا أفكار سكرتير مجلس الوزراء الأستاذ محمد كامل سليم بك فيما يتعلق بالإصلاح الإدارى لهذه الجزئية.. وذلك لأنه نفسه لم يعن بدراسة جوهرها.
- وثانى هذه الأمور يؤكد أولها، فهو يعترف بكل وضوح أنه كان يعتقد أن أمور وزارة المعارف أولى باهتمامه من هذا الإصلاح الإدارى(!!)
- وثالث هذه الأمور هو أنه يعترف أن الأمر الذى قاد إلى كل هذه المناقشات والمواقف فرض نفسه عليه بمحض المصادفة ولم يكن له شأن به منذ البداية.

هكذا يحاول الدكتور هيكل أن يصور نفسه بريئا من الوظيفة ومن الموظفين، مع

أن هذه البراءة ليست فى نظرى بالشىء المستحب، وإنى لأصرح بكل وضوح بأننى لا أعتقد فى إمكانية أن ينجح أى وزير سياسى بالقدر الكافى ما لم يكن قد عمل فى فترة من حياته كموظف.

صحيح أن قصر الفترة التى يعمل فيها السياسى كموظف خير له وللسياسة من طولها، وأن مرجع هذا الخوف من طول الفترة هو زيادة احتمال تطبع السياسى بروح البيروقراطى الصغير، لكن لابد مع هذا من توافر قدر ما من التجربة الوظيفية البيروقراطية الحقيقية أو خلفياتها للسياسى إذا ما أراد النجاح.

ولنقرأ القصة التى يقدمها الدكتور هيكل:

«كان أحد الموظفين بمكتبى فى وزارة الانتخابات (أى وزارة محمد محمود باشا الثانية التى أجرت انتخابات ١٩٣٨) فى الدرجة السادسة، ولم أكن أعرفه معرفة شخصية، بل اقترح علىّ رجل له مكانته عندى أن أنقله إلى مكتبى فأخذت باقتراحه، فلما انقضى على وجوده مديراً لمكتبى شهر وبعض الشهر طلب إلىّ مَنْ اقترح نقله أن أطلب ترقيته إلى الدرجة الخامسة، فهى الدرجة المقررة لمن يشغل مثل وظيفته، ووضعت مذكرة بذلك أرسلتها إلى اللجنة المالية فأقرتها، وأحيلت المذكرة إلى مجلس الوزراء وعرضت عليه، ولم يكن لرئيس الوزراء اعتراض عليها، لكن عبد العزيز فهمى باشا لم يلبث حين عرضت أن طلب رفضها فى إلحاح قائلا: لقد كان فى مقدور هيكل باشا أن يختار موظفاً فى الدرجة الخامسة، وألا يختار موظفاً فى الدرجة السادسة يطلب ترقيته إلى الخامسة ترقية استثنائية... ولم ألح أنا فى الدفاع عن مذكرتى».

....

ونأتى إلى الوجه الآخر من القضية حين يدور حوار مع وزير كان معروفا هو وأهله (على نحو ما ذكرنا فى فصل آخر من هذا الكتاب) بأنهم من الذين يجيدون إيثار ذوى القربى.

«وجاء ذكر هذه المسألة بعد زمن فى حديث جرى بيلى وبين حسين سرى باشا وزير الأشغال فقال: «لقد أشفقت عليك حين اعترض عبد العزيز باشا بالشدة التى اعترض بها، لأننى اعتقدت أن بينك وبين هذا الموظف صلة قرابة» ، قلت: «وما قولك فى أننى لم أكن أعرفه يوم عينته مديراً لمكتبى، وأنه من الوجه القبلى وأنا من الوجه البحرى؟» ، فابتسم وقال: «وعلى هذا النحو تقع معظم الاستثناءات، يقرها الوزير ثم مجلس الوزراء إجابة لرجاء عضو فى البرلمان أو عين من الأعيان أو صديق ذى مكانة، لا علم لديهم بكفاية الموظف ولا بمؤهلاته، ويقع ذلك حياء من الوزير أن يرفض هذا الرجاء، وحياء من المجلس أن يرفض مذكرة الوزير. ولو أن من الوزراء مَنْ يستطيع أن يقف موقف عبد العزيز باشا من مذكرتك لما حدث من الاستثناءات ما حدث، ولما أثارت هذه الاستثناءات من الضجة ما أثارت، ولما تعرضت أداة الحكم للفساد الذى تعرضت له فى عهد الوفد [ربما جاز لنا أن نتحفظ على مثل هذا الاستطراد المشوب بالعداوة للوفد من اثنين من أعدائه] بارتقاء غير ذى الكفاية إلى المناصب التى يجب أن تبقى وقفاً على الكُفاة دون سواهم» .

❑

وهنا يعلق الدكتور هيكل باشا على تشخيص زميله حسين سرى وتوصيفه بما يؤكد قبوله لهذا المنطق، مع إقراره فى ذات الوقت بقوة بعض الظروف الداعية إلى الاستثناء.

«كذلك قال سرى باشا، وقوله حق لاريب، ولو أنه اتبع بدقة لسارت الأمور سيرة عدل تنتفى معه كل شكوى. لكن أمورا تطرأ أحيانا فلا يجرؤ الحاكمون فى مصر على مجابهتها، فعلى الرغم من قرار مجلس الوزراء وقف الترقيات كلها منذ وزارة الانتخابات، عُرضت على المجلس يوما ترقية عمر بك فتحى ياور جلالة الملك، ودار بخاطرى أن أعترض بقرار وقف الترقيات، فإذا سرى باشا نفسه يغمزنى قائلا: اسكت.. هذا ياور الملك!» .

«ولم يعترض أحد من الوزراء على الترقية، وتكرر بعد ذلك ترقية عمر بك فتحى ترقية استثنائية، وأوجبت مجاملة صاحب العرش أن يتخطى مجلس الوزراء قراره بوقف الترقيات».

ونأتى إلى الفقرة الأخرى التى يتحدث فيها هيكل عن جهله بقوانين الموظفين، وعدم سعيه إلى معرفة هذه القوانين أو تدارك هذا النقص فى معرفته ومعلوماته:

«... وجرت الأمور فى مجلس الوزراء من بعد ذلك مجرى عاديا بحتا، فكان جدول أعمال المجلس يبلغ إلى الوزراء قبل اجتماع المجلس بيومين أو بأربع وعشرين ساعة محتوياً على ستين أو سبعين مسألة قل منها ما يقف النظر، وأكثرها يتعلق بتسوية حال موظف أو معاش ورثة موظف أو تأجير قطعة أرض مملوكة للحكومة بإيجار اسمى، أو ما يشبه ذلك من شئون لم أكن أتوقع أن تكون الشاغل الأهم لمجلس الوزراء، ولم تكن لى بمعالجة هذه الشئون دراية خاصة لأنها تتصل بالقانون المالى أو بقانون المعاشات مما يحفظه الموظفون عن ظهر قلب، ولا أعرف أنا منه إلا القليل، لأننى لم أكن موظفاً فى يوم من الأيام، ولم يدر بخاطرى أن أدرس هذه القوانين، لأننى وجدت فى شئون وزارة المعارف وما تقتضيه من إصلاح ما يشغلنى عن مثل هذه الدراسة. بل لقد وددت لو أن هذه المذكرات التى كانت تبعث اللجنة المالية بها إلى المجلس استبعدت من اختصاصه، ووضعت لها قواعد ثابتة تطبق عليها، فلا تضيع وقت المجلس يوماً كاملاً من أيام الأسبوع فى غير جدوى».

«ولم أكن أنا الوحيد الذى شعر بهذا الشعور، بل لقد شعر بمثله غير واحد من زملائى الوزراء، وشعر به الأستاذ محمد كامل سليم بك سكرتير عام مجلس الوزراء، وأفضى بشعوره هذا إلى رئيس الوزارة، فعرض محمد باشا علينا الأمر، فكلف المجلس كامل بك أن يضع مذكرة برأيه فى الموضوع، وقد وضع الرجل فيه مذكرة قيمة، لكنها أجلت، ثم أجلت، ثم نامت فى أضابير المجلس نوماً عميقاً لا يزال متصلا إلى اليوم».

❑

ومن المهم أن نتأمل فى «آلية» تنفيذ المحسوبيات على مستوى تال للوزراء وهو مستوى كبار الموظفين (كوكلاء الوزارات أو أمناء الجامعة) الذين يكون عليهم أن يدبروا الأمور بطريقة كفيلة بارضاء ذوى الأمر من ناحية، وبالحفاظ على الشكل العام والوضع القانونى من ناحية أخرى، وفى هذا الصدد فإنى أحب أن ألخص للقارىء ما رواه وكيل وزارة المعارف الشهير الدكتور أحمد عبدالسلام الكردانى عن واقعتين أو قصتين فى هذا المجال وقد دارت وقائعها بين ثلاثة من كبار رجال التعليم والمعارف (على باشا إبراهيم، ومحمد حسن العشماوى باشا، وأحمد عبد السلام الكردانى بك)، وهى توضح لنا كيف يمكن أن يتصرف الرجل الثانى بحيث يرضى ضميره ويرضى الرجل الأول معا، فإذا نجح فى ذلك نال التقدير، وإذ فشل كان ذلك نواة الخصومة بينه وبين الوزير (لم يصرح الأستاذ الكردانى بأنه العشماوى باشا) حتى إذا عاد هذا الوزير إلى الوزارة وكان الكردانى بك يومها قد صار وكيل وزارة المعارف أوقفه عن العمل واضطره إلى أن يترك منصبه كوكيل للوزارة إلى وزارة أخرى على نحو ماذكرنا القصة كاملة فى كتابنا «تكوين العقل العربى: مذكرات المفكرين والتربويين».

يحدثنا الكردانى فى كتابه «حقبة من الزمان» الذى نُشر فى سلسلة كتاب الهلال (نوفمبر ١٩٨٠) فيقول:

«كانت إحدى الوزارات على وشك الاستقالة واتصل بى أحد وزرائها لآخذ مدير مكتبه وشقيق زوجته عندى بالجامعة، فرحبت ووضعته وكيلا لأكبر إدارة، وبعد مضى وقت قصير اتصل بى الوزير طالبا ترقية هذا الشخص فى حركة ترقيات كنا نزمع إجراءها، ولما فحصت حالته وجدت بالجامعة مَنْ هم أقدم منه فى الخدمة وفى الدرجة ولا غبار عليهم، فاعتذرت وذكرت السبب واستشهدت بحادث مماثل مع مدير الجامعة نفسه، ولكن الوزير لم يقتنع وامتعض وأسرها فى نفسه».

كان الأستاذ الكردانى فى ذلك الوقت هو أمين عامة جامعة القاهرة.. وهو يكمل لنا القصة فيقول:

«أما الحادث الذى ذكرته له فهو أن على باشا إبراهيم كان قد دخل علىّ يوما

بمكتبى، وقال: «جئت لأطلب منك طلبا»، فقلت: أستغفر الله فأنت مدير الجامعة ولك أن تأمر بما تشاء، فقال: إن الذى سأتحدث بشأنه من موظفى الإدارة، وليس من الأساتذة، وهو «على حسنى» معاون الجامعة، وقد خبرته حين كنت عميداً لكلية الطب ونقلته معى إلى الجامعة لاعتقادى فى كفاءته وأمانته، وهو الآن مستحق للدرجة الثالثة، فهل عندك مانع من ترقيته، فقلت: سأفحص حالته، ولما طلبت كشفا بأقدمية المستحقين للدرجة الثالثة، وبيانا بالدرجات الخالية منها، أحضر لى الكشف وقيل لى إنه توجد درجة ثالثة واحدة خالية، وإن المدير (أى مدير الجامعة) يعلم ذلك، ولما فحصت المستحقين وجدت شخصا ليس بأقل استحقاقا لهذه الدرجة من على حسنى، فاستدعيت مدير المستخدمين وقلت له: لابد من درجة أخرى ثالثة لأنى فى حاجة شديدة إليها، فجاءنى بعد يومين يقول وجدت واحدة خالية فى كلية الآداب، وعميدها صديقك الدكتور أحمد أمين، فيمكنك استعارتها منه على أن نردها إليه حين تأتى الميزانية الجديدة، وكان على باشا إبراهيم يسألنى من آن لآخر عما تم فى طلبه فأستمهله، ثم ذهبت إلى أحمد أمين وشرحت له الموضوع فوافق على إعارتى الدرجة، فشكرته، ثم أعددت مذكرة بترقية الاثنين، ولما قدمتها إلى على باشا لاعتمادها ابتدرنى بالسؤال: من أين جئت بالثانية؟ فأجبته حرصت على أن يأتيك الشخص الثانى شاكرا لا شاكيا من تخطيه بغير وجه حق، ثم قصصت عليه استعارتها من أحمد أمين فسر بذلك وقال: «لقد كبرت فى عينى فوق ما كنت من قبل، جزاك الله خيرا»، وكنت قصصت هذه القصة على الوزير الذى طلب الترقية لمدير مكتبه فلم يأبه بها، ولكنى آثرت أن مضى فى عملى مراقبا لضميرى مهما كلفنى ذلك من غبار.

ومضى الأستاذ الكردانى فى مراقبة ضميره حتى صار وكيلا لوزارة المعارف ثم جاء الوزير السابق وزيرا للمعارف وكان ما كان!

الدكتور هيكل يتعجب من مبدأ الميزانية لا تسمح

هذه هى العبارة التى يظن جمهورنا أن السياسيين والوزراء يعتذرون بها عما لا يريدون تنفيذه من مشروعات، فإذا أحسن الجمهور الظن بالمسئولين الذين أدلوا بمثل هذه العبارة صراحة أو كناية، فإنهم يتلمسون الأعذار لهؤلاء الوزراء مستندين إلى ما يظنون أنفسهم يعلمونه من أمر عجز الميزانية أو عجز موارد الدولة التى أصابها قدر أو أقدار من التقلص أو الانكماش.

وفى أدبنا السياسى المعاصر رؤية جميلة لمعاناة أحد أبرز الوزراء فى عصر الليبرالية عن فكرة «أن الميزانية لا تسمح»، وربما جاءت معاناة هذا الوزير المبرز من جانبين مختلفين قد يبدوان متعارضين لكنهما تكاملا وتكاتفا عليه حتى جعلاه يقف مندهشاً من الوضع «المصرى»، وربما لو أن هذا الوزير بُعث إلى الحياة اليوم لعجب من هذا الوضع الذى شخصه والذى لا يزال قائما حتى يومنا هذا.

فأما الجانب الأول فهو أن هذا الوزير كان حقوقيا، وأنه سافر للدراسة فى الخارج ونال شهادته العلمية وهى الدكتوراه فى علم الاقتصاد السياسى فى مرحلة مبكرة جداً، بل إن رسالته هذه كانت تتعلق بالدين المصرى العام أى كانت فى صميم الارتباط بالموازنة والميزانية .

وأما الجانب الثانى فهو أنه لم يعمل فى حياته موظفاً حكومياً حتى أصبح وزيراً،وقد أرجعت ـ فى موضع آخر ـ إلى هذه السمة من سمات حياته السبب فى بعض متاعبه مع البيروقراطية المصرية، لأنه لم يكن على دراية سابقة بطبيعة سير الأمور ودهاليزها ومدى سطوة الموظف الصغير ومدى نفوذ الموظف الكبير ومدى قدرة جموع الموظفين على شل حركة الإصلاح التى يود أى وزير أن ينتهجها.

❑

وهذا النص البديع الذى يصور به الدكتور محمد حسين هيكل مشكلته مع هذه القضية قد يرينا ـ من ناحية أخرى ـ كيف يمكن لنا أن نتغلب على هذا الداء القديم.

فلنقرأ ما يرويه الدكتور هيكل فى مقدمة الجزء الثانى من مذكراته وهو يحاول تلخيص مشكلاته فى المناصب الوزارية التى تولاها مستعرضاً هذه المشكلات حتى يصل إلى هذه النقطة التى نتحدث عنها فيقول:

« ... إلى جانب هذه الاعتبارات جميعاً تقوم ملابسات السياسة العامة للدولة. والمال عنصر مهم جدا من عناصر هذه السياسة العامة. وقد كنت قبل أن أتولى الوزارة أسمع من أجوبة بعض الوزراء ـ عن اقتراحات أعضاء البرلمان القيام بعمل خاص ـ أن الوزارة ستقوم به متى سمحت ميزانية الدولة، فكنت أعجب لمثل هذه الإجابة، ذلك بأن المبادئ الثابتة للعلوم المالية تنكر كلها مثل هذا القول. فميزانية الدولة يجب أن تحدد الأعمال التى تقتضيها المصلحة العامة قبل أن تحدد الإيرادات،

ويجب عليها بعد ذلك أن تلتمس الوسيلة لتحصيل الأموال اللازمة للقيام بهذه الأعمال العامة، سواء حصلت هذه الأموال من الضرائب المباشرة أو غير المباشرة، أو حصلتها من قروض داخلية أو خارجية. فأما الإقرار بأن المصلحة العامة توجب القيام بعمل ما، ثم لا تقوم به الحكومة لأن أبواب الميزانية لا تسمح به، فذلك ما لا يتفق مع تلك المبادئ، ولا يتفق على ما يجب على كل حكومة أن تقوم به لمصلحة الوطن».

«ولكنى لم ألبث، حين وليت الوزارة، أن صدمنى ما لوزير المالية على سائر الوزراء من سلطان يطبعه حظ غير قليل من التحكم، وأعجب الأمر أن أقرت التقاليد هذا السلطان فخضع له الوزراء راضين أو كارهين، وحرص بعضهم على أن يوثق صلة الود بينه وبين وزير المالية ليكفل له هذ الود تنفيذ ما يريد فى وزارته. وقد حاولت أن أتخلص من هذا الوضع بتصوير ما أحاول من إصلاح فى حدود الميزانية تفادياً من الاحتكاك بإشراف وزارة المالية، فبلغت حظاً من النجاح فى بعض الأحيان، على أننى رأيت فى أحيان أخرى ألا مفر من اعتمادات جديدة أواجه بها الإصلاح الذى أقصد إلى تنفيذه، فلجأت إلى مجلس الوزراء مباشرة أقنعه بضرورة هذا الإصلاح، فاعترض وزير المالية بأن الأمر يجب أن يعرض على اللجنة المالية قبل عرضه على مجلس الوزراء، وقد أعلنت ثورتى على هذا الوضع محتجاً بما قرره أساتذة العلوم المالية من قواعد ومبادئ، فذهبت ثورتى عبثاً، وإن أعلن مجلس الوزراء العطف عليها، لأن التقاليد التى جرى عليها العمل ورضيها الوزراء فى الوزارات المختلفة خلال عشرات السنين أقرت هذا الوضع الذى ثرت عليه، فليس من اليسير العدول عنه أو تعديله إلا بتغيير ما يسمونه النظام المالى للحكومة المصرية».

❑

ويضيف الدكتور هيكل بعد هذا بعض ما لمسه من أبعاد أخرى لهذا الموضوع، وهو يدلنا على المظاهر الأولى للصراع الأزلى بين الوزارات المصرية ومَنْ يتولون أمرها فيقول:

«والطريف فى هذا الأمر ما يقع بين وزارة المالية وغيرها من سائر الوزارات حين تحضير الميزانية. فكل وزارة تعد ميزانيتها للعام المالى الجديد تنفيذاً لسياستها وتبعث بها إلى وزارة المالية لتتناولها لجنة الميزانية فيها فتحذف منها ما تشاء وتبقى منها ما تشاء من غير أن تلجأ أغلب الأمر إلى الوزارة المختصة، أو تسألها رأيها فيما تبقى وما تحذف، ولوكلاء الوزارات فى هذا الصدد دور مهم إذا أرادوا العناية بميزانية وزارتهم. أما الوزراء فقلما يتصلون بوزارة المالية لهذا الشأن، إيثاراً منهم لمناقشة المشروع فى مجلس الوزراء حين يعرض عليه، وهناك فى جلسة المجلس تمر الميزانية مر الريح، فإذا تشبث وزير بأمر، طلب إليه فى أغلب الأمر أن يتفاهم عليه مع وزير المالية».

❑

ويجيد الدكتور هيكل تشخيص الجذور التاريخية لسيادة هذا المفهوم وسيطرته من ناحية وجذوره من ناحية أخرى فيقول:

«وتحكم الميزانية ووزير المالية فى تصرفات الوزراء ليس وليد عهد الاستقلال والسيادة، بل هو بعض مخلفات الماضى السابق على هذا العهد، حين لم يكن لمصر من الحرية فى فرض الضرائب ما يكفل لميزانيتها المرونة الكافية لمواجهة مطالب الدولة. فقد كانت الامتيازات الأجنبية تأبى على الحكومة المصرية أن تفرض على الأجانب المقيمين فيها ضرائب أيا كانت من غير موافقة الدول التى ينتمون إليها، وكانت هذه الدول أربع عشرة دولة، وكانت معارضة دولة واحدة منها كافية لتغل يد الحكومة عن فرض أية ضريبة وإن كانت عادلة، ولم يكن طبيعياً ولا مقبولاً أن تفرض على المصريين ضرائب لا يدفع الأجانب مثلها، لذلك كانت الميزانية المصرية خاضعة لقيود تجعل وزير المالية مسئولاً عن عدم تجاوز المصروفات ما يستطيع جبايته من الإيرادات».

«وقد استمر هذا الإشراف لوزير المالية بعد إلغاء الامتيازات واسترداد مصر حريتها فى فرض الضرائب، بحكم الاندفاع الذاتى».

«وما كان لوزير أن يعتذر بالميزانية لولا ذلك الميراث، وليس معنى هذا ألا يتقيد الوزير بالميزانية، كلا، فهذا التقيد بعض ما يفرضه عليه الدستور، وإنما معناه أن الميزانية يجب أن تدرس دراسة جدية أساسها مواجهة الحاجات الحقيقية للدولة وتدبير المال اللازم لها، وعدم إنفاق المال فيما وراء هذه الحاجات الحقيقية. فأما الطريقة المتبعة فى مصر، طريقة موازنة الميزانية ولو على حساب الضروريات الأساسية، والإسراف فى بعض النواحى لاعتبارات لا صلة لها بالحاجات الحقيقية للدولة، فذلك ما يغرى بإهمال هذه الحاجات الحقيقية، كما يغرى بالسفه الذى لا يمكن قبوله فى حكومة تقدر مسئوليتها تقديراً صحيحاً».

....

«للمال ولأحكام الميزانية أثر كبير فى تصرفات الوزير، ولاعتبارات السياسة العامة أثر كبير فى تصرفاته كذلك. فقد تقتضى هذه السياسة العامة إرجاء مسائل مهمة تقديماً لغيرها عليها، أو تفادياً لأزمة قد تثور وتعرض مركز الوزارة كلها للقلق».

5

أدباؤنا واليأس من الإنصاف

- أحمد زكى أبو شادى بين الزركلى وبدوى طبانة
- هل انتهى سلامة موسى إلى العدمية؟
- عندما تحدى الدكتور زكى مبارك المجمع اللغوى!

أحمد زكى أبو شادى

بين الزركلى وبدوى طبانة

لم أر الأستاذ خيرالدين الزركلى متحاملاً على أحد ممن ترجم لهم فى كتابه العظيم «الأعلام» على نحو ما رأيته فى ترجمته للدكتور أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) وقد ختم هذه الترجمة بقوله:

«وما من حاجة إلى القول بأنه لو اتجه بذكائه وعلمه ونشاطه العجيب اتجاها واحدا لنبغ».

هكذا قال الأستاذ خير الدين الزركلى مع أن أحمد زكى أبو شادى كان نابغاً بالفعل فى أكثر من مجال، ولعل ترجمة الزركلى له من أهم الأدلة على نبوغه المتعدد فى كثير من النواحى.

ومن الإنصاف أن ننقل هذه الترجمة على نحو ما أوردها خير الدين الزركلى فهو صاحب الفضل فيها، وإن كان بوسعنا أن نصحح الجزئية الخاصة بأنه كان وكيلا لكلية الطب فنجعلها فى جامعة الإسكندرية لا فى جامعة القاهرة، وقد كان أبو شادى أول أساتذة البكتريولوجى فى هذه الجامعة على نحو ما حدثنى ثالث هؤلاء الأساتذة وهو الدكتور حسين مظلوم.

وهذه هى ترجمة الزركلى لأحمد زكى أبو شادى.

«طبيب جراثيمى، أديب، نحال، له نظم كثير. ولد بالقاهرة. وتعلم بها وبجامعة لندن. وعمل فى وزارة الصحة، بمصر، متنقلا بين معاملها «البكتريولوجية» الجراثيمية. إلى أن كان وكيلا لكلية الطب بجامعة القاهرة. وكان هواه موزعا بين أغراض مختلفة لا تلاؤم بينها: أراد ان يكون شاعرا، فأخرج فيضا من دواوين مزخرفة أنفق على طبعها ما خلفه له أبوه من ثروة وما جناه هو من كسب. ومن أسماء المطبوع منها: «الشفق الباكى» و«أطياف الربيع» و«أنين ورنين» و«أنداء الفجر» و«أغانى أبى شادى» و«مصريات» و«شعر الوجدان» و«أشعة وظلال» و«فوق العباب» و«الينبوع» و«الشعلة» و«الكائن الثانى» و«عودة الراعى» وآخرها «من السماء» طبعه فى أميركا. ونظم قصصا تمثيلية، منها «الآلهة» و«أردشير» و«إحسان» و«عبده بك» و«الزباء» وكلها مطبوعة. وأنشأ لنشر منظوماته، مجلتين، سمى إحداهما «أدبى» والثانية «أبولو» (١٩٣٢) بالقاهرة ثلاث سنوات. وأراد أن يكون «نحّالا» ومربياً للدجاج. فألف جماعة علمية سماها «جماعة النحالة» وأصدر لها مجلة «مملكة النحل» وصنف «مملكة العذارى» فى النحل وتربيته - [طبع]، و«أوليات النحالة - [طبع]»، كما أنشأ مجلة «الدجاج» وصنف «مملكة الدجاج - [طبع]» وأصدر مجلة «الصناعات الزراعية» وانصرف إلى ناحية أخرى، فترجم بعض الكتب عن الإنكليزية. وصنف كتاب «الطبيب والمعمل - ط» فى مجلد ضخم، وهو اختصاصه الأول، و«قطرة من يراع فى الأدب والاجتماع - ط» جزآن، وهو باكورة مصنفاته. و«شعراء العرب

المعاصرون - ط، نشر بعد وفاته. وضاقت به مصر، فهاجر إلى نيويورك (سنة ١٩٤٦) وكتب في بعض صحفها العربية، وعمل في التجارة وفي الإذاعة من «صوت أميركا» وألف في نيويورك جماعة أدبية».

وبعد هذا كله ختم الزركلي ترجمته بالعبارة التي نقلناها عنه.

ولأن التاريخ لا يكتب من وجهة نظر واحدة، ولأن الحياة نفسها تتيح للتاريخ أن تكون فيه وجهات نظر فقد كان من حسن حظ أحمد زكي أبو شادي أن ترجم له أستاذ الأدب العربي في دار العلوم الأستاذ بدوي طبانة في كتابه كوكبة من شعراء العصر، وقد أفاض في الحديث عن مزاياه ومناقبه وفضله على نحو ما اكتشفها بنفسه، ننقل للقارئ هنا بعض ما كتبه الأستاذ طبانة في هذا الصدد:

«لم أكن أعرف الدكتور أحمد زكي أبو شادي قبل أن يحمل إليّ البريد نسخة من ديوانه الذي سماه «أشعة وظلال» وأنا إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمري في أخريات مرحلة دراستي الثانوية، وقد كتب أبو شادي بقلمه في أعلى الصفحة الأولى من الديوان عبارة وإهداء رقيقة، وقعت من نفسي أجمل موقع. ولم يحل بيني وبين سروري البالغ بهذه الهدية النفيسة، وهذا الإهداء الجميل، سوى السؤال الذي كان يلح عليّ عن السر الكامن وراء هذه التحية التي لم يكن يتوقعها مثلي من شاعر كبير في فنه، وفي اسمه الذي يتردد في البيئات الأدبية، ويزاحم أسماء المعروفين من كبار الأدباء والشعراء».

«لقد عرفني الرجل عن طريق كلمات قليلة وقصائد معدودة كتبتها في مطلع حياتي الأدبية، واتسعت لها صفحات «الأهرام» و«البلاغ» ومجلة «النهضة الفكرية» التي كان يصدرها المرحوم الدكتور محمد غلاب. ولعل أبا شادي رأى في شيء مما قرأه لي ما يقربني إليه، أو يجعلني أهلاً لتقديره أو تشجيعه. وكان أبو شادي يعشق الأدب ويحب الأدباء، ويعمل على أن يعرفهم بنفسه، وأن يصلهم بحبال مودته وأدبه».

«وقد عددت ذلك الإهداء بمثابة دعوة لى للاتصال بأبى شادى والتعرّف عليه، وكان علىّ أن أتقبل هذه الدعوة من مثله، وأن أستجيب لها. ويممت وجهى شطر المكان الذى عرفت أن أبا شادى يستقبل فيه زواره من الأدباء والشعراء والعلماء».

«شقة متواضعة تتكون من غرفتين، اتخذ أبو شادى الصغيرة منهما مكتبا له، يجلس إليه، ويستقبل فيه ضيوفه، وأثاثها غاية في البساطة: أريكة قديمة، وعدد من الكراسى الخشبية. أما الغرفة الكبيرة فإن الداخل إليها يهبط درجات، لتكون ما يسمى «البدروم» وفيه صفت صناديق الحروف، ووقف أمامها عمال الجمع والتصحيح، وآلة الطباعة أيضاً».

«وكانت هذه المطبعة بحروفها وآلاتها وعمالها تحتل تلك الغرفة وحدها. وقد سماها أبو شادى «مطبعة التعاون». وكان الداخل إليها والخارج منها لابد أن يمر بتلك الغرفة التى يجلس فيها أبو شادى وزواره من أهل العلم والأدب فى مصر، ومّمن يفدون عليها من أدباء البلاد العربية وغيرها».

«كان أبو شادى يجلس على مكتبه فى الغرفة الصغيرة يراقب مطبعته، ويصحح بنفسه تجارب طباعة مجلة «أبوللو» وغيرها من المجلات والدواوين التى كانت تصدر عن «مطبعة التعاون». وذلك فى جميع الأوقات التى يخلو فيها من عمله الرسمى بوزارة الزراعة حيث كان يعمل طبيبا «بكتريولوجيا» فقد كان يخرج من عمله ليسرع إلى مكتبه فى مطبعة التعاون، ويظل فيه حتى العشاء ، فيركب الترام إلى محطة القاهرة ومنها يركب القطار إلى بيته فى ضاحية المطرية حيث يقيم مع زوجته الإنجليزية وطفلتيه: صفية وهدى اللتين تعيشان الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية».

....

«ولم أعجب من حياة إنسان كما عجبت من حياة هذا الرجل. لقد كان أحمد زكى أبو شادى يشغل الدرجة الأولى بين كبار موظفى الدولة، وكان يتقاضى عن عمله الرسمى ثمانين جنيها بصفة شهرية».

«ولا وجه للموازنة بين قيمة هذه الوظيفة فى ذلك الوقت، وقيمتها الآن».

....

«هذا المبلغ الكبير كان ينفقه أبو شادى على هوايته الصحفية، وعلى مجلة «أپوللو» التى وصفها بأنها «مجلة فنية لخدمة الشعر الحى» وقد سبقت زمنها بكثير، ورأى فيها الناس أول مجلة ناضجة متخصصة فى الشعر العربى منذ أول عدد ظهر منها. ولم يظهر بعدها فى أى بلد عربى مجلة استطاعت أن تملأ الفراغ الذى أحدثه احتجاب «أپوللو». وكان يدفع من هذا المبلغ تكاليف الورق، وأجرة الطباعة، ويعين منه من يرى أنه فى حاجة إلى العون من الشعراء والكتاب، ولا يبقى معه مما يتقاضاه إلا أقل القليل».

❑

ويفيض الدكتور بدوى طبانة فى الحديث عن مناقب أبى شادى الخلقية فيقول:

«وقد منّ الله على أبى شادى بفضائل نفسية عرفها كل مَنْ اتصل به. وفى مقدمتها فضيلة التواضع التى هى فى مقدمة سمات العلماء والمفكرين. وأبو شادى عالم وباحث، وفاحص عن أدق الكائنات الحية، لم يكتف بدرجة البكالوريوس التى حصل عليها فى مهنة الطب من جامعات إنجلترا، بل إنه واصل دراسته فى علم البكتريا والجراثيم، حتى أصبح من كبار المختصين بهذا البحث الدقيق، وواحداً من القلة المتعمقة فيه فى بلادنا».

«كما رزقه الله طاقة هائلة على الصبر وقوة الاحتمال، وإحساساً بمن حوله من أهل صناعة الأدب، وحبا للبذل والعطاء. رأيته مرات عقب عودته من عمله إلى المطبعة، يحضر له صبى من صبيان المطبعة غداءه الذى يقتصر فيه على رغيف من الخبز وحبات من الزيتون الأسود لا يتجاوز ثمنها خمسة عشر مليما. وكنت أعرفه دمث للخلق، رضى النفس، يفترّ ثغره دائما عن بسمة الرضا والأمل، ورأيته مرة واجمًا حزيناً، ثم عرفت أن سر كآبته ووجومه أنه لم يجد ما يشترى به لطفلتيه حذاءين

يلبسانهما فى العيد. صورة فريدة من صور الإيثار فى هذا الرجل الذى بدد رزقه فى شراء الورق والحروف وأجور عمال المطبعة، وفى معونة الأدباء الذين يراهم فى حاجة إلى عونه. وأنا أعرف عدداً منهم لمعت أسماؤهم وتصدروا الحياة الأدبية بمعونة أبى شادى المادية وتشجيعه الأدبى».

❑

وينفرد الدكتور بدوى طبانة بالقاء الضوء على المتاعب السياسية التى صادفها أحمد زكى أبو شادى بسبب عدم قدرته لا على التنبؤ السياسى ولا على الانتماء الحزبى المجدى.

«ولم يكن أبو شادى ينتمى إلى حزب من الأحزاب، ولم يكن له سند من الحاكمين».

ويستطرد الدكتور بدوى ليصحح فى سرعة ما شاع عن علاقات أبى شادى السياسية فيقول:

«حقا إن أبا شادى مدح صدقى باشا رئيس الوزراء، واضطر إلى زيارة محمد حلمى عيسى باشا وزير المعارف فى وزارته بصحبة الشاعر خليل مطران، الذى أسند إليه أبو شادى رياسة جمعية أبولو عقب وفاة أول رئيس لها، وهو الشاعر أحمد شوقى، ومع الشاعر أحمد محرم الذى كان وكيلا لها إذ ذاك، ونفر من الأدباء والشعراء منهم الدكتور زكى مبارك. ولكن هذه الزيارة تمت تحت ضغط الحاجة إلى عون الحكومة للجمعية ولمجلتها، عن طريق اشتراك وزارة المعارف فى شراء أعداد منها لمدارسها الحكومية».

«وقد أثارت تلك الزيارة حفيظة الأحزاب السياسية التى كانت تعارض حكومة صدقى وحكمه الاستبدادى . واتخذ كتاب الصحف الحزبية من هذه الزيارة سبباً لحملات عنيفة على أبى شادى وجمعيته ومجلته. وتناولت هذه الحملات أدب أبى شادى، ولم يسلم منها شخصه، ولا كبار الشعراء الذين اتخذوا من «أبوللو» منبراً

لأشعارهم. وفى طليعة هؤلاء المهاجمين الدكتور طه حسين الذى استقطبه «حزب الوفد» فصار أكبر كتابه، بعد أن عاش زمنا فى أحضان حزب «الأحرار الدستوريين» وصحيفتهم «السياسة». ومنهم العقاد الذى كان كاتب الوفد الأول، وسيد قطب صديق العقاد الحميم».

❑

ويعتقد الدكتور بدوى طبانة أن هناك من الأسباب الأدبية الحقيقية مما أدى إلى تزايد وتضاعف هذا الهجوم على أحمد زكى أبى شادى بهذه الكثافة المنقطعة النظير، وهو يقدم أسباباً وجيهة على عادة مؤرخى الأدب المتمكنين من التحليل النفسى والتاريخى، وهو يقول:

«برز أبو شادى فى خضم الحياة الأدبية فجأة بروزاً قويا، يحمل علم التجديد؛ ويتزعم مدرسة أدبية، تضم شمل الشعراء المتفرقين فى ديارهم، المتباينين فى اتجاهاتهم الشعرية، وفى قدراتهم الإبداعية، وتستقطب الشبان الموهوبين فى أطراف العالم العربى، وفيما وراء البحار، وتضمهم فى وحدة عاملة متفاعلة تتطلع إلى السيادة فى دولة الشعر العربى، وتحاول أن تضع نفسها فى موضع الريادة لحركات هذا الشعر».

«ثم كان أبو شادى صاحب أول مجلة محترمة دورية تخصصت فى الشعر ودراسته ونقده، يصدرها فى أول كل شهر فى إطار منتظم، وفى تنسيق بديع».

❑

وسرعان ما ينتقل الدكتور بدوى طبانة إلى تقرير ما يعتقد فيه مما ليس غريبا عن حركة الأدب وتاريخه فى كل العصور:

«ولعل هذا كان السرّ فى تلك الحملات التى كانت تهدف إلى تحطيم هذا الصرح الجديد على من فيه، بدافع المنافسة، أو دافع الحسد. كان كبار كتّاب مصر وأدبائها فى تلك الفترة، التى صحبت بزوغ نجم أبى شادى وجماعته، من أمثال : طه حسين

والعقاد والمازنى والرافعى وزكى مبارك أشبه بالموظفين فى صحف الأحزاب، يتقاضون مرتباتهم الشهرية أو أجور مقالاتهم من أصحاب تلك الصحف. وقد يختلف أحدهم مع صاحب الصحيفة أو مع رئيس تحريرها حول المكافأة التى يتقاضاها، أو إذا ما أراد المشرف على سياسته الصحيفة أن يوجهه إلى الكتابة فى رأى لا يرضاه. ذلك فى الوقت الذى كان فيه أبو شادى سيد نفسه، ومالك قلمه، يكتب ما شاء، ويفكر كما يشاء، وينشر فى «أپوللو» ما يرضاه، ويطرح ما عداه، ويعطى الأدباء والشعراء، ولا يأخذ من أحد شيئا».

....

«كانت هذه الأسباب متفرقة ومجتمعة كفيلة بإثارة دخائل النفوس وتحريكها لِصدّ هذا الركب الزاحف بقيادة أبو شادى، وتعويق مسيرته عن بلوغ أهدافها».

❑

ويقيم الدكتور بدوى طبانة فى كتابة «كوكبة» من شعراء العصر تجربة مجلة أپوللو فيقول:

«لقد استطاع أبو شادى أن يبدأ المسيرة، فينشىء الجماعة، ويصدر مجلتها «أپوللو» مضحيا بما كان يملكه مما ادّخره، ومستعينا بما كان يقتطعه من وظيفته الحكومية للوفاء بمسئولياته الباهظة الجديدة. ولكن نفاد الزاد وفقد المعين أسرعا بالجماعة ومجلتها إلى السير فى طريق النهاية. واضطر أبو شادى إلى أن يلقى السلاح بعد كفاح استمر سنتين وبضعة أشهر (من سبتمبر ١٩٣٢ إلى ديسمبر ١٩٣٤) لفظت «أپوللو» بعدها آخر أنفاسها».

....

«وبرغم هذه المدة القصيرة فى عمر «أپوللو» وبرغم الأعداد القليلة التى صدرت منها، وهى لا تجاوز خمسة وعشرين عدداً، استطاعت «أپوللو» أن تحقق كثيرا من أهدافها، فعرفها عالم الأدب فى مختلف أرجاء العالم العربى وفى المهاجر الأمريكية. كما كان لها فضل التعريف بطائفة كبيرة من شعراء العربية المجيدين كانت أصواتهم

الندية تتوارى خلف تلك الأسماء الكبيرة كأسماء إسماعيل صبرى، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وعبدالرحمن شكرى، ومعروف الرصافى، وجميل صدقى الزهاوى، وغيرها من الأسماء الكبيرة التى كانت تملأ أجواء العالم العربى».

....

«من هؤلاء الشعراء الذين كان لـ«أبوللو» فضل التعريف بهم عن طريق موالاة نشر نتاجهم فى أعدادها المتتابعة: إبراهيم ناجى، وعلى محمود طه، وحسن كامل الصيرفى، وإلى جانبهم جماعة من شعراء الشباب الموهوبين وجدوا طريقهم إلى «أبوللو»، فعرفهم بها الناس، ومنهم: محمد عبدالمعطى الهمشرى، ومحمود حسن إسماعيل، والعوضى الوكيل، وأحمد مخيمر، وصالح جودت، ومختار الوكيل، وأبو القاسم الشابى، وكثيرون من أمثالهم، بزغت نجومهم فى سماء «أبوللو»، أو ازدادت تألقا فى عالم الشعر، وبقيت شاعريتهم تتدفق، ودواوينهم تنشر وتقرأ، وشعرهم يلحن وينشد، وأصداؤهم تدوى حتى بعد أفول نجم «أبوللو»، واحتجابها عن الأنظار. وهم دائما يذكرون فضل «أبوللو» وقائدها الذى شجعهم، ورعى مواهبهم، وأخذ بأيديهم».

❑

ويحرص الدكتور بدوى طبانة على أن يقدم حصراً بمؤلفات أبو شادى الشعرية ذاكراً دواوينه، وترجماته الشعرية:

١- الفجر الجديد.
٢ - عودة الراعى.
٣ - الشفق الباكى.
٤ - أشعة وظلال.
٥ - أطياف الربيع.
٦- أخناتون.
٧- الشعلة.
٨ - أغانى أبى شادى
٩- فوق العباب.
١٠- زينب «حبه الأول».
١١ - الينبوع.
١٢- من السماء.
١٣- الكائن الثانى.
١٤- أغانى الحب.

١٥- الإنسان الجديد.   ١٦- النيروز الحر.

ولأبى شادى ولوع بالشعر التمثيلى ويشير الدكتور بدوى طبانة إلى أنه .

«خلف فى شعره عدداً كبيراً من المسرحيات الشعرية بثها فى دواوينه. وفى ديوانه «الإنسان الجديد»، الذى تضمن طرفاً من شعره فى مهاجره الأمريكى، عدد من تلك القصائد التمثيلية، منها قصيدته «عذراء بختن» وقصيدته «الولد التائه»، وقصيدته «ابن زيدون فى سجنه» ، وقصيدته «وداع جميل بثينة» وقصيدته «حلم مجنون ليلى». وكلها مسرحيات صغيرة فى فصل واحد، والحوار فيها محدود لا يتجاوز شخصيتين قامت عليهما كل مسرحية».

ومن المهم أن نشير إلى أن أبو شادى قد ترجم رباعيات عمر الخيام شعراً عن الترجمة الإنجليزية التى نشرها الشاعر الإنجليزى «فيتزجرالد» نقلاً عن أصلها الفارسى.

❑

بقى أن نختتم هذا الفصل بأن نقرأ بعض أبيات أحمد زكى أبو شادى حين ترك مصر إلى المهجر:

تركْتُ مصرَ وقلبى لوعةً ولظًى ... لجنةٍ ضُيِّعتْ فى نوم جنَّانِ
عاث اليرابيعُ فيها وهو فى شُغُلٍ ... عنها بأضغاث أحلامٍ وبهتانِ
إذا أفاق تعالت صيحةً ذبت ... فلم تعقبْ بمجهودٍ ليقْظانِ
بذلتُ عمرى لأرعاها وأوقظهُ ... فكان سُقْمى وتعذيبى وحرمانِى
فدًى لها - لو أباحتْ - كل ما ملكتْ ... نفسى، وما وهبتْ فى حيِّها ألحانِى
تركتها وبودِّى غير ما حكمتْ ... به المقاديرُ فى أشجانِ لهْفانِ
وقلتُ علَّى على بُعدٍ أشارفها ... وأنْفخ الصُّورَ إن فاتتْه نيرانِى
فى بيئة تنزلُ الأحياء منزلهم ... ولا تحاول تخليداً لأكفانِ
فلم يخيِّبْ رجائى فى نوازعها ... ولم تكن هِجْرتى من مصر هِجْرانِى

هل انتهى سلامة موسى إلى العدمية؟

عاش سلامة موسى سبعين عاما ما بين ١٨٨٨ و ١٩٥٨ وهو من جيل العقاد وطه حسين وهيكل وأحمد أمين غير أن قيمته فى حياته وبعد مماته كانت وظلت أقل من قيمة هؤلاء الرواد وان كان هذا لا ينفى عنه القيمة.

ولد فى الزقازيق فى أسرة غنية، ولم يتم تعليما جامعيا ولكنه أتم المرحلة الثانوية وبدأ بعدها سلسلة من الرحلات، وعاد إلى مصر عام ١٩١٤ حيث أصدر مجلة باسم «المستقبل» لكنها فشلت، وتحول هو إلى الكتابة فى المجلات والصحف المتاحة حتى عام ١٩٢٩ حين أسس «المجلة الجديدة» التى كانت أحسن حالا من سابقتها لكنها لم ترق فى مستواها العام إلى المجلتين اللتين صدرتا بعدها وهما الرسالة والثقافة، ولا إلى «الهلال» التى كانت موجودة من قبلها، وعاشت هذه المجلة الصحفية حتى عام ١٩٤٢

وهى فترة عمر طويلة، وكان لها أثرها فى الحياة الثقافية والفكرية حيث كانت ميداناً لنشر أفكار صاحبها السياسية ودعوته القيمة إلى الثقافة العلمية الحديثة وقد كان من روادها، بما كتب ودعا.

لسلامة موسى عدد من الكتب ذات التأثير الملحوظ فى الجيل الذى عايشه منها «نظرية التطور» (١٩٢٥) و«الأدب والحياة» (١٩٥٦) و«أحلام الفلاسفة» (١٩٢٦) «وهؤلاء علمونى» كما أنه كتب سيرته الذاتية ونشرها بعنوان «تربية سلامة موسى».

جاهر سلامة موسى كثيرا بانقطاع صلته بالتراث العربى وبضرورة الاتصال الدائب بالحضارة الغربية.

ومع أنى لا أنكر فضله فى تبسيط الأسلوب وفى إتاحة كثير من الأفكار العلمية لجيل ما بين الثورتين فإن نقاد الأدباء لا يضعونه فى المكانة التى يتمنى المتشيعون له أن يجدوه فيها.. وعلى سبيل المثال فإن الكاتب الذى تولى التعريف به فى «موسوعة الطفل» التى أصدرتها هيئة الكتاب لم يجد حرجاً فى أن يقول إن نشاطه الصحفى استغرق حياته مع تحصيل ثقافة واسعة غير منتظمة وغير متخصصة خاصة فى الآداب الأوروبية.

وعلى النقيض من هذا فان استاذنا الدكتور عبد الحافظ حلمى (فى محاضرة له فى الجمعية المصرية لتاريخ وفلسفة العلوم) يتحدث عن الاستقبال المبكر للداروينية فى البلاد العربية، فيثنى على كتاب سلامة موسى عن «نظرية التطور» ونشره وهو يقول ما نصه:

«أما كتاب سلامة موسى «نظريةُ التطور وأصلُ الإنسان» (عام؟)، فهو كتاب رصين وأقلُّ تحدياً وإثارة من كتاب شبلى شميّل، وأحدث وأشمل. وقال المؤلف إن كتابه يسدّ نقصاً يكاد يكون كاملاً فى المكتبة العربية، ولكنه يستدرك فيقول: «وليس

يذكر أحد فضل المقتطف والهلال وشبلى شميل فى شرح هذه النظرية، وإيراد الأمثلة المتوالية على حقيقتها، ولكن مع ذلك ليس فى العربية كتاب واف سهل عنها للآن». وكتاب سلامة موسى غير مؤرخ، ولكن لابد أنه نشر بين عامى ١٩١٧، تاريخ أحدث مرجع فيه، وعام ١٩٢٧، تاريخ الإجابة فى المقتطف عن الكتب المنشورة عن التطور بالعربية».

....

وقبل هذا يشير أستاذنا الدكتور عبد الحافظ حلمى فى محاضرته إلى مقال مبكر لسلامة موسى فى هذا الميدان فيقول:

«وبين هذين المقالين لشميّل، ظهر فارس آخر من فرسان هذه الحلْبة، فقد أرسل سلامة موسى من لندن، مقالاً بعنوان «نظريات النشوء الحاضرة»، واستعرض فيه أعمال داروين، وسبنسر، ولا مارك، وصمويل بتلر، وفيسمان، وده فريس. وكلامه عن الأخيرين يشير إلى إدراكه البعد الوراثى الجديد للداروينية. وهو يختم مقاله بقوله إنه يبدو «أن الصفات المكتسبة لا تورث مطلقاً ـ أو على الأقل أن الدلائل الحاضرة ترجح النفى. وهذا يسقط كل أهمية أعطيت للمدنية، من تربية ونظام مدنى وغيرهما، ويجعلنا ننظر إلى الصفات الأصلية الوراثية كمعتمدنا الوحيد فى ترقية الإنسان، وذلك بأن نسهل حفظ نسل مَنْ نرغب فى بقاء صفاته ونصعب حفظ نسل مَنْ لا نرغب فى بقاء صفاته».

❑

هكذا كان سلامة موسى واحداً من الذين مكنتهم نافذة اللغة من الإطلاع على كثير (أو قليل) من الأفكار الجديدة فى مجتمعات متقدمة فتبناها ونقلها إلى مجتمعنا العربى.. وله فى هذا فضل لا يستطيع أحد أن ينكره، غير أن الخطورة فى مثل حالته تتمثل فى زاويتين خطرتين:

الأولى: أن يقع هذا الرائد الناقل المستشرف للتقدم فى أسر النظرة الأحادية التى ترى أن هذا الذى ينقله هو السبيل الوحيد للتقدم وأن ما عدا ذلك هراء، وقد كاد سلامة موسى أن ينزلق إلى مثل هذه الهوة فى المرحلة الأخيرة من حياته.

الثانية: أن يغفل مثل هذا الرائد تقدير ما يراه من أمارات النضج والأصالة والنمو الطبيعى فيمن حوله من أدباء وطنيين بدأوا تجاربهم، وكان هو نفسه من حيث لايدرى أحد الذين فتحوا لهم النوافذ والأبواب، والأمر فى هذا شبيه ببائع الدواء الذى لا يدرك قيمته فى شفاء بعض الأمراض التى يعانيها هو نفسه. أو قل إنه شبيه بالطابخ الماهر الذى لم يرزق بحاسة الاستمتاع بما يجهزه من طعام يسيل له لعاب الذين يقدرون قيمته.

وعلى سبيل المثال فإن نجيب محفوظ لا يزال حتى وقتنا هذا يدرك قيمة الزاد الفكرى الذى قدمه سلامة موسى ، مع أن أحداً لا يستطيع أن ينسب بعض أفكار نجيب محفوظ بطريقة مباشرة إلى أفكار سلامة موسى.

على أن سلامة موسى بحكم سوء الحظ ووقوعه فى هذين المنزلقين قاد نفسه فى أخريات أيامه إلى حالة من الاكتئاب الاجتماعى والخصام مع كبار الأدباء فى جيله، وقد سجلت الصحافة الثقافية هذا الخصام من خلال حديث أجرته مجلة الرسالة الجديدة مع سلامة موسى فى عدد شهر يوليو ١٩٥٤ وأردفته فى العدد التالى مباشرة وهو عدد شهر أغسطس ١٩٥٤ بتعليقات قاسية لكبار الأدباء على آراء سلامة موسى ومجمل شخصيته وإنتاجه.

لعلى أتجاوز الترتيب التاريخى والطبيعى إلى ترتيب منطقى لأبدأ بعرض الهجوم الذى شنه هؤلاء الأدباء على سلامة موسى بعد ما نشر آراءه.

سئل الأستاذ عباس محمود العقاد عن رأيه فيما ذهب إليه سلامة موسى فقال:

«إنى لا أستطيع أن أبدى رأيى فى غير رأى.. وما قاله سلامة موسى ليس تعبيرا عن رأى، ولكنه تعبير عن حقد وضغينة وشعور بالفشل والتقهقر. وكل ما يهدف إليه سلامة موسى من حملاته على الأديب العربى هو تشويه الأدب العربى عامة، ورميه بالقصور والجهل وانحلال مجتمعه.. والذنب الأكبر للأدب العربى عند سلامة موسى، هو أن هذا الأدب عربى، وسلامة موسى ليس بعربى!»

وقيل للأستاذ العقاد أين مكان سلامة موسى بين أدباء العصر الحديث وعلمائه؟ فضحك وقال:

«إن الأدباء يحسبون سلامة موسى من العلماء.. والعلماء يحسبونه على الأدباء.. والواقع أنه ليس أديبا، ولا عالما، ولكنه قارئ لبعض العلم، وبعض الأدب، فى بعض الأوقات.. وما يفهمه أتفه مما لا يفهمه!»

❑

وقال الأستاذ توفيق الحكيم:

«إن سلامة موسى يتصدى للحكم على قضايا لا يملك أسباب التصدى لها.. ويخيل لى أنه قد انقطع عن القراءة منذ ربع جيل على الأقل.. فإنى كلما قرأت له لمحت أثر تفكير القرن التاسع عشر فى اتجاهات فكره، والتفاتات ذهنه.. إنه لا يزال يقيم فلسفته - إن كانت له فلسفة - على الاعتراف بالمادة، وإنكار الروح، ويحسب أن هذا أقصى ما وصل إليه الفكر الحديث...!»

«كان إينشتين يقول: إن الكون فى إطار.. والله خارج هذا الإطار.. وقد قرأت له أخيرا كلاما عن الله جنح فيه إلى الاعتراف بالله .. وتحدث عنه فى حذر وتهيب وخشية.. وما قرأته لسلامة موسى منذ ثلاثين عاما، لا يختلف عما أقرؤه له اليوم، نزعة، وأسلوبا، واتجاها حادا إلى إنكار كل شىء، والاستخفاف بكل شىء!!».

وعلى عادته تساءل توفيق الحكيم وقال:

«لست أدرى لماذا تقيمون وزنا لحكم سلامة موسى على ما سيحمل التاريخ من آثار أدبائنا إلى الأجيال القادمة.. وسلامة موسى على ما أظن ليس هوالتاريخ، وليس هو الأدباء ، وليس هو الأجيال القادمة...!»

❑

أما الأستاذ كامل الشناوى فقال:

« ...... إن سلامة موسى لم يدرس آثار هؤلاء الأدباء، ولم يقرأ لهم حتى يستطيع أن يصدر حكما سليما. وما ذكره ليس رأيا وإنما هو كلام عام.. وسلامة موسى أولع فى السنوات الأخيرة بالتعرض لموضوعات يستحيل عليه أن يفهمها فهما صحيحا.. فهو يتحدث عن «الغزالى» و«المعرى» و«شوقى» و«أبى نواس» و«المتنبى».. ويحاول جهده فى الكتابة عنهم.. والقارئ ليس فى حاجة إلى كثير من الفطنة لكى يدرك أن ما يكتبه سلامة موسى عن الأدب العربى قديمه وحديثه شعرائه وكتابه، يدل على أنه لا يعرف عن هذا الأدب إلا عناوين كتبه، وأسماء أدبائه!».

....

يردف الأستاذ كامل الشناوى مستطرداً إلى رواية رأى الدكتور طه حسين فى سلامة موسى ويقول:

«وقد حمل منذ أشهر [الضمير يعود على سلامة موسى] على شوقى الشاعر، واتهمه بالمروق، والخيانة ، والتآمر على الشعب.! واتضح أنه لم يقرأ لشوقى إلا مطالع قصائده فى مدح الخديو عباس!! وقد صدر أخيرا كتاب شعراء الوطنية للأستاذ الكبير عبدالرحمن الرافعى.. وفى هذا الكتاب تحليل لوطنية شوقى.. وقد سماه الرافعى شاعر الوطنية الأكبر.. وأعتقد أن حكم الرافعى على الوطنيين، أصدق من حكم سلامة

موسى.. وعندما بدأ سلامة موسى حملته على شوقى، والشعر العربى، والمجتمع الإسلامى، تحدثت مع الدكتور طه حسين فى ذلك فقال: «إن جريمة شوقى فى نظر سلامة موسى هى هذه القصائد التى تغنيها أم كلثوم.. أى قصائد شوقى فى مدح الرسول!» وأنا لست أعتقد ذلك.. فإن سلامة موسى لا يتعصب لشىء ولا ضد شىء، وكل ما هنالك أنه حاقد موهوب!. وهو حريص على إظهار مواهبه فى كل ما يكتب.! فى السياسة أو الأدب، أو الاجتماع.. وهو يحقد على الأموات أكثر مما يحقد على الأحياء، وحقده على الضعيف أشد من حقده على القوى.. ولست أتجنى عليه.. ولكنى أقول الحقيقة.. ومن يطالع كتاباته كلها بلا استثناء ، يأخذه الإعجاب من جدارته على نفث حقده فى كل لفظ، وكل معنى.. فليس صحيحا أن سلامة موسى يتعصب ضد الأدب العربى، أو ضد المجتمع الإسلامى!».

....

وقيل لكامل الشناوى ما رأيك فى أسلوب سلامة موسى؟ فقال:

«إن سلامة موسى يعبر بسهولة عن آراء غيره..! ولو كانت له آراء ذاتية، لاستطاع أن يعبر عنها بسهولة أيضا.!».

وقال كامل الشناوى: «إن سلامة موسى يعرف الموسيقى، ويشعر بالعلم.. ولو أنه شعر بالموسيقى وعرف العلم لكان كاتبا عظيماً..!!».

❑

ونعود إلى حديث سلامة موسى نفسه وقد تضمن كثيراً من الفقرات السريعة التى حوت ما حوت من نقد مباشر ومعمم لأعلام الأدب والفكر فى وقته، وقد أجرى الجديث معه سكرتير تحرير مجلة الرسالة الجديدة عبد العزيز صادق (وهو نفسه مدير تحرير مجلة أكتوبر فيما بعد) وقد كان أحد الضباط الذين اشتغلوا بالصحافة والأدب.

وهذه أجزاء من ذلك الحوار الذى أجراه الأستاذ عبد العزيز صادق:

«ما رأيك فى الأدباء المعاصرين - المصريين طبعا - الذين تعتقد أن الزمن سوف يحمل آثارهم إلى الأجيال القادمة ؟»

«قال سلامة موسى: لست أرى فيهم مَنْ يستحق..»

«فسألته.. لماذا؟»

«قال سلامة موسى: السبب بسيط جدا.. إن أدبنا المصرى الآن منفصل تمام الانفصام عن المجتمع الذى نعيش فيه، والأدب الحى، يجب أن يرتبط بالمجتمع .. ويجب أن يحمل همومه، ويعالج مشكلاته.. وقد يكون الأدباء السابقون معذورين فيما كانوا يكتبون.. لأن الحكومات الماضية الظالمة، كانت تحول دون وجود أدب إنسانى لأن الأدب الإنسانى كان يؤدى فى مصر إلى الدعوة للثورة.. ولأن طبيعة الحياة التعسة التى كان يعيش فيها فقراؤنا، كانت تحتم على الأدباء الذين كانوا يحسون بها أن ينضموا إلى هؤلاء التعساء والفقراء ويصوروا معيشتهم بما لا يمكن أن يتسامح الحاكمون - وقتئذ - بتصويره .. وهذا الأدب الإنسانى أعتقد أننا سوف نشرع فى تصويره وفى الدعوة إليه، مادمنا قد هدمنا تلك القمة العفنة التى كانت على رأس مجتمعنا القديم، أعنى فاروق وأعوانه..».

❑

وفى موضع آخر من الحوار يقول سلامة موسى:

«لقد قرأت لهم (أى للأدباء لمعاصرين) جميعا بلا استثناء .. ولم أجد منهم من يستحق أن يقرأ له أولادنا وأحفادنا بعد عشرة أعوام.. وأستطيع أن أقول إننا الآن فى بداية نهضة تكبر من شأن البارزين منا، لأننا نقيس قدورنا بمقاييس منخفضة.. أما فى المستقبل - بعد أن تكون النهضة قد رسخت ونضجت - فإن هذه المقاييس ستعلو

حتما.. وعندئذ سوف يرى أبناونا وجيلهم الجديد، أن مَنْ كنا نحسبهم متفوقين، لم يبلغوا المستوى الذى ينتظرونه منهم.. وهنا أستطيع أن أقول إن موقفنا من الجيل الآتى، هو مثل موقفنا من المنفلوطى والرافعى.. فإنهما كانا يعدان من المتفوقين فى حياتهم.. ولكننا الآن لا نرى فيما كانا يكتبان شيئا يدل على تفوق أو نبوغ!!»

«قرأت شيئا لنجيب محفوظ.. وهو يدل على نبوغ.. ولكنى لست أدرى هل سيبقى هذا النبوغ على مقاييس العصر القادم أم لا..؟ وأنا حين أذكر الأدباء الحاضرين لا يخطر ببالى هؤلاء الذين كانوا «صبيانا» صغارا عندما كنا نحن فى سن الأربعين والخمسين مثل الشرقاوى، ومحفوظ ، والسباعى.. أما من ناحية السباعى بالذات [أى يوسف السباعى] فإنى أوثر أباه عليه .. أولا لأنه كان صديقى.. وثانيا لأنه كان يقرأ بيرون، وشيللى، وكارليل!... ولو كان السباعى الأب يعيش اليوم وطلب منه أن يكتب قصة كالتى تكتب هذه الأيام، لرفض كل الرفض.. كما أرفض أنا أيضاً».

❑

وقال أيضا:

«لقد درست الآداب العربية.. وليس هناك كتاب عربى فى الأدب، والتاريخ يؤبه به لم أقرأه.. ولكنى لم أجد بين أدباء العرب مَنْ استطاع أن يترك فى نفسى أثرا نفسيا أو اتجاها فنيا.. وهناك من أحبهم من أدباء العرب وفلاسفتهم مثل «ابن حزم» و«ابن رشد» و«البيرونى» و«المعرى» .. ولكنى لا أستطيع أن أقول إن هؤلاء قد غيرونى أو زادوا فى تطويرى ».

❑

على أن يوسف السباعى باعتباره رئيسا لتحرير الرسالة الجديدة قد حرص على أن ينتصف لنفسه فى نفس الشهر الذى صدر فيه حوار سلامة موسى ونشر رده فى إطار فى وسط الحوار تحت عنوان «كلام العيال» وقال فيه:

«ليسمح لى «عمى سلامة» بأن أعلق تعليقا قصيرا على ما خصنى به من عدم التفضيل أو عدم التقدير.. لقد عايرتنى أولا بصغر السن.. ورميتنى بأنى كنت فى الرابعة أو الخامسة وأنت فى الأربعين أو الخمسين.. ولست أرى فى ذلك عيبا أرمى به ولا يضيرنى أن تكون خلقت قبلى بأربعين عاما. .. اللهم إلا إذا كنت تعتبر السبق إلى الوجود مدعاة للتفاخر وهو شيء لا فضل لك فيه ولا حيلة لى فى رده. ولا أظن فارق العمر يمكن أن يكون أبداً سبباً للمفاضلة، فهناك حمير كثيرون أكبر منك.. وهناك حمير أكثر أكبر منى.. والوصول إلى الأربعين أو الخمسين أو الثمانين لا يحتاج من المرء إلى نبوغ أوعبقرية، لا شئ أبداً أكثر من أن يأكل ويشرب وينام ويتوكل على الله على أن يوصله إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً».

«وأنت قد أخرجتنى أنا و«العيال» من أمثالى من عداد الأدباء المعاصرين لأننا صغار وأنت كبير. وكأنما الأدباء لا يهبطون فى هذه الدنيا إلا وهم يتعثرون فى لحاهم. ثم ادعيت بعد ذلك أنك قرأت لى ولم تجد فيما كتبت شيئاً يستحق القراءة لأنه لا يتجاوب مع مجمتعنا، وأنا أكذبك فى كل ما قلت وأتحداك إذا كنت قد قرأت لى «وراء الستار» أو «البحث عن جسد» أو «أرض النفاق» قبل أن تصدر حكمك السطحى الجائر».

«أما أنك تفضل أبى على فهذا خير ما قلت، وإن كانت أسبابك فى التفضيل مضحكة، لأنك بنيت تفضيلك أولا على صداقتك له كأن صداقتك لإنسان قد أضحت من أولى مزايا الأدباء. وأنه يتحتم على الإنسان لكى يكتسب فضل الأدب أن يكون صديقك. ثم ذكرت سببا ثانيا للتفضيل هو أنه قرأ كارليل وغيره فجزمت بذلك بشيء لا تعرفه وهو أنى لم أقرأ لهؤلاء، أما عن قولك إن أبى ما كان يكتب قصصا للصحافة فقول يكذبه الواقع لأنه كتب قصصا فى البلاغ الأسبوعى منها «الدروس القاسية» و«الخادمة» و«الفيلسوف». أما إنك ترفض الكتابة فعن عجز لا عن ترفع تشهد بذلك محاولاتك البدائية التى نشرتها فى جريدة الأخبار».

❑

على هذا النحو من الهجوم العنيف كتب يوسف السباعى يرد على سلامة موسى بكل ما أمكنه من أسلحة الهجوم على الرغم من أنه كان مشهوراً بدماثة الخلق ورقة الطبع، ولكنه فى الواقع كان حريصاً على أن يثبت أن له أنيابا، وها هو يختم مقاله بقوله:

«وأكثر ما أعجب له فى حديثك هو إعجابك بالشباب إذا ما قرن بالقيادة السياسية وازدرائك له إذا ما قرب بالأدب. وأخيرا أرجو أن أكون قد أثبت لك أن «العيال» يستطيعون مجاراة «العواجيز» حتى فى الغرور وسلاطة اللسان!».

❑

بقيت فى هذا الحديث عن سلامة موسى نقطة مهمة لا اخالنى منصفاً إذا أنا تجاوزت الإشارة إليها وهى أن هذا الكاتب الصحفى الخبير بأجواء الصحافة والثقافة لم يكن يجد مانعاً فى أن يضحى بنفسه (أو يقحمها) فى بعض الخلافات التى كانت تنشب من آن لآخر بين بعض المؤسسات الأهلية العاملة فى هذا الميدان، وليس أدل على هذا من أنه أعطى «مجلة الكاتب المصرى» التى كان الدكتور طه حسين يرأس تحريرها رسالة كان إسماعيل مظهر رئيس تحرير المقتطف قد بعث بها إليه يعتذر له عن نشر إحدى مقالاته فى المقتطف نظراً لأنه ينشر مقالات فى «الكاتب المصرى».. وقد وجدت الكاتب المصرى فرصتها فى نشر صورة زنكوغرافية من الرسالة والتعليق عليها بصورة متظاهرة بالمثالية.

وهذا هو نص الرسالة، وتعليق الكاتب المصرى عليها كما نشر فى عدد من هذه المجلة:

إدارة المقتطف والمقطم ومطبعتهما

مصر فى ٣١ / ١٠ / ١٩٤٥

«عزيزى الأستاذ سلامة موسى

سلاماً وتحية وبعد فأرجو أن تقبل عذرى عن عدم استطاعتى نشر مقالكم «جورج واشنطون والديمقراطية الأمريكية» لا لشئ إلا لأن «المقتطف» سيجرى على خطة الامتناع عن نشر أى شيء لكاتب مصرى يتصل بمجلة «الكاتب المصرى». وبما أن لكم مقالاً فى عدد هذه المجلة الأخيرة، فأرجو أن تعلم أنى أعتبر أن هذا اتصالاً يمنعنى آسفاً كل الأسف من نشر مقالكم هذا فارده إليك مع كتابى راجياً أن تكون بكل خير وعافية..

المخلص

إسماعيل مظهر

● أما تعليق مجلة الكاتب المصرى فكان على النحو التالى:

.. ونحن نستغفر الله لصاحب هذا الكتاب من تقصيره فى ذات الحرية والنحو والذوق ونؤكد أن هذه المجلة [أى الكاتب المصرى] ترحب بالكتاب جميعاً ومنهم اللذين يكتبون فى زميلتنا المقتطف الغراء.

عندما تحدى الدكتور زكى مبارك المجمع اللغوى!

للدكتور زكى مبارك مكانة كبيرة ومتقدمة فى قلبى وعقلى.

وقد كان هذا الرجل صاحب الألقاب العلمية وصاحب السبق إليها معتزا بنفسه، ولكنه كان فى الوقت نفسه يحن إلى التقدير ويتشوق إليه.. ولعل فى هذا سر ذهابه يوما بعد يوم يبتغى الحصول على ألقاب وشهادات علمية أخرى، حتى صار له ما لم يكن لأحد من قبله.

ولكنه فى اعتزازه بنفسه كان يفوق الحدود، حتى إنه يصدق عليه القول إنه لم يدع مجالاً لغيره ليقدر له فضله بعدما قدره هو، ولعل فى هذا سرا غاب عن زكى مبارك الذى لم يفتأ يستنكر على الناس إهمالهم شأنه.

وقد تكون هذه العناصر الثلاثة هى المكونات النفسية لشخصية زكى مبارك فى اختصار مركز وشمول شديد.

ها هو ذا زكى مبارك يتقدم بديوانه «ألحان الخلود» لينال جائزة المجمع اللغوى فلا ينيله المجمع الجائزة، فيكتب صاحبنا مقالاً هجومياً فى مسامرات الجيب (٢٢ يناير ١٩٥٠) وتصوره مسامرات الجيب فى وسط المقال بالصورة التى اشتهر بها وهى صورة الملاكم «الأدبى».

يبدأ الدكتور زكى مبارك مقاله بقوله:

«يسألوننى لماذا لم يمنحنى المجمع اللغوى الجائزة الشعرية على ديوان «ألحان الخلود».

ويجيب مباشرة: «وجوابى إن هذا دليل جديد على بعد المجمع اللغوى عن مسايرة الحياة الأدبية».

وينتقل الدكتور زكى مبارك ليفصل رأيه هذا فيقول:

«فقد كان المظنون أن رئيس المجمع وأعضاءه يشترون بأنفسهم الدفاتر الأدبية الجديدة ليعرفوا كيف تنتقل حياة الأدب من حال إلى أحوال.. ولكنهم مع الأسف فى معزل عن فهم هذه الحقيقة الجوهرية..!».

❑

وبعد هذا الجانب النظرى من الموضوع، الذى يكتفى أغلبية الكتاب بالوقوف عنده إذا ما تناولوا مثل هذه القضايا، يمضى الدكتور زكى مبارك بطبعه المختلف عن طبع الناس وأخلاق الكتاب، يمضى بصراحته الشديدة التى لا تقف عند حد وإنما قد تجرح وتحرج وتسبب بهذا إيلاما شديدا لا يزال بالمتألم يحثه على الانتقام لما أحسه من ألم مثل هذه الكلمات الذى كتبها زكى مبارك!! .

وكان رئيس المجمع فى ذلك الوقت هو الأستاذ أحمد لطفى السيد، وهو مع أستاذيته لم يُعرف بالشعر، وهنا يغمز زكى مبارك أستاذ الجيل فيقول:

«وأنا ما فكرت فى إهداء نسخة من ديوان «ألحان الخلود» إلى رئيس المجمع اللغوى لأننى أيقنت أنها هدية ضائعة لأن فخامة الرئيس لم ينظم فى حياته بيتاً من الشعر حتى يدرك قيمة الديوان».

ثم يردف زكى مبارك بعبارة لا تزال غامضة علىّ حين يقول:

«ولأن من أعضاء المجمع أشخاصا من سلالة الرسول، والله عز شأنه قال فى رسوله الكريم: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغى له﴾.

❑

ثم يأخذ زكى مبارك فى مهاجمة بعض أعضاء المجمع فيقول فى شأن الأستاذ العقاد:

«ولأن فى المجمع عضوا يزعم أنه شاعر، وما هو بشاعر، وهو الشيخ عباس محمود العقاد».

ويكتفى زكى مبارك بهذا فى شأن العقاد ليتركه إلى الذين انتقلوا إلى رحمة الله فيقول: «ولو كان الأستاذ على الجارم حيا لكان من المستحيل أن ينصفنى لأننى هجوته فى مجلة الرسالة»، وهكذا يجعل زكى مبارك أسباب عدم التقدير مختلفة.. وهكذا يتبين لنا من حديثه هجاء لشخص الجارم لا لشعره فى حين أن شعر العقاد ليس بشعر!

وينتقل زكى مبارك إلى بعض علماء اللغات الذين يضمهم المجمع ليقول:

«ولا موجب للقول بأن بين أعضاء المجمع أشخاصا لا يفهمون من الشعر شيئا.. أمثال فضيلة الشيخ حمروش عميد كلية اللغة العربية بالأزهر، والحاخام ناحوم الذى لا يفهم العربية إلا بصعوبة..!».

«وفى المجمع اللغوى أيضا مستشرقون لا يمكنهم أن يدعوا العلم بأسرار الشعر العربى لأنه بعيد عن أفهامهم كل البعد».

هكذا يتحدث زكى مبارك بدون تفصيل.

❑

ولكن زكى مبارك لا يمضى فى الطريق إلى نهايته، وإنما يقرر أن هناك واحدا فقط من أعضاء المجمع فى وسعه الحكم فى قيمة ديوان «ألحان الخلود» لزكى مبارك.. وهو صاحب المعالى الشيخ محمد رضا الشبيبى، فهو «من أكابر شعراء العراق»، ولكنه لا يقيم فى مصر غير أسابيع ثم يقفل راجعاً إلى بغداد، فليس هناك أمل فى أن تتاح له الفرصة ليحكم لديوان «ألحان الخلود».

وهكذا تجد فى كلمات زكى مبارك هنا ـ كما تجد دائماً ـ حنيناً وشوقاً إلى العراق وأهل العراق، وكيف لا وقد وجد حظه عندهم بعدما يئس من التقدير فى مصر، ثم عاد من العراق ليستأنف اليأس من التقدير بل ليموت بعد هذا المقال بقليل.

❑

كان هذا هو الجزء الأول من مقال زكى مبارك تحدث فيه عن «الناس» أو عن «الغير» الذين لم يحظوا بتقديره لأنهم لم يعطوه تقديرهم.. ولكن هناك جزءا آخر هو قاسم مشترك فى مقالات زكى مبارك.. هو الحديث عن «النفس» وعن «الذات» التى تعطيه تقديرها وتحظى بتقديره، فى هذا الجزء من المقال الذى بين أيدينا بعض جوهر رأى زكى مبارك فى نفسه وذاته.

يقول الأستاذ الكبير:

«وأنا غير مهتم لجائزة المجمع اللغوى!».

هكذا يبدأ زكى مبارك على طريقته فى وضع التقرير فى صدر الكلام ثم هو يردف بالسبب:

«لأن المجمع اللغوى كله لا يفهم دكتورا مثل زكى مبارك.. ولو كان فى مصر عدل لكنت أنا أحد أعضائه ولكن العدل فى مصر ذهب ولن يعود».

ثم يتراجع زكى مبارك بعض الشىء وما هو بتراجع وإنما هى ضرورة يعرفها الكتاب حين يكرهون أن تطول منهم الجملة، يتراجع فيقول: «وأنا أقصد العدل فى الحياة الأدبية»، ويقرر بعد هذا مباشرة أنه لو كان فى مصر عدل «لكنت أنا وزيراً للمعارف»، ما هى المناسبة هنا فى هذا المنصب بالذات، وأمام زكى مبارك كل المناصب يستطيع أن يزعم لنفسه الأحقية فيها؟ الجواب سهل إذا ما أخذنا فى الاعتبار الملابسات التاريخية «فقد اختير طه حسين قبلها بأيام معدودات لوزارة المعارف، وقد كان زكى مبارك يعد الدكتور طه غريمه مع أنه كان هناك فارق فى السن، وبالتالى فى المكانة الوظيفية!

ويسرد زكى مبارك الحيثيات التى تؤهله لتولى الوزارة:

«فألقابى العلمية لم يظفر بها أحد وزراء المعارف! ومؤلفاتى زادت على الأربعين مجلدا، وهو محصول أقذى عيونى تحت أضواء باريس، وجبت من أجله الأرض من بغداد إلى سنتريس إلى باريس»، لاحظ السجع بين باريس وسنتريس موطن زكى مبارك التى أصبحت فى رأيه وبظهوره هو فيها خير بقاع الأرض».

«كنت أحب أن يفهم أعضاء المجمع أننى ظفرت بالدكتوراه من جامعة باريس، وأننى كنت أول من ظفر بدبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس.. وأننى كنت أول من ظفر بالليسانس فى العلوم الأدبية والفلسفية من الجامعة المصرية.. وأننى أول دكتور فى الفلسفة من جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٧».

هذا عن ألقابه، وهى كما نرى ليست كافية فى حد ذاتها لأن تجعله عضواً فى المجمع أو فائزاً بجائزة الشعر التى يمنحها المجمع.

أما عن خدماته فإنه يتحدث عنها هكذا:

«فإنى قضيت عشرين سنة فى التدريس، منها أربع سنين فى الجامعات المصرية، وإنى قضيت سبع سنين فى التفتيش، وإنى ظفرت بوسام الأكاديمية الفرنسية بفضل

ما صنعت من نشر الثقافة الفرنسية فى مصر.. وإنى أيضا أول من ظفر بوسام الرافدين من الدولة العراقية، وهو وسام لم يظفر به أحد ممن خدموا بالتعليم فى العراق سوايّ!».

ولا بأس عند زكى مبارك أن يقارن الناس بنفسه دون ذنب جناه الناس إلا أنهم خدموا مثله فلم يحظوا بمثل التقدير الذى حظى به :

«فهل ظفر بهذا الوسام الأستاذ محمود عزمى؟ أو السنهورى باشا؟ »

وبعد كل هذا الاعتزاز يقول الدكتور زكى مبارك:

«ومع هذا المجد كله لا يهمنى أن يتغاضى عنى المجمع اللغوى».

❑

ويستأنف زكى مبارك حديثه أو هجومه فيقول:

«ويعيب قوم علىّ أننى أعتز بنفسى.. وهذا من حقى»

حتى هذا العيب الظاهر فى شخصية زكى مبارك لا يدعه صاحبه دون أن يجعل منه مزية، أو أن يرجعه إلى سبب أو أسباب وهو يقول:

«.... لأننى بنيت مجدى بنفسى فقد تعلمت فى باريس على حسابى، وأنجبت أدباء فضلاء منهم الدكتور محمد هاشم والدكتور محمد مندور وفؤاد باشا سراج الدين.. ومن حقى أيضا أن أعتز بأننى طالب فى جامعة فاروق الأول بالإسكندرية.. خير القارات فى نظرى هى قارة آسيا التى نبغ فيها غاندى وطاغور شاعر الهند.. ولكنى أرى أفريقيا أضخم وأعظم لأن فيها مصر، ولأن فى مصر المنوفية، ولأن فى المنوفية «سنتريس»، ولأن فى سنتريس منزل مبارك، وهو منزل تفضل بزيارته خمسة وزراء».

ترى هل أدرك القارئ الآن لماذا أجلنا تفصيل القول فى مسألة سنتريس وباريس عندما عرضناها منذ دقائق.

وترى هل يجد القارئ شيئا من الاستغراب لسرور زكى مبارك، وفخره، بزيارات الوزراء الخمسة!!

❑

أما الفقرة الأخيرة من مقال الدكتور زكى مبارك فسننقلها كما هى دون تعليقات تفسد على القارئ متعته الكاملة بالدكاترة، وكفانا أننا لم ندع فقرة من فقرات الرجل من دون تعليق، يختم الدكاترة زكى مبارك مقاله بقوله:

«ونعود فنتحرى..! هل للمجمع اللغوى أن ينازلنى فى ميدان المجد والفخار؟ هل لأحد من أعضائه أن يصاولنى فى الشعر والأدب؟ بالطبع لا..! إنه لا يملك شيئا من هذه المحامد. فليس له وجود إلا فى الخيال، وأنا الدكاترة زكى مبارك صاحب أعظم وأفخم وأمجد ديوان شعرى.. ولو كره اللغويون».

....

أما مجلة «مسامرات الجيب» التى نشرت لزكى مبارك مقاله هذا فقد أردفت تعلق عليه فى ذيله:

«يبدو أن الدكتور الجهنمى المذكور أعلاه يستطيع أن يتحدى المجمع اللغوى ولكنه لا يستطيع دخوله لأن باب المجمع يحرسه بواب مفتول العضلات يستطيع أن يبرهن للدكاترة زكى مبارك أن قوته ليست «هرقلية» كما يزعم!

ويبقى السؤال: هل كانت قوة زكى مبارك «هرقلية» أم لا؟

❑

يجدر بنا بعد هذا أن نتأمل أسماء الفائزين بجوائز المجمع اللغوى فى الشعر وفى القصة والبحوث الأدبية فى هذه الحقبة التى لم يفز فيها الدكتور زكى مبارك.

❑جوائز ١٩٤٥ـ١٩٤٧:

فى ١٦ من مارس سنة ١٩٤٧م انتهت لجنة الأدب بمجمع اللغة العربية إلى البت فى المسابقات الأدبية التى أنشأها المجمع فى ٣١ ديسمبر ١٩٤٥ . وبعد أن درست

آراء الأعضاء الذين قرءوا القصص المقدمة للمسابقة، تبين لها أن جميع القصص المقدمة من الأستاذ محمود تيمور للمسابقة قد رشحها وحدها معظم قارئيها للجائزة ورأى كثير منهم تتويج الإنتاج القصصى لمؤلفها فى جملته، وهذه القصص هى: حواء الخالدة، بنت الشيطان، مكتوب على الجبين، كليوباترة، فى خان الخليلى، سهاد.

من أجل ذلك قررت اللجنة تتويج **جميع** الإنتاج القصصى للأستاذ محمود تيمور ومنحه وحده جائزة القصة ، وعلى أن يصرف له مائة جنيه من مبلغ المائتى جنيه المرصد لجائزة القصة، وعلى أن يضم الباقى إلى جائزة البحوث الأدبية فتصير بذلك ثلثمائة جنيه».

❑

«ثم درست اللجنة فى الاجتماع آراء السادة الأعضاء الذين قرءوا البحوث الأدبية وبعد أن وازنت بينها قررت توزيع مبلغ الثلثمائة جنيه على النحو الآتى:

الجائزة الأولى: وقدرها مائة وستون جنيها توزع مناصفة بين البحثين الآتيين:

١ـ ألف ليلة وليلة للدكتورة السيدة سهير القلماوى

٢ـ الأدب المصرى القديم (أو أدب الفراعنة) للأستاذ سليم حسن

الجائزة الثانية: وقدرها خمسون جنيها تمنح لبحث تاريخ الترجمة فى مصر، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر للأستاذ جمال الدين الشيال.

الجائزة الثالثة: وقدرها تسعون جنيها توزع بالتساوى بين البحوث الثلاثة الآتية:

١ـ شعر الطبيعة فى الأدب العربى للأستاذ الدكتو سيد نوفل

٢ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للأستاذ الدكتور شوقى ضيف

٣ـ ذكرى قاسم أمين للأستاذ أحمد خاكى»

❑

وكان مجلس المجمع قد قرر فى ٢٤ من فبراير سنة ١٩٤٧ تحديد يوم السبت ٥ من أبريل سنة ١٩٤٧ موعداً لإعلان نتيجة المسابقات الأدبية بدار الجمعية الجغرافية. ونظراً إلى أنه كان مقرراً أن يعرض تقرير لجنة الأدب على المجلس فى جلسة يوم الاثنين ٣١ من مارس سنة ١٩٤٧ ولكن مجلس الوزراء قرر على غير انتظار أن يكون هذا اليوم عطلة رسمية ابتهاجاً بجلاء آخر جندى إنجليزى عن القاهرة والأسكندرية والوجه البحرى، ونظراً لتعذر عقد المجلس قبل موعد الحفلة التى تعلن فيها النتجة أشار الأستاذ أحمد لطفى السيد رئيس المجمع فى ٣٠ مارس ١٩٤٧ بأن يعرض تقرير اللجنة على أعضاء المجلس الموجودين فى مصر فرادى. [أى أن يعرض بالتمرير على نحو ما نقول الآن].

وقد مُرر التقرير عليهم فوافقوا عليه بالإجماع مع إبداء الأساتذة: الدكتور طه حسين وأحمد أمين، والدكتور أحمد زكى تحفظاً بأنه يُجمل بالمجمع أن **يقصر تتويجه لإنتاج الأستاذ محمود تيمور على ما ألف من القصص باللغة العربية الفصحى لا ما ألفه باللغة العامية**، وقد وافق رئيس اللجنة على هذا التحفظ وأشار بتعديل قرار اللجنة على وفقه.

وهكذا اعتمد تقرير اللجنة جميع الأعضاء المصريين، ما عدا الدكتور عبد الحميد بدوى لوجوده بلاهاى عضواً فى محكمة العدل الدولية، والدكتور على توفيق شوشة الموجود فى مهمة رسمية بسويسرا، والدكتور عبد الوهاب عزام لوجوده فى المؤتمر الآسيوى المنعقد بالهند».

❑

❑ جوائز ١٩٤٧ـ١٩٤٨:

أما فى المسابقة الأدبية لسنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ فقد وافق مجلس المجمع فى ٨ مارس ١٩٤٨ على أن تمنح الجوائز للكتب التالية:

● البحوث الأدبية: مهيار الديلمى وشعره للأستاذ على على الفلال.

● القصة: خان الخليلى — نجيب محفوظ
على باب زويلة — محمد سعيد العريان
} بالتساوى وذلك من بين ٢٥ قصة

● الشعر: رأت اللجنة توزيع مبلغ الـ ٣٠٠جنيه المرصودة لجائزة الشعر على النحو التالى:

٨٠ جنيها لديوان «أغاريد السحر» للأستاذ على الجندى

٨٠ جنيها لما ورد من شعر الأستاذ عثمان حلمى

٧٠ جنيها لديوان «الملك» للأستاذ محمود حسن إسماعيل

٧٠ جنيها لما ورد للجنة من شعر الأستاذ إلياس فرحات

وقد احتفل المجمع بإعلان هذه الجوائز مساء الأربعاء ١٠ مارس ١٩٤٨ بدار الجمعية الجغرافية الملكية .

وفى الجزء السابع من مجلة المجمع [صفحات ١٨٩ وما بعدها] كلمات الأساتذة إبراهيم عبدالقادر المازنى وعبد الوهاب خلاف وإبراهيم بيومى مدكور عن الأعمال الفائزة.

❑

أما المسابقة الأدبية لسنة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ فقد وافق مجلس المجمع فى ١٤ فبراير ١٩٤٩ على حجب الجوائز وتحصيصها لأغراض أخرى.

❑

❑ جوائز ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠

وافق مجلس المجمع على تقرير لجنة الأدب، وهذا نصه:

«منذ أن انتهى الميعاد المحدد لقبول الإنتاج الأدبى وهو أول أكتوبر سنة ١٩٤٩

أخذت لجنة الأدب تتابع دراسة كل ما قدم إليها من القصص وعددها ست قصص، والكتب المحققة المنشورة وعددها أربعة، والبحوث الأدبية وقد تقدم منها للمسابقة بحثان : واحد عن نقد الشعر العربى من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٩٥٠ ، وواحد فى أحسن دراسة لرفاعة الطهطاوى وأثره فى وضع المصطلحات الأدبية.

وقد عقدت الجنة لذلك عدة جلسات ثم انتهت إلى القرارات الآتية:

١- يمنح الأستاذ **عبد السلام محمد هارون** الجائزة الأولى المخصصة للنشر والتحقيق، وقدرها مائتا جنيه عن مجموع جهوده القيمة فى تحقيقه ونشره لكتابى الحيوان للجاحظ، ومجالس ثعلب لأبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

٢- تمنح جائزة ثانية للتحقيق والنشر قيمتها مائتا جنيه على أن تقسم مناصفة بين السيدة **عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)** لتحقيقها ونشرها رسالة الغفران **لأبى العلاء المعرى** وبين **الأستاذ طه الحاجرى** لتحقيقه ونشره كتاب البخلاء للجاحظ، تقديراً لما بذلا فى تحقيقهما من مجهود.

٣- يمنح الأستاذ **أحمد أحمد بدوى** الجائزة المخصصة لأحسن دراسة لرفاعة الطهطاوى بك وأثره فى وضع المصطلحات الأدبية، وقدرها مائتا جنيه عن بحثه (رفاعة الطهطاوى بك) تقديراً لما بذل فيه من جهد قيم».

وقد أقيم الحفل العلنى لإعلان هذه الجوائز فى مساء ١٩ من مارس ١٩٥٠ م، بدار الجمعية الجغرافية الملكية. ورأس الاجتماع الأستاذ أحمد لطفى السيد رئيس المجمع، وتحدث عن الإنتاج الأدبى الفائز العضو المحترم الأستاذ إبراهيم مصطفى.

❑

❑ جوائز ١٩٥٠-١٩٥١

وافق مجلس المجمع فى جلسته ١٩ من فبراير ١٩٥١ على تقرير لجنة الأدب عن المسابقات الأدبية لسنة ١٩٥٠ - ١٩٥١ . وهذا نصه:

«انتهى الميعاد المحدد لقبول الإنتاج الأدبى فى أول أكتوبر سنة ١٩٥٠ م، فأخذت لجنة الأدب تتابع دراسة كل ما قدم إليها من القصص وعددها ست، والدواوين الشعرية وعددها عشرة،وما قدم للمسابقة عن ترجمة ابن سينا وهو بحث واحد، والبحوث الأدبية وعددها أربعة».

«وقد عقدت اللجنة عدة جلسات ، ثم انتهت فى جلستها الختامية المنعقدة فى ١٩ فبراير ١٩٥١ م إلى البت فى المسابقات الأدبية بالاقتصار على منح الجوائز الآتية للمتسابقين المذكورة أسماؤهم بعد:

(أ) الشعر:

١ـ قررت اللجنة أن يمنح الأستاذ **كمال النجمى** الجائزة الأولى للشعر ، وقدرها مائتا جنيه عن ديوانه «الأنداء المحترقة».

٢ـ وأن يمنح الأستاذ **محمود محمد صادق** مائة جنيه عن مجموعة شعره المقدمة للمسابقة ، والأستاذ فريد عين شوكة ١٠٠ جنيه عن ديوانه «وحى الشباب».

(ب) البحوث الأدبية واللغوية:

قررت اللجنة أن يمنح الأستاذ **سليمان محمد سليمان** الجائزة الأولى للبحوث الأدبية واللغوية وقدرها ٢٠٠ جنيه عن بحثه «العامية فى ثياب الفصحى».

وأن يمنح الأستاذ **عبد العزيز مزروع الأزهرى** ١٠٠ جنيه عن كتابه «الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلى» ، لما بذل فيه من جهد فى محاولة توضيح موضوع غامض.

وقد أقيم حفل علنى لإعلان هذه النتيجة وتقديم الجوائز للفائزين فى مساء يوم ٢٢ من مارس سنة ١٩٥١ . وقد شهده عدد من أعضاء المجمع وجمهور من المعنيين

بالحركة الأدبية. وألقى الأستاذ أحمد حسن الزيات كلمة عن الشعراء المجازين، وألقى الأستاذ إبراهيم مصطفى كلمة عن الأبحاث المجازة.

□ جوائز ١٩٥١ـ١٩٥٢:

درست لجنة الأدب كل ما قدم إليها من القصص وعددها اثنتا عشرة، والدواوين الشعرية وعددها سبعة، والبحوث الأدبية وهى اثنان، والكتب المحققة وهى ثلاثة.

وقد عقدت اللجنة عدة جلسات ثم انتهت فى جلستها الختامية المنعقدة فى ١٩٥٢/٣/١٠ إلى البت فى المسابقات الأدبية بإصدر القرارات الاتية:

أولاً ـ القصص:

لم تجد اللجنة بين القصص المقدمة للمسابقة هذا العام قصة تستحق الجائزة الأولى. ورأت أن خير القصص المقدمة قصة «عبور الأعشى» للأستاذ **محمود أحمد** فمنحتها الجائزة **الثانية** وقدرها ١٠٠ جنيه.

ثانيا ـ الشعر:

(١) قررت اللجنة أن يمنح الأستاذ **إبراهيم محمد نجا** الجائزة الأولى للشعر وقدرها مئة وخمسون جنيهاً على ديوانه «حياتى ظلال».

(٢) وأن يمنح الأستاذ **خالد الجرنوسى** الجائزة الثانية وقدرها مئة جنيه على ديوانه «اليواقيت».

ثالثاً ـ البحوث الأدبية:

لم تجد اللجنة بين البحثين المقدمين ما يستحق الجائزة الأولى. وقررت أن يمنح الأستاذ محمد عبد الجواد الجائزة الثانية للبحوث الأدبية وقدرها مائة جنيه على بحث «الحسين بن أحمد المرصفى».

رابعاً ـ الكتب المحققة :

رأت اللجنة أن الكتب المحققة التى قدمت للمسابقة لم تستوف شروط منح الجائزة .

وتقرر أن يقام حفل علنى بدار المجمع لإعلان النتائج فى ٣٠ من مارس سنة ١٩٥٢ م، ويكون خطباؤه حضرات الأعضاء المحترمين : الأستاذ عباس محمود العقاد (الشعر) ، والأستاذ محمود تيمور (القصة) ، والشيخ عبدالوهاب خلاف (البحث الأدبى) .

ملخص لجوائز المجمع اللغوى لتشجيع الإنتاج الأدبى
فى أعوامها الأولى (١٩٤٥ ـ ١٩٥٢)

محمود تيمور	١٠٠	وحيدة	القصة	٤٥ ـ ١٩٤٧	انتاجه القصصى بالفصحى
سهير القلماوى	٨٠	نصف الأولى	البحوث الأدبية	‹‹	ألف ليلة وليلة
سليم حسن	٨٠	نصف الأولى	‹‹	‹‹	الأدب المصرى القديم
جمال الدين الشيال	٥٠	الثانية	‹‹	‹‹	تاريخ الترجمة فى مصر
سيد نوفل	٣٠	ثلث الثالثة	‹‹	‹‹	شعر الطبيعة فى الأدب العربى
شوقى ضيف	٣٠	‹‹	‹‹	‹‹	الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
أحمد خاكى	٣٠	‹‹	‹‹	‹‹	ذكرى قاسم أمين
على على الفلال		الوحيدة	البحوث الأدبية	٤٧ ـ ١٩٤٨	مهيار الديلمى وشعره
نجيب محفوظ		نصف الجائزة	القصة	‹‹	خان الخليلى
محمد سعيد العريان		‹‹	‹‹	‹‹	على باب زويلة
على الجندى	٨٠		الشعر	‹‹	أغاريد السحر
عثمان حلمى	٨٠		‹‹	‹‹	ما ورد من شعره
محمود حسن إسماعيل	٧٠		‹‹	‹‹	ديوان الملك
إلياس فرحات	٧٠		‹‹	‹‹	ما ورد من شعره
حجبت الجوائز				٤٨ ـ ١٩٤٩	
عبد السلام هارون	٢٠٠	الأولى	النشر والتحقيق	٤٩ ـ ١٩٥٠	الحيوان، مجالس ثعلب
عائشة عبد الرحمن	١٠٠	نصف الثانية	‹‹	‹‹	رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى
طه الحاجرى	١٠٠	‹‹	‹‹	‹‹	البخلاء للجاحظ
أحمد أحمد بدوى	٢٠٠	وحيدة	البحوث الأدبية	‹‹	رفاعة الطهطاوى وأثره فى وضع المصطلحات الأدبية
كمال النجمى	١٠٠	الأولى	الشعر	٥٠ ـ ١٩٥١	ديوان «الانداء المحترقة»
محمود محمد صادق	١٠٠	الثانية	‹‹	‹‹	مجموعة شعره
فريد عين شوكة	٢٠٠	‹‹	‹‹	‹‹	ديوان «وحى الشباب»
سليمان محمد سليمان	١٠٠	الأولى	البحوث الأدبية	‹‹	العامية فى ثياب الفصحى
عبد العزيز الأزهرى	١٠٠	الثانية	‹‹	‹‹	الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلى
محمود أحمد	١٠٠	الثانية	القصص	٥١ ـ ١٩٥٢	قصة «عبور الأعشى»
إبراهيم محمد نجا	١٥٠	الأولى	الشعر	‹‹	ديوان «حياتى ظلال»
خالد الجرنوسى	١٠٠	الثانية	‹‹	‹‹	ديوان «اليواقيت»
محمد عبد الجواد	١٠٠	الثانية	البحوث الأدبية	‹‹	الحسين المرصفى

6

الكتابة والتحولات الاجتماعية

- الروتارى واللغة العربية
- الطربوش والقبعة وزى دار العلوم
- كلية الطب ومجلة القصة القصيرة

الروتاري واللغة العربية

موضوع هذا الفصل رسالة طريفة وجدتها مطبوعة على الاستنسل من نسخة مكتوبة بالآلة الكاتبة، وقد كتبها ووقعها باسمه المستشار محمد توفيق خليل، والرسالة مؤرخة فى مايو ١٩٦٩ ، وهى موجهة إلى الدكتور محمد فطين أستاذ الأنف والحنجرة بقصر العينى ورئيس نادى روتارى القاهرة فى ذلك الوقت.

والرسالة تتضمن توجيها كريما من صاحبها وهو من رجال القضاء إلى زميله فى الروتارى، وهو أستاذ طب، يتعلق التوجيه بضرورة استخدام اللغة العربية والعدول عما نزع إليه رئيس النادى الروتارى من استعمال اللغة الانجليزية بصفة دائمة ومطلقة فى إدارة شئون النادى، وليس من التزيد أن نشير إلى أن الرسالة تدلنا بكل وضوح على أن نادى الروتارى، شأنه شأن أى مجتمع أو تجمع مهنى يضم شخصيات ذات مشارب

مختلفة، كان يضم توجهات متباينة فيما يتعلق بقيمة اللغة القومية ومجال استعمالها. فهذا أحد أعضائه يعبر في لغة عربية راقية عن كثير من المعاني الوطنية المهمة في فترة كان من الضروري للشعب ولأبناء الوطن أن يتمسكوا فيها بكل ما يؤكد هويتهم وذلك في مواجهة عدوان رهيب واجهوه، وهزيمة نكراء حاقت بالأمة والوطن، بينما رئيس النادي (الذي هو واحد من الأعضاء بالطبع) يسلك مسلكاً آخر ويصمم عليه ويظن الصواب فيه.

❑

ويبدو أن الدكتور فطين كان قد وطّن نفسه على ألا يتكلم إلا بالانجليزية فهذه هي اللغة التي يتعامل بها في كليته، وهي التي يقرأ بها البحوث، ويناقش بها الرسائل، ولعله كان حريصا على أن يبدو انجليزيا تماماً في كل ما يصدر عن لسانه، وربما نال إعجاب بعض طلابه في الكلية لمثل هذا السلوك، ولكنه بكل تأكيد لم يكن قادراً على أن يستحوذ على إعجاب مماثل من هذه الطبقة من كبار المهنيين الذين يحرص الروتاري على انتقائهم لعضويته، وهو حريص على أن يثبت في البداية الأدلة التي يسند بها الفعل إلى صاحبه، وهو يخاطبه بكل تهذيب واحترام وتوفير منبها له إلى إصراره على الفعل على الرغم من تنبيهه هو نفسه له من قبل، ويقول:

«السيد الأخ الدكتور محمد فطين

«تحية طيبة وسلاما كثيرا.. وبعد.. فقد لفتَ نظري منذ زمن غير قريب أنك دأبت على الاستعانة باللغة الإنجليزية دون العربية، في تصريف الأعمال في أثناء اجتماعات أعضاء النادي الأسبوعية، لفتت نظري هذه الظاهرة غير المألوفة في نادينا من قبل، فعجبت أن يكون هذا هو موقفك من لغة آبائنا وأجدادنا، ولغة وطننا العزيز».

«ولما راجعتُ في ذلك بعضَ الزملاء، ازداد عجبي، فقد أجمعوا على أن هذا هو موقفك المستديم، من يوم أن تم انتخابك رئيسا للنادي في دورته السنوية الحاضرة، خاصة لأنه تأكدت ليّ فيما بعد صحة ما قالوا، وكان ذلك في أواخر مارس الماضي

حين شكرت الدكتور عبدالرزاق صدقى على محاضرة ألقاها بالعربية استجابة لطلبى، مع أنه كان مرسوما له أن يلقيها بالإنجليزية، ذلك أنى ألفيتك حينذاك تشترك معى فى شكر السيد المحاضر ولكن باللغة الإنجليزية، ثم ذهبت فى تصريف ما بقى من أعمال إلى الاستعانة بهذه اللغة الأعجمية وحدها، إلى أن فض الاجتماع وقمت دون أن تلقى بالا لشىء مما قلته فى تلك المناسبة، من تحبيذ للاستعانة بالعربية قبل الإنجليزية، بل ومن الضرورى الاستمرار فى العمل بالقاعدة، المقررة فى نادينا من قبل، التى تقضى بأن تكون العربية هى الأصل، وبألا يعدل عنها إلى سواها إلا بطريق الاستثناء، وعند الضرورة القصوى، وفى أضيق الحدود».

«ولقد أحدث مسلكك هذا يازميلى فى نفسى صدمة عنيفة، جعلتنى أشعر كأننى غريب فى بلدى، أو كأننى انتصرت للغة لا يرقى مستواها إلى الحد الذى يجيز استعمالها فى نادينا، مادمت رئيسا له».

«من أجل ذلك فكرت فى هذه الظاهرة الخطيرة، ظاهرة موقفك العجيب من لغتنا العربية الجميلة، ثم عدت إلى التفكير من جديد، وبعمق أكثر، لأن الأمر فى نظرى يستحق وقفة تأمل طويلة لعلى أهتدى إلى علة تصلح أن تكون سندا لانصرافك كلية عن العربية إلى الإنجليزية، وإلى الإنجليزية بالذات، ولكن ذلك كله لم يصل بى إلى شىء مفيد».

❑

ومن الطريف أن نتأمل الروح التى كتب بها المستشار محمد توفيق خليل هذه الرسالة وهو يتحرز فى ثناياها لكل ما يمكن أن يثيره الدكتور فطين من دفوع، وعلى سبيل المثال فإنه يورد العلل المحتملة لمثل هذا السلوك ويستنطق بها زملاءهما من أعضاء الروتارى على نحو مكثف ويقول:

«من أجل ذلك اتجهت مرة أخرى إلى الزملاء لأستطلع رأيهم: ماذا عسى ياترى أن يكون السبب فى إصرارك على تنحية لغتنا العربية جانبا، وفى الخلاف القائم بينى

وبينك حولها. إذ أننى قدرت أنك تنظر إليها من خلال منظار قاتم اللون، فيخفى عليك صفاء جوهرها وسناؤه فتزدريها، فى حين أنى أنظر إليها بالعين المجردة فأراها على حقيقتها جديرة بكل تقدير».

«قال قائل من بين هؤلاء الزملاء: ربما كان السبب أنك ترى فى أفضلية الإنجليزية مجاملة لابد منها للزوار من الروتاريين الأجانب الذين لا يعرفون العربية، فقلت: إن أعضاء نادينا الذين لا يعرفون الإنجليزية - وكثيرا ما هم - أحق وأولى بمثل هذه المجاملة. فقيل إن المجاملة المعنية هى مجرد توجيه بضع كلمات تقال فى تحية هؤلاء الزوار، فقلت: إنه لو كان الأمر قاصرا على ذلك لما كان لى اعتراض، فإنه لا يضير أعضاء النادى الذين لا يعرفون الإنجليزية أن يفوتهم فهم ما يقال بها فى هذا المقام، وذلك بغض النظر عن أن من المحقق أن من بين الزوار الأجانب - وهم بالتأكيد قلة - مَنْ لا يفقه شيئا من الإنجليزية على الإطلاق، أما والواقع عكس ذلك تماما، فإن المشاهد أنك يازميلى لا تقف عند حد مثل هذه التحية، بل إنك تذهب فى تصريف سائر الأعمال بالإنجليزية، من بداية الاجتماع إلى نهايته، ومع ذلك فإنه حتى فى هذه الحال لا يكون لى اعتراض إذا نقلت إلى العربية ما تقوله بالإنجليزية، لأن كل ما ابتغيه هو تمكين أعضاء النادى الذين لا يعرفون الإنجليزية من فهم كل ما تقول، فذلك حقهم، بل هو واجبك.

وعند ذلك قال آخرون:

- ربما كان السبب أنك ترى فى استعمال الإنجليزية دعاية طيبة لناديك ولبلدك.

- أو كان ذلك لأنك تجد العربية فقيرة فى المبانى والمعانى.

- أو كان لأنك تجيد التحدث بالإنجليزية دون العربية.

- أو لأن فيك ضعفا للإنجليزية، يجعلها دائما المفضلة لديك.

ـ أو أن يكون لك مـأرب خـاص تنشـده لنفـسك من وراء إيثـار الإنجليـزية على العربية.. وهكذا إلى آخر الاحتمالات».

❑

هكذا فإن المستشار توفيق خليل تعمد أن ينسف ظن الدكتور فطين أو ظن مَنْ يظنونه يفعل ذلك من أجل دعاية طيبة يقدم بها صورة بلاده، وهو يقدم أحكامه فى هذا الصدد بقوة واقتدار، ويبدأ فى تفنيد الدفوع جميعا ويقول:

«فقلت: اللهم إنى لا أرى فى هذه الاحتمالات جميعها ما يبرر موقفك من لغتنا العربية الجميلة:

«أولا: لأن الدعاية الطيبة لناديك ولبلادك التى قال بعض الزملاء إنها ربما كانت الهدف الذى ترنو إلى تحقيقه لهما، أما هذه الدعاية فلا يمكن أن يتحقق منها شيء يأتى من هذا الطريق، إذ أن كل ما يمكن أن يقوله الزوار الأجانب فى بلادهم هو أن اللغة الإنجليزية هى اللغة الوحيدة للمخاطبة فى نادينا، ولست أجد فى ذلك دعاية طيبة لناد عربى فى بلاد عربية، لغة أعضائه الأصلية هى اللغة العربية».

«والعكس فى تقديرى هو الصحيح، فإن ذيوع هذه الحقيقة عن نادينا خارج بلادنا، معناه الصريح أننا نتنكر للغتنا القومية ونؤثر عليها لغة قوم احتلوا بلادنا على مدى عشرات السنين وأذلونا واستنزفوا ثرواتنا، وَلاشك فى أن ذلك أسوأ دعاية يمكن أن تُرمى بها بلد من البلاد».

❑

وفضلا عن هذا فإن صاحب الرسالة ينتبه إلى ما ينبغى أن يكون كل مهنى رفيع واعياً له من ثراء اللغة العربية وقدرتها على التعبير والاتساع للمعانى الجديدة فضلاً عن امتيازها بالمصدر العظيم الذى وهبها الله وهو القرآن الكريم، وهو يعبر عن هذا المعنى بوضوح شديد فيقول:

«ثانيا: لأن لغتنا العربية ليست فقيرة، لا فى المبانى ولا فى المعانى، فهى واحدة

من اللغات الحية القليلة العدد، بل إنها فى مقدمتها سلامة وعذوبة، وغنى فى المبانى والمعانى، وهى لغة البيان والبديع، وهى فوق ذلك كله لغة القرآن العظيم الذى تعرف أنت يازميلى أن الله تعالى نوه بمنزلتها السامية فى أكثر من موضع فيه، أذكر لك على سبيل المثال قوله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، أى فى الفصاحة والبلاغة ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، ثم قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

«ولغتنا وهذه منزلتها لا يمكن أن تقصر عن أن تمدك بفيض من محيطها الواسع، بكل كلمة تحتاج إليها فى التعبير عن أى أمر يدور فى خلدك».

❑

وينتبه المستشار توفيق خليل إلى الرد على الظن الذى يشيع فى بعض الأحيان من أن الذين يسلكون هذا السلوك يصدرون عن طبيعة شاذة تمثلت فى إجادتهم للغة الأجنبية بأكثر من إجادتهم للغة العربية نفسها، وهو يقدم براهينه على أن هذا الظن الشاذ مستحيل الحدوث، ولا شك فى أن براهينه صائبة كما أنها قدمت بطريقة متميزة فى العرض والاستدلال بالاضافة إلى كونها متمتعة بالمنطق القانونى الصافى الذى لا يحتمل العبث الذى لازلنا نمارسه من حين لآخر، وهو يقول:

«ثالثا: لأن إجادتك للإنجليزية أكثر من إجادتك للعربية أمر أشك فيه، لأنك بحكم أنك عربى، ابن عربى، ولدت وترعرت فى بيئة عربية، وفى بلد أصيل فى العروبة، وتثقفت ثقافة عربية عالية، لأنك ـ وهذه حالك ـ لابد أن تكون متمكنا من العربية لدرجة لا يصل إلى مستواها الرفيع مستواك فى الإنجليزية، بالغة ما بلغت طلاقة لسانك بالتحدث بهذه العربية الأعجمية، نتيجة لإقامتك بعض الوقت فى البلاد الإنجليزية».

وهنا يحرص المستشار على أن يلزم زميله الطبيب الحجة لافتا نظره إلى أنه رآه يتحدث العربية باقتدار.

«أما ضعفك للإنجليزية فأمر أراه بعيد الاحتمال، فلطالما رأيتك تجرى حديثك كله بالعربية وحدها، ليس فى خارج قاعة الاجتماعات فحسب، بل وفى داخلها، اللهم فيما كان متصلا بتصريف الأعمال، فلا محل فيه عندك لغير الإنجليزية المحظوظة».

❑

ولا يقصر المستشار محمد توفيق خليل فى تبرئة زميله من الأغراض الشخصية وإن كان بسلوكه هذا يحاول أن يدفعه إلى الارتقاء الذى لابد منه لمثل مَنْ هم فى طبقته وعلى شاكلته.

«رابعا: أما القول باحتمال وجود مأرب خاص لك يدعوك إلى الاستمساك بالإنجليزية وحدها، فقد استبعدته كلية، بل إننى نبذته، لأنك بحمد الله بما لك من مجد أثيل، أسبغته عليك مهنتك الشريفة، كطبيب حاذق فى طبه، بلغ الذروة من مهنته، بما لك من هذه المكانة السامية، فى غنى حتى عن مجرد التفكير فى أى مطلب يأتى من هذا الطريق، أو من غير هذا الطريق».

❑

ويعود المستشار محمد توفيق خليل ليثبت على زميله أنه نبهه إلى ما ينبغى أكثر من مرة دون جدوى رغم مرور الأيام والأسابيع، ورغم الاتفاق على تحكيم الرؤساء السابقين للنادى فى الموضوع:

«... ولما طال الحوار بينى وبين زملائى على هذا النحو، دون أن نهتدى إلى حقيقة الباعث الذى يدعوك لنبذ العربية، قررت أن أرجع إليك فقد تكون لديك أسباب غاب عنى ذكرها، وفعلا اتصلت بك على ما لابد أنك تذكر قبيل اجتماع لأعضاء النادى لاحق للاجتماع الذى وقعت فيه مأساة اللغة العربية على الصورة التى أشرت إليها فيما تقدم، ثم دار حديث حول موقفك من العربية انتهى بالاتفاق على عقد اجتماع قوامه رؤساء النادى السابقون للنظر فى إيجاد حل للخلاف القائم بينى وبينك فى هذا الصدد».

«والآن وقد مرت الأيام تلو الأيام، والأسابيع تلو الأسابيع، دون أن يعقد الاجتماع المتفق عليه فيما بيننا، ودون أن تحدث فى موقفك من العربية أى تغيير، الآن والأمر كذلك كان لابد لى من أن أكتب إليك لأطلعك على ما عندى من أسباب لأفضلية إبدال الإنجليزية التى تتشبث بها لغير سبب ظاهر أو مستور، بالعربية التى هى لغة أعضاء نادينا الأصلية، ولغة بلادنا العزيزة».

❑

ولا يبخل المستشار محمد توفيق خليل على زميله بأن يطلعه على ضرورة العدول عن سلوكه، وأن يعدل عن هذا السلوك، وهو لا يزال فى موقع المسئولية، كى لا يصبح مسئولا عن القدوة لخلفائه ويتحمل وزر هذا التقليد الذى من الممكن أن ينشأ فى سهولة.

«وأستأذنك قبل ذلك فى أن أقول لك إنى أطمع فى أن يُحَل ما بيننا من خلاف حول هاتين اللغتين، قبل أن تنتهى مدة رئاستك للنادى، حتى لا تتحمل وزر العودة بالنادى إلى الوراء، بعد أن تم تمصيره منذ زمن بعيد، وكذلك لأنى أهدف إذا لم يحل هذا الخلاف قبل ذلك، إلى إبقاء اعتراضى على مسلكك مقيدا فى سجلات النادى يتحتم معه على مَنْ يخلفك فى رئاسة النادى أن ينظر فيه قبل أن يتخذ من موقفك من العربية مثلا يحتذى».

«والآن دعنى يازميلى أبين لك الأسباب التى أرى أنها تستوجب إيثار العربية على الإنجليزية:

١ ـ الأسباب المستنبطة من خلال الحوار الذى دار بينى وبين بعض الزملاء، و هو الذى سردت فيما تقدم خلاصة وافية لمضمونه، وقد كان من الجائز أن أكتفى بها لإقناعك بالعدول عن موقفك من العربية، لولا أن الظواهر توحى بأن الخلاف بينى وبينك حول هذه اللغة لا ينتهى بسهولة، ومن أجل ذلك رأيت من الأفضل أن آتيك بمزيد من تلك الأسباب.

٢ ـ اللغة العربية هى اللغة الأصلية لأعضاء نادينا ولجميع مواطنينا من مسيحيين ومسلمين على السواء، وهى اللغة الرسمية لبلادنا، فمن واجبنا كمصريين أن نجعل لها المقام الأول فى نادينا، بطبيعة الحال، ومن واجبنا كروتاريين أن نعتز بها كاعتزازنا بمهننا وبحرفنا، وبأنواع الأعمال التى نمارسها، وذلك تمشيا مع مبادئ الروتارى وبمنطوق ومفهوم قانونه الأساسى.

٣ ـ اللغة العربية هى لغتنا القومية كعرب، وهى لغة إخوان لنا فى العروبة يناهز عددهم المائة مليون نسمة، ينتشرون فى بقاع شاسعة من الأرض تمتد من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى.

٤ ـ اللغة العربية من أقوى الروابط التى تربطنا بهؤلاء الملايين، كما أنها إلى جانب ذلك تربط المسلمين منا ـ وهم الغالبية العظمى فى بلادنا ـ برباط لا تنفصم عراه، بمئات الملايين من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها عن طريق القرآن العظيم، الذى أنزله الله تعالى بهذه اللغة العربية الفصيحة.

٥ ـ اللغة العربية من أبرز مقوماتنا الشخصية كعرب، وليس يغيب عنك بداهة كعربى أن العرب على اختلاف بلادهم ومستوياتهم يجعلون لهذه الحقائق أهمية كبرى، وبخاصة لأن موقفهم الحاضر يوجب عليهم أن يتعاونوا على جمع كلمتهم أينما كانوا، وعلى توحيد صفوفهم وتنسيق جهودهم وحشد طاقاتهم، وما أحوج بلادنا إلى ذلك كله فى هذه الأيام، لدحر عدو قوى غاشم، يرابط فى قطاعات كبيرة من أرض وطننا ومن أرض الوطن العربى العزيز.

٦ ـ اللغة العربية بما لها من مكانة مرموقة بين اللغات الحية القليلة العدد، جُعلت لغة رسمية فى بعض المنظمات الدولية، ولغة هذه مكانتها لا يسوغ لأحد أن يستهين بها، وكم يكون منكرا إذا عُزيت هذه الاستهانة، إلى أحد من أبناء الناطقين بالضاد.

٧ - اللغة الإنجليزية، إذا كان استعمالها مستساغا فى النادى عند إنشائه فى بداية القرن الحاضر بحكم أن مؤسسيه كانوا من الأجانب الذين لا يجيدون الحديث بالعربية، فإن وضع النادى تغير منذ عشرات السنين، أى حين كثر عدد أعضائه المصريين، ذلك أنهم تعاونوا على تغييره، وجعل اللغة العربية اللغة الأولى فيه، وتم لهم ما أرادوا على إثر قيام الضعيف، كاتب هذه السطور، بترجمة المصطلحات الأجنبية [يقصد مصطلحات النشاط الروتارى وهى كثيرة وعديدة] إلى العربية، وكان ذلك فى بداية الأربعينيات من هذا القرن، ولاتزال هذه الوثائق العربية فى متناول أعضاء النادى للرجوع إليها عند الحاجة.

وقد يكون من المفيد أن أذكر لك يا زميلى أن مجهودا مماثلا بذل فى تلك الأيام لجعل اللغة العربية لغة سائدة فى منظمة أسسها الإنجليز فى القاهرة إبان الحرب العالمية الثانية، وأطلقوا عليها «الاتحاد المصرى الإنجليزى»، وكان الغرض من تأسيسها العمل على إزالة سوء التفاهم القائم بينهم وبين المصريين، بسبب احتلالهم لبلادهم، فقد حقق المصريون بغيتهم منذ ذلك الزمن البعيد أيضا.

فهل يجوز بعد ذلك كله أن تعود بنا إلى الوراء وتهدم كل ما بنيناه غافلا ما بذلناه من جهد لإعلاء مكانة لغتنا العربية، لا لسبب غير إحلال لغة أعجمية لا ترقى، فى أعلى مستوى لها، إلى أعتاب لغتنا العربية الجميلة.

ولقد كان ينبغى عليك ياصديقى، قبل أن تنظر إلى العربية هذه النظرة البغيضة التى قد يكون فيها القضاء على النادى، أن تدخل فى الاعتبار المجهودات المركزة التى بذلت فى الماضى لتمصيره، ولاشك عندى فى أنك لو فعلت ذلك لانقلبت الآية، ولتبدلت نظرتك إلى العربية، من مناهضة إلى مؤازرة، ولكانت النتيجة زوال الخلاف بينى وبينك، وإبعاد الخطر عن هذا الصرح العظيم الذى عريناه قبل أن تئول رئاسته إليك بعشرات السنين.

٨ - القاعدة المقررة فى جميع نوادى الروتارى هى أن تكون لغة البلاد التى أنشئت

فيها تلك النوادى، هى اللغة السائدة بين أهل تلك البلاد، ولست أقول بذلك من عندياتى، إنما هو أمر لمسته بنفسى فى كثير من اجتماعات أعضاء نوادى الروتارى فى مختلف البلدان، أذكر على سبيل المثال بعض النوادى فى سويسرا وألمانيا الغربية وبلجيكا وفرنسا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا، إذ أنها التى تعتز بلغتها، وتؤثرها على العربية لغتك الأصلية ولغة بلادك. وأشهد بأنى لم اسمع أحدا من أعضاء تلك النوادى يتحدث فيها بلغة غير اللغة الأصلية لبلاده، واذا كنت فى ريب مما أقول فسل الأعضاء من نادينا وهم كثر الذين حضروا فى اجتماعات مثل هذه النوادى، ينبئوك بالخبر اليقين. فخبرنى بالله يازميلى لما تشذ أنت عن العمل بهذه القاعدة التى لاعوج فيها.

❑

ولا يهمل المستشار محمد توفيق خليل الإشارة إلى موقف الحكومة المصرية من النادى ومن مثل هذه القضية، وهو يلجأ ككل من عاشوا هذه الفترة إلى سلطة الشمولية كى يوجه بها زميله الدكتور فطين ويلفت نظره، ويقول:

«وأخيرا وليس آخرا، دعنى يا صديقى أوجه نظرك إلى أمر قد يكون غاب عنك، أريد أن أقول إن المنظمة الروتارية، منظمة غير معترف بها فى جميع البلاد الاشتراكية الصديقة - وهذه البلاد تمدنا كما تعرف، بالعون المادى والأدبى، وتقف منذ أمد بعيد، إلى جانبنا فى جميع ما نتعرض له من أزمات. وبلاد صديقة، هذا موقفها الكريم من بلادنا، كانت تشعر بشيىء من الارتياح لو أنا حذونا حذوها، فلم نبق على فروع هذه المنظمة عندنا ولو من باب المجاملة. لكن حكومتنا الرشيدة تجاوزت عن هذه الاعتبارات جميعها، وأذنت ببقائها ممثلة فى عدد قليل من النوادى فى مقدمتها نادينا، أقدمها وأرسخها قدما وأكثرها أعضاء، فكان حقا عليك يا زميلى أن تقابل هذا التسامح بالعرفان بالجميل، بدلا من أن تندفع بكليتك إلى مناوأة اللغة العربية لغة البلاد، دون أن تفطن ياعزيزى الدكتور إلى ما قد يجره ذلك على ناديك

من مخاطر، بالنظر إلى اعتزاز أولى الأمر، بها أكبر الاعتزاز للأسباب التى ذكرتها لك فيما تقدم.

فقل لى بالله، كيف غابت عنك هذه الحقيقة. ألا تخشى مثلا أن يحمل موقفك المعادى لهذه اللغة، أولى الأمر، على إعادة النظر فى شأن النادى، وأن ذلك قد يجر إلى التفكير فى غلقه، ومن يدرى فقد يقع الغلق، وينهدم بناء هذا الصرح العظيم[!!!!] . وإنى لأعيذك أن ترضى لناديك بهذا المصير المحزن. أو أن ترضى أن يقال إن نهاية منظمة الروتارى فى مصر، كانت بسبب تشيعك للغة أعجمية، أقل ما يقال فيها إنها لا تمت بصلة للغتك الأصلية، ولغة بلادك.

فاتق الله يا أخى فى نفسك، واتق الله فى ناديك، ولا تعرضه لهذه الكارثة فإنه جدير بالبقاء، على الأقل لما فيه من مزايا لأعضائه لايستهان بها.

هذا هو كل ما أريد أن أقوله الآن، فى خطل المنهج الذى نهجته يازميلى حيال لغتك العربية. وكل ما أرجوه أن تنظر فيه بهدوء وبعمق، قبل أن تتخذ فيه قرارك النهائى.

ولى منك رجاء أخير، هو أن تغفر لى ما عسى أن تجده فى ثنايا كلمتى من عبارة قد لا ترتاح إليها. فإن عذرى فى ذلك:

أ ـ لهفتى على مستقبل النادى، الذى ضحيت فى سبيل تمصيره ماضحيت.

ب ـ أنى جبلت على قول الحق، والجهر به، دون أن أرهب شيئا على الإطلاق. وهذا طبع لا أستطيع التغلب عليه، إذ لاحيلة لمخلوق فيما صنع الخالق.

وفقك الله فيما أنت مقدم عليه، وهداك فإنه، تعالى هو الهادى إلى سواء السبيل.

❑

هكذا كانت طائفة من المصريين المثقفين تجد مجالا لمثل هذا الحوار الدال على خوف شديد على الذات، وتمسك أشد بها، فى وقت كانت السماء كلها ملبدة بالغيوم عقب هزيمة ١٩٦٧ .

الطربوش والقبعة وزى دار العلوم

ينبئنا التاريخ أن التحول الاجتماعى لا يقدم نفسه على الصورة التى يستقر بها فى نهاية الصراع، وإنما هو (أى الصراع من أجل التحول) يقدم نفسه فى صورة مغايرة لطبيعته وإن كانت لا تختلف عن ثوبه فى النهاية؛ أو هى لا تختلف عن أن تكون بمثابة ثوب للصراع أو مظهر من مظاهره.

ويمكن للذين يطالعون التاريخ المصرى الحديث والمعاصر أن يجدوا كثيراً من الأمثلة على هذا النمط من خلال قضايا كثيرة صاغت فكر التطور الاجتماعى.

من هذه القضايا قضية الزى (وزى الرأس بصفة خاصة)، وليس يخفى علينا أن الزى فى مراحل كثيرة من التاريخ يعكس «مضموناً» وراءه، وهذا هو ما حدث فى قضية أبناء مدرسة دار العلوم حين ثاروا فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين مطالبين بأن يتغير زيهم.. ومن الطريف أن عقدين تاليين من الزمان كانا كافيين لا لتغيير زى دار العلوم فحسب ولكن لتغيير طبيعة المدرسة من مدرسة عليا إلى كلية

جامعية تابعة لجامعة القاهرة. ومن الطريف أن سبع سنوات أخرى أو أكثر بقليل كانت كـافيـة لاختـفـاء الطربوش الذى ثار طلاب دار العلوم من أجله قـبل ربع قـرن من الزمان!!.

ثم تمضى السنوات بعد هذا على نحو ما مضت بعد إنتهاء هذه القضية فإذا الزوابع والعواصف التى ثارت بسبب قضية كان أصحابها فى وقتهم يرونها أمراً مهماً، وقد أصبحت بمرور الزمان أمراً إداً أو عجبا ، بل أصبح اللاحقون ينظرون إلى القضية الساخنه فى وقتها وكأنها لم تكن قضية من الأساس، وربما يبتسم اللاحقون لاستحواذ مثل هذه القضية بذاتها على اهتمام مَنْ سبقوهم، بل ربما يسخرون من كل ما تمثله القضية.

هذا بالضبط هو ما حدث مع قضية تغيير زى دار العلوم من الزى الأزهرى إلى زى الأفندية وما كـان يترافق مع هذا بالضرورة من تغـيـيـر اللقب من الشـيخ إلى الأفندى.

ومن العجيب أن هذه القضية قد شغلت الرأى العام فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين إلى الحد الذى نجد فيه أحد الاساتذة الاعلام البارزين وقد تقدم بأحد بحوثه للترقية ببحث عنوانه: «موقف الصحافة المصرية من قضية العمامة والطربوش»، وسننقل عن بحثه بعض الآراء التى لخصها.

ولنطالع القصة من بدايتها: فها هم أولاء طلبة دار العلوم مدرسة عليا متميزة تقبل خريجى الأزهر، ولكنهم لا يخرجون منها خريجى أزهر.. وهذا هو أدق وصف لدار العلوم فى ذلك الوقت، فلم تكن قد ضمت بعد إلى الجامعة المصرية لتتحول من مدرسة عليا إلى كلية جامعية تخرج خريجى جامعة (حدث هذا فيما بعد فى منتصف الأربعينيات).. ولم يكن حكمها حكم الأزهر يتخرج فيه طلبة بالشهادة العالية فالعالمية.. وهم فى دارهم بعيدون عن الأزهر وعن الجامعة، فى حى المنيرة، يريدون أن يستبدلوا العمامات التى أخذوا بلبسها بزى آخر وليكن الطربوش.. وهو يومئذ سيد الموقف، فـهـو على رءوس الأبناء من الوزراء والباشـاوات والبكوات، والموظفين

والأعيان، وصغار الأفندية، مشروعات الأفندية (من طلبة الجامعة مثلا)، واقرأ معى عبارات الأستاذ أحمد الصاوى محمد فى «الأهرام» (١٦ فبراير ١٩٢٦) حيث يعبر عن هذا المعنى فيقول:

«..... فالعمامة فى الواقع لا تنفعهم بشىء وتؤذيهم فى كثير.. ألم تر كيف تصرف عنهم فى الطريق عيون المها.. فإذا جدّ الجد فالعمامة تحول أيضا بينه وبين الاندماج فى سلك الوظائف العامة فى غير التعليم».

❑

هكذا تأججت رغبة هؤلاء الشباب (الطلاب) فى أن يغيروا الزى... وقد تصادف أن تأججت رغبتهم هذه فى وقت كانت الوزارة التى تتولى الحكم هى وزارة زيور وهى من وزارات القصر الضعيفة بالطبع. ولكن كانت هذه الوزارة الضعيفة تضم وزيراً [مراوغا] للمعارف هو على ماهر باشا كما كانت فى صراع مع الوفد والأحرار الدستوريين، وهكذا كسب الطلاب تعاطف الزعماء التقليدين بمن فيهم زعيم الأمة سعد زغلول نفسه.. ويلخص الأستاذ محمد عبدالجواد صاحب تقويم دار العلوم محاولة هؤلاء تغيير الزى على نحو مسرحى فيقول:

«ساء طلاب الدار ـ وقد صار معهدهم زهرة المعاهد العليا ـ أن يكون لباسهم القديم، فارقاً بينهم، وبين إخوانهم طلبة المدارس العليا الأخرى. كما ساءهم أن يكون لزيهم منزلة غير مستحبة، أوغير محترمة بين الجمهور. وطالما جاشت فى نفوسهم، لذلك، رغبة تغيير الزى. غير أن ماحدث من فكرة مقاطعة التجارة الإنجليزية فى سنة ١٩٢٤، حرك ما كان ساكناً، وأظهر ما كان كامناً، فاهتم الطلبة بالتفكير فى اتخاذ زى جديد، واحد، لجميع المدارس من نسيج وطنى، إلا أن هذه الفكرة لم تظهر فى عالم الوجود».

«ظلت مسألة الزى الشغل الشاغل للطلبة، وموضوع حديثهم، يتناجون بشأنها فيما بينهم، حتى جاء شهر يناير سنة ١٩٢٦، فأخذوا فى نشر الدعوة له بصفة جدية، وأحصوا مَنْ يستطيع الحضور، بعد إجازة وسط السنة فى ٦ من فبراير سنة ١٩٢٦

بالزى الإفرنجى، فكانت نتيجة الإحصاء أن وجدوا أغلبية، يُعتمد عليها فى تنفيذ فكرتهم. وقد تطورت الفكرة فى ظرف أسبوع وانتهت بعقد مؤتمر من الطلبة، بمدرج المدرسة، فى الأسبوع الذى نهايته ٢٢ من يناير سنة ١٩٢٦، قرر أن يبعث إلى جميع أولياء أمور الطلبة، يدعوهم إلى تأييد حركة تغيير الزى. ولم يكد ينتهى امتحان نصف السنة، حتى خرج منه الطلاب، متعاهدين على أن يحضروا جميعاً بزيهم الجديد، إلى فناء الدار فى يوم الجمعة ٥ من فبراير سنة ١٩٢٦. وقد شجعهم على ذلك، أن مسألتهم صارت موضع البحث فى جميع المنتديات، وحديث المجالس فى جميع الجهات، واحتلت من الصحف والأنباء البرقية محلا ظاهراً.

«وعلى الرغم من محاربة المدرسة للمشروع، وتهديد أولياء الأمور، حضر الطلبة يوم السبت ٦ من فبراير المذكور بزيهم الجديد، بعد أن وضعوا حراساً على مفترقات الطرق، لمنع ضعاف النفوس من تسربهم إلى المدرسة، بزيهم القديم، حتى لا يفشل المشروع».

«ولما اقترب «الأفندية» من باب المدرسة وجدوا الجنود حراساً يمنعون غير «الشيوخ» من دخولها، فلم يجدوا بدا من الاحتيال على الدخول،مع تنفيذ مأربهم، فعمدوا إلى ستر الزى الإفرنجى بارتداء «الكاكولة» ووضع العمامة على رءوسهم، حتى إذا دخلوا المدرسة ألقوا العمامة وخلعوا «الكاكولة» وبقوا بالزى الجديد. وقد تم ذلك فعلا، وكان صراع عنيف بينهم وبين أولى الأمر، ومشادة مع الجنود، الذين أرادوا إخراجهم بالقوة، بعد أن جازت عليهم الحيلة. وقد أبى الطلبة إلا أن يتحصنوا فى دارهم، ويلزموها ليلا ونهاراً، ومكثوا فيها ثلاثة أيام بليلتين، يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء، فى برد فبراير الشديد، ولم يصدر قرار حاسم فى هذا الموضوع، إلى نهاية السنة».

أخذت الحكومة تضيع وقت هؤلاء الطلاب دون أن تنظر إلى طلبهم بعين العطف كما يقولون، ومثل الحكومة فى هذه المعالجة المستنزفة للوقت وزير المعارف المراوغ على ماهر باشا.

لنتأمل موقف على ماهر باشا صاحب القرارات المتوالية الهادفة إلى عودة دار العلوم إلى العمامة، ولم يكن لعلى ماهر فى موقفه عقيدة يدافع عنها، إنما هى مواقف يضطر إليها الوزير الموجود فى الحكومة أو فى الحكم، وطالما هو فى الحكومة فهو المضطر، ولعل أظرف ما يعبر عن موقف على ماهر هو ذلك الكاريكاتير الذى نشرته مجلة «الكشكول» وقد رسمته واقفا خلف مكتبه وقد وضع يده على ذقنه وأمامه نبوية موسى وتلميذان يلبسان القبعة، وتقول له نبوية موسى: «أنت الدلعدى ياللى ماكنتش طرابيش دار العلوم عاجباك أدى إحنا جينالك بالبرانيط.. إن شاء الله تكون عاجباك»، فيرد عليها علىّ ماهر بقوله: «لو كان علىّ أنا.. أنا كل شىء من ده يعجبنى.. برانيط.. طرابيش.. لبد.. طواقى.. مناديل بقوية.. لكن المسألة مش بإيدى!».

وعلى الرغم من أن المقصود من نكتة الكشكول هو إظهار على ماهر فى صورة مَنْ لا حول له ولا قوة (من باب اتهام الشخصيات الوزارية فى الحكومات غير الحزبية بأنها ليست إلا أداة القصر)، فإن كاريكاتير الكشكول من ناحية أخرى يعطى لعلى ماهر العذر الذى لم يمكنه من التصرف بما يتوافق مع فكره المستنير!!

والواقع أن على ماهر قد ظل أكثر حياته مقيداً بمواقعه التى يسعى إليها عن أن ينفذ الإصلاح الذى ينتظر من صاحب عقلية مثل عقليته المنادية بالإصلاح الاجتماعى.

أما زعيم الأمة سعد زغلول باشا فإنه لم يكن يرى بأسا فى أن تتولى صحيفة الوفد «كوكب الشرق» الحملة الشعواء على عمامة دار العلوم وعلى على ماهر وعلى زيور باشا رئيس الوزراء يوما وراء يوم، حتى إذا تجددت مسألة القبعة فى العهد الذى يأتلف فيه الوفد مع الأحرار الدستوريين ويتولى عدلى رئاسة الوزارة فإن بياناً لطلبة الوفد يصدر ويشير إلى حركة ائتلاف الأحزاب التى قضت على كل مظاهر الخلاف ويطلب من الطلاب عدم إثارتها مرة أخرى تلبية لرغبة بعض ذوى الغايات، ويستند هذا البيان إلى حقيقة مهمة وهى أن «سعدا نفسه يرتدى الطربوش». كذلك كان سعد زغلول نفسه يصرح بالمعارضة لأصحاب فكرة التحول إلى القبعة ويجيب عن سؤال

الطلبة الذين سألوه عن رأيه فى ترك الطربوش وارتداء القبعة فيرد بماعرف عنه من حكمة صياغة جيدة لأفكاره ويقول:

«إنه يعتبر الشعائر والعادات التى عمت بين قوم ورسخت فيهم وتلقاها الأبناء من الآباء، من مقومات القومية ومشخصاتها ومنابع نمائها تفيض على مَنْ تمكنت فيهم شعورا من المودة والأنس، يعرف مقداره كل مَنْ تتبع تواريخ الأمم، ومَنْ سمحت له فرص تلاقى فيها بمَنْ شاركه فى شعائره عاداته.. ومَنْ خالفه فيها.. وإن الذى يلاحظ ميول نفسه وانفعالاته وهى تختلف بين الأنس والوحشة والمودة والنفرة والانشراح والانقباض، يعرف مقدار ما لهذه الحالات من التأثير فى تربية الروح الوطنية وتقويتها.. ومن أجل هذا يجب أن يحافظ عليها كل المحافظة، وألا يبدل شيئاً منها بآخر، إلا إذا كان مضرا ضررا عاما أثبته الاختبار.. لأن العمل على تبديله حين لا ضرر فيه، تقليدا للقوىّ أو رغبة فى كسب احترام مزيف.. هو إسلام [يقصد ما نعبر عنه الآن بقولنا: تسليم] للقومية وتفريط فى تنفيذ الوصية التى كتبها الآباء علينا.. وهروب من الدفاع عن الوطنية الصحيحة.. وسقوط فى الهمم!!»

❑

وينسحب سعد باشا فى ذكاء بأحكامه هذا إلى أمور سياسية أكثر أهمية من قضية غطاء الرأس فيقول:

«وما مثل الذين يبدلون شعارهم بشعار غيرهم إلا كمثل الذين يتبرأون من أنسابهم وينتسبون إلى غيرهم واهمين أنهم يكسبون شرفا بهذا الانتساب، ولكنهم لا يكسبون إلا غضب الآباء والا أن ينزلوا فى غيرهم منزلة الادعياء».

وإذا انتقلنا إلى موقف الأزهر ورجاله ـ وهم المتهمون ظلماً بالرجعية دائما ـ فإننا نجد فيه نموذجين رائعين لحرية الفكر والاجتهاد فى الرأى، فبينما صرح الشيخ أحمد شاكر وكيل الجامع الأزهر للطلبة بأن الدين لا يكلف أحدا إلا بما يستر العورة وله أن يلبس بعد ذلك ما يشاء، فإن شيخ الأزهر نفسه ـ لا الوكيل ـ يرفض التصريح للطلبة بل

إنه يهـددهم ويقـول: «إن لم تعـودوا إلى زيكم الأصلى.. فـإنى أكـون مـضطرا إلى إخراجكم من المدرسة واستبدال إخوانكم الأزهرية بكم».

ومن الجدير بالذكر أن الإمام محمد عبده كان قد أفتى من قبل هذا الخلاف بأكثر من عقدين، وهو مفتى الديار المصرية، بجواز لبس القبعة!

وتسجل لنا صحافة ذلك الوقت أن أنصار القبعة أرسلوا إلى الجمعية الطبية المصرية يستشيرونها فى المسألة، وجاء رد هذه الجمعية متضمنا أن «الطربوش الحالى بسبب نوع قـمـاشـه وشكله ولونه وخلوه من المسـام وثقله يـدفئ الرأس أكـثـر من اللازم فى الصيف ويسبب فيه عرقا غزيرا ومضايقة وصداعا، فهو بلا نزاع من الوجهة الصحية ضار بالعينين والرأس. والجمعية ترى أن أفضل لباس للرأس يوافق جو مصر فى زمن الصيف هو القلنسوة البيضاء (الهلمت التى يلبسها عساكر الجيش البريطانى بالبلاد الحارة.. إنما يجب أن تكون بيضاء اللون) المصنوعة من الفلين والتى بها ثقوب كافية للتهوية فى أعلاها وبدائرتها السفلى شريط من الجلد.. إلخ. أما فى الشتاء فالطربوش أقل ضررا منه فى الصيف إذا كان لابد من استعماله، وإلا فالقبعة العادية أصلح منه فى الشتاء أيضا».

❑

وإذا ذهبنا نبحث عن صدى الموضوع فى محيط الشباب والطلبة فاننا نجدهم كالعادة فى مثل هذه المواقف أقرب ما يكونون إلى أن يكونوا ضحية لبعض الأفكار التى يعرف أصحابها وصانعوها ما تحتويه من الضلال.

هذا هو حسن ياسين وكان أحد زعماء الطلبة الوفديين المبرزين المشهورين يكتب فى «الأهرام» فيحمل على المنادين بلبس القبعة «الذين يريدون أن يوغروا صدور الإسلام والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وأن يوغروا صدور الآباء والأمهات، وأن يقززوا نفوس هذا الشعب العظيم، ويباعدوا ما بين الطلبة وبينه»..

وهذه ليست إلا صورة من صور التطرف الذى يتخذ إلى الإقناع بالفكرة ترتيبا منطقيا متسلسلاً فى سرعة عجيبة..

وإليك صورة الوجه الآخر من هذا التفكير الشبابى المركوب بالأمواج يركبها الذين يجيدون ركوبها حيث يقول واحد من شباب الطرف الآخر ضمن ما يقول:

«فتغير الأزياء تغيير تحسين إنما يدل على اهتمام بالنهضة الوطنية.. والنهضة الوطنية معناها طلب الحقوق.. وطلب الحقوق يضايق السادة المستعمرين».

وعلى هذا فإن «الوقوف فى حركة التجديد والتقدم فى الأزياء هو فى نظر الكثيرين وقوف فى سبيل النهضة الوطنية العامة».

❑

ولنعد إلى موقف السياسيين لنتأمل مواقف اتجاهين مهمين لعبا دورا فى السياسة المصرية.. فهذا محمد محمود باشا وكيل حزب الأحرار الدستوريين فى ذلك الوقت ثم زعيمه بعد هذا لا يفتأ ـ هو ومَنْ على شاكلته ـ ينادى بما قد نعتبره حدوداً قصوى من التشبث بالقديم حتى إذا اضطرته الضغوط والظروف العملية أو حتى المناقشات لم يجد بدا من التخلى عنها شيئا فشيئا أو دفعة واحدة.. لكنه حينئذ يبحث عمن يحمله المسئولية عن هذا التخلى.

ونحن نجد هذا واضحا فيما يُروى من أمر المقابلة التى تمت بينه وبين وفد من اللجنة الداعية إلى نشر القبعة، وقد ذهبوا يسألونه عن رأيه فإذا هو يسألهم بدوره عن السبب الذى يدفعهم إلى تغيير الطربوش (كأنه يبحث عن الفرضية التى يبدأ منها الجدال) ويقول لهم: إنهم سيضيعون قوميتهم إن هم تركوه، فيردون عليه بأن الطربوش يلبسه السورى فهو غير قومى» .

[هكذا كان الاعتقاد فى معنى القومية فى ذلك الحين فلم تكن القومية، كما أشرنا فى حديثنا عن عبد الرحمن الرافعى، تعنى القومية العربية وإنما كانت تعنى القومية المصرية، ويتأكد هذا عند الحديث عمن ليس بقومى فإذا هو السورى.. وربما لم يكن محمد محمود يتصور ما حدث بعد ثلاثين عاما من وحدة مصر وسوريا] .

وبأن معظم المصريين يلبسون القبعة على البلاج، فيجيبهم عندئذ بأن «معظم الشوام يلبسون القبعة، وهم شرقيون أيضا أما إن كثيرين يلبسونها على البلاج وفى لعب

التنفس فهذا حقيقى»، وهو لا يمانع من لبسها فى الوقت الذى يشتد فيه القيظ.. ولتكن من النوع الرخيص (وهكذا انتقل محمد محمود باشا بقدرة قادر من مناقشة المبدأ إلى مناقشة التفاصيل)، أما فى الشتاء فإنه لا يرى ضرورة لبسها، إذ أن الطربوش فى شكله أظرف لباس للرأس (الحلول الوسط) أما من حيث المنفعة فلا منفعة له».

وفى آخر الحديث أبدى محمد محمود موافقته على عقد مؤتمر من مفكرى الأمة لابتكار زى خاص للمصريين (!!)

❑

أما الأستاذ الرافعى فهو يصل إلى حدود قصوى من التطرف فى محاربة القبعة يعبر عن وجهة نظره التى أبداها فى «الهلال» (نوفمبر ١٩٢٧) فيدافع عن الطربوش ويقول: إن القبعة على رأس المصرى منفردا بها دون قومه بائنا من جملتهم، إنما هى مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعى وانتكاس فى منطق الجملة المصرية».

إلى هنا ولا بأس يا أستاذنا الرافعى، ولكن اسمع معى الطامة الكبرى حين يقول الرافعى:

«ثم إنى مستيقن أن الأفكار الشرقية أو الإسلامية تحت القبعة هى غير ما تحت الطربوش، لأن تغيير الرمز يتغير به ما كان يلهمه، وهذا لا يكابر فيه أحد»

طبعا لايكابر أحد فى بعد هذا القول عن الصواب.

❑

ولكن كيف ذهب الطربوش إلى غير رجعة؟

قد يبدو هذا السؤال بعيدا عن موضوعنا الذى يستعرض نوعية الأفكار التى يدافع بها عن شأن من الشئون العامة، ولكنه فى الحقيقة متصل بالموضوع ليعطينا فكرة عن البديل، لا البديل الذى ننادى به، ولكن البديل الذى فرض نفسه مع تطور الحياة... ذلك أن الحياة والدنيا والكون لا تنتظر قرارات الزعماء ولكنها تفرض ما تريده الطبيعة وما يريده الزمن.

أما فيما يتعلق بدار العلوم فإنه فى سنة ١٩٢٧ بعد سقوط الوزارة الزيورية، وعودة الوزارة الدستورية، زار المدرسة وزير المعارف، على الشمسى باشا، فأعجب بسلوك الطلاب، وتأثر بما سمع من نثرهم ونظمهم، فبعث إلى الناظر بخطاب شكر لهم فيه بلاغتهم وحسن بيانهم. وفى منتصف ديسمبر سنة ١٩٢٧، أصدر قراراً وزاريا، بتلقيب طلبة وخريجى دار العلوم بلقب «أفندى» وبذلك انتهت المعركة مكللة بالفوز والنجاح.

❑

ولنستعرض الخطوات التى خطاها «الطربوش» نفسه إلى الذكرى على نحو ما يحدثنا التاريخ المعاصر.

فقد تبين لوزارة الحربية أنها تكلف الطيارين شططا، إذ يلبسون الطربوش فى أثناء عملهم فسنت لهم (من أول ١٩٢٩) بلبس «الفاروقية» للشتاء و«الفؤادية» للصيف فى أثناء عملهم فقط!

وهكذا كان الفضل الأكبر فى زوال الطربوش راجعا إلى نشأة سلاح جديد هو سلاح الطيران!

وبعدها بثمان سنوات (١٩٣٧) صدر الأمر العسكرى بتعميم «الفؤادية» و«الفاروقية» لرجال الجيش، إلا عندما يحضرون التشريفات والحفلات والولائم والمآدب..

فلما قامت الثورة أصبح رجال الحكم الجدد - وهم رجال الجيش - وعلى رءوسهم «الفاروقية أو الفؤادية» وأخذ الطربوش يجرى من على الرءوس سريعا سريعا..

حتى إذا كان نوفمبر ١٩٥٥ اعتمد (البكباشى) زكريا محيى الدين وهو وزير داخلية زيا جديدا لرجال الشرطة ليس فيه طربوش على الرأس.

كلية الطب ومجلة القصة القصيرة

ليس بالأمر الصعب على الكتاب الذين يتاح لهم أن يكتبوا ما يوصف بأنه متابعة للحركة الثقافية أن ينتهوا فى سرعة بالغة إلى أن «القصة المصرية» و«صحافة القصة المصرية» تواجه مأزقاً أو منحدراً أو موقفاً هو أقرب إلى عنق الزجاجة أو حتى شفا الحفرة.

وسيكون المثل الشاهد والمؤيد لكلام هؤلاء هو أن مجلة «القصة» التى تصدر عن نادى القصة والهيئة المصرية العامة للكتاب على وشك التوقف.

أما البحث عن السبب الذى وراء هذا التوقف فسيقودنا إلى حقيقة أكثر مرارة حتى إذا أخذنا بوجهة نظر الذين يطالبون بالإلغاء استناداً إلى أن توزيع المجلة لا يصل إلى ٤ ٪ من إجمالى المطبوع، فإذا مضينا على نفس الخط وسألنا الذين يقومون على أمر

مجلة القصة عن السبب فى هذا المعدل المنخفض من التوزيع وأجابوا أن انخفاض مستوى الثقافة يجعل نسبة الذين يقرأون لا تتجاوز هذا القدر الضئيل! فإن المسألة إذاً تمثل مأساة فوق مأساة.. وإذا مضينا على نفس الخط أيضا إلى محطة ثالثة وسألنا الجمهور فإننا نستمع إلى جمهرة من الأسباب لعل من أبرزها انخفاض مستوى المجلة، وانخفاض القدر المتاح من الوقت لقراءة أو متابعة هذا العمل.

ولكنى أتحدى أن تزداد نسبة الذين يقولون إنهم لا يجدون ما ينفقون على شراء المجلة على ٢ ـ ٣٪ من إجمالى مَنْ نسألهم عن السبب فى مثل هذه الظاهرة.

القضية إذاً مأساوية من جميع النواحى، والدارسون لتاريخ الأدب العربى المعاصر سيجدون بلاشك ما يجدونه فى دورات التاريخ السريعة المتأرجحة بين ازدهار واندحار أو انكسار، ويتبدى هذا بوضوح فيما يتعلق بالصحافة الثقافية حتى إنك لتستطيع أن ترصد فى الثلاثين عاما الأخيرة من عمر مصر ست دورات من الازدهار والانكسار، وتستطيع مع دراستك المستفيضة لتاريخ الوطن المعاصر أن ترصد فى الستين عاما الأخيرة عشر دورات من الازدهار والانكسار أيضا، ومن اللافت للنظر أن هذا يحدث فى معظم مجالات الثقافة والعلم والتعليم أو كلها وأن هذا النحو من الازدهار والانكسار المتعاقبين فى سرعة لا يحدث إلا فى هذه الميادين المتصلة بالفكر دون غيرها من ميادين الحياة.

❑

القضية إذاً تتمثل فى ظاهرة تذبذب أصبحت سرعته تزداد بحيث يقل الزمن المتاح أمام كل دورة (أو موجة) من دورات (أو موجات) الازدهار أو الانكسار.

وهذا كلام رياضى بحت يحتاج إلى شىء من التوضيح التطبيقى.

على سبيل المثال إذا أخذنا فى الاعتبار أن ظهور المجلة وصدورها واستمرارها هو دورة من دورات الازدهار، فإنك تستطيع أن تقارن بين عمر مجلة «الرسالة» لصاحبها

الأستاذ أحمد حسن الزيات فيما بين (٣٤ ـ ١٩٥٣) (١٩ عاما)، وبين عمر «الثقافة» للأستاذ أحمد أمين (٣٩ ـ ١٩٥٢) (١٣ عاما)، وبين عمر المجلتين اللتين وجدتا في السنوات الأخيرة وهما: «الجديد» (٧١ ـ ١٩٨٢)، و«الثقافة» (٧٢ ـ ١٩٨٢)، يحدث هذا فيما يتعلق بالمجلات الطويلة العمر، ودع عنك، إلى حين، المجلات القصيرة العمر، لأني لا أريد أن تذهب بعيداً في المدى الذي يصور لك الأمور على أنها ليست قتلاً مبكراً للشباب فحسب، ولكنها بالإضافة إلى ذلك وأد للبنات!!

دع عنك التفكير في مثل هذه الأمور، ولننصرف مؤقتا إلى التأمل في الأهمية أو الخطورة الحيوية لمثل هذه الظاهرة من قصر العمر، ماذا تمثل؟ وبماذا تنبئ؟ وإلام سوف تقود؟

هذا بمثابة بيت القصيد كما يقال في التعبيرات الجميلة.

❑

لندخل بيت القصيد من باب علم الصحة الذي علمنا ظاهرة عميقة لم يهتد إليها إلا الأفذاذ من العلماء بعد الأحقاب المتتالية من الخبرة حين قالوا إن «خير وسيلة لخفض معدلات الإنجاب هي خفض معدلات الوفاة»، وليسمح لي القارئ أن أقفز به من هذا المعنى العميق إلى حالتنا الراهنة مباشرة، وسوف يستنتج القارئ بنفسه ما أريد أن ألفت النظر إليه من أن موت مجلة كمجلة القصة التي تصدر عن نادي القصة والهيئة المصرية العامة للكتاب، ربما كان هو الدافع الأعمق والحقيقي وراء ظهور مجلة القصة التي تصدر عن نادي القصة في كلية طب الزقازيق، وما يناظرها من هذا الطراز من المجلات الإقليمية جداً.

وقبل أن ننتقل إلى المعنى التالي أود أن أشير إلى حقيقة أن الموت قد لا يقتصر على التوقف عن الصدور (هذا يناظر توقف القلب عن النبض الذي هو آخر مراحل الموت) وإنما هناك صور شتى من الموت العقلي أو الذهني أو الفكري أو العصبي أو

الحسى و الحركى. إلخ.. وكذلك هناك ما يناظرها فى عالم الفكر والثقافة والفن والأدب.

وربما نقفز هنا إلى سؤال مهم: هل من الضرورى لكى تصدر مجلة مثل مجلة القصة لنادى القصة فى طب الزقازيق أن تموت مجلة القصة التى تصدر عن نادى القصة القومى أو المصرى؟!

بالطبع ليس هذا بالأمر الضرورى.. ولكن الحادث يؤكد ترابط الحوادث على هذه الصورة التى قد يصل فيها الخلط إلى أبعد الحدود!!

❑

هل لى أن أسأل القارئ أن نعود الآن إلى أول سطر فى هذا الفصل، ونبدأ نفس البداية ولكن مع المعنى المضاد على طول الخط، وستكون العبارة عندئذ مخالفة تماماً للمعنى على أن المقدمة هى نفس المقدمة فى عبارتى الأولى .

سيكون النص حينئذ على النحو التالى:

«ليس بالأمر الصعب على الكتاب الذين يُتاح لهم أن يكتبوا شيئاً يوصف بأنه متابعة للحركة الثقافية أن ينتهوا فى سرعة بالغة إلى أن القصة المصرية وأن صحافة القصة المصرية تواجه ازدهارا وانتعاشا أو موقفا هو أقرب إلى عنان السماء، وسيكون المثل الشاهد والمؤيد لكلام هؤلاء هو أن هناك مجلة [وضع من أوصاف الإطراء ما تشاء] اسمها مجلة القصة تصدر عن نادى هو أحد النوادى [كذا] فى كلية [من ٢٢ كلية] فى جامعة [من ١٢ جامعة] فى مصر».

....

هذا نموذج لما يمكن أن يقال أو يكتب، وهو قد لا يعدو الحقيقة فى المقدمات ولكنه يجافيها فى النتائج ،ومثل هذا الكلام يقبله الذين يحبون الأمل ويقدرون العمل.. ولكن الذين يحبون العمل ويقدرون الأمل ينظرون إلى القضية من زاوية مختلفة تمام

الاختلاف عن النظرتين السابقتين، وقد يكون النظر من زاوية واحدة أصدق تعبيراً عن الوجهتين من النظر إلى كلتا الوجهتين معاً.

ولست أظننى قادراً على تلخيص كل ما يتعلق بهذا الموضوع من جوانب إبداعية وعملية، ولكنى، مع هذا، أعول على فهم القراء واستيعابهم لكل هذه الجوانب ومدلولاتها.

❑

لعلى أقفز بعد هذا إلى القيمة أو القيم، والفائدة والفوائد التى يمكن أن تتحقق من خلال صدور مثل هذه المجلة:

❑ فى مثل هذه المجلة يقرأ الشباب المنتمى إلى مجتمع يعرف بعضه بعضا فيدركون كيف يمكن التعبير عما يجيش بصدورهم أو قلوبهم أو عقولهم على النحو الذى عبر به مَنْ هم فى مثل ظروفهم أو سنهم أو قدراتهم.

❑ وبمثل هذه المجلة يثبت الشباب ذواتهم بعد أن يحققوها فى العمل الجاد الذى يمسكون بكل أطرافه، إخراجا وتبويبا ورسما وطباعة وتمويلا وتوزيعا.

❑ وعلى صفحات المجلة تنمو الموهبة: تنمو أولا حين أتيح لها أن ترى النور، أو حين أتيح للنور أن يراها، أو حين ساعد النور على هذا أو ذاك.

❑ وتنمو حين يستمع الكاتب إلى تعليقات الزملاء، ونقد القراء، وتشجيع الأحباء، بل شماتة الأعداء، وتنمو حين يغريه النجاح بالنجاح، والذيوع بالشيوع، واللمعان بالبريق!

❑ وتنمو حين تضاف الموهبة الجديدة إلى المواهب السابقة، وعندئذ يتسع عالم الموهوبين الذى ينتمى إليه صاحب الموهبة.

وبمثل هذه المجلة يدرك الناس - وهذا هو الأهم - أن التعبير عن الرأى يكون بوسيلة

مشرفة معبرة، وفوق هذا فإن باب الخلود أمامها مفتوح ـ لن يكلف (صاحبه) من الخبرة وطهارة اليد ـ ولن يكلف «المجتمع» سواء كان اتحاد الطلاب أو ناديا للشباب أو الجامعة أو الكلية .. إلخ، إلا قدرا يسيرا من المال مع قدر أكبر من الجهد المركز المتناسق الواعي.

❑

على أنى لا أود أن أترك هذه النقطة من غير أن أسارع إلى الرد على الذين سيرفعون الأيدى معترضين باعتذار عن نقص الخبرة التى أتيحت لهم فى هذا المجال.. وأشهد أنهم فى هذا صادقون كل الصدق، ومعذورون كل العذر، ومحقون كل الحق.

ولكننى لا أحب لهم أن يكون هذا الموقف مؤديا بهم إلى نهاية طريق ليبدأوا مسلكا آخر من الاعتماد على الغير، ولكنى أود لهم أن يبدأ الطريق من هذه النقطة.

فالخبرة فى واقع الأمر ليست إلا نتاج التجارب، والخبرة فى جوهوها ليست إلا نتاجاً لمجموعة من التجارب، تجربة وراء تجربة، وراء تجربة، ولو كانت تجربة واحدة كافية لاكتمال الخبرة لسعد الإنسان الأول ولتمتع منذ آلاف السنوات بالفيديو والتليفزيون على سبيل المثال.

التجارب عمر طويل، ولكن الخبرة مع هذا كيان جميل يتزايد باطراد ولا ينقص.. الخبرة مع هذا تراكمية الطابع، متداخلة العناصر، ويكفى أن أضرب لك مثلا بخبرة التعامل مع السوق وأهل السوق، فهذه تنمو معك بسرعة وتظل معك فى كل تعامل.

والخبرة تجربة واعية، فإذا كانت التجربة بلا وعى ظلت محاولات، وشتان بين محاولات تقف فى الطريق، وخبرة مكتملة باكتمال العمل.

والخبرة تجربة مدروسة، فإذا لم تكن هناك دراسة خرجت النتائج مشوهة، تستدعى من الناس الشفقة على الجهد الذى بذل فيها.

وفى مثل مجالنا هذا [أى فيما يتعلق بإصدار مطبوعة أدبية محلية متخصصة] فقد علمتنا الخبرة أن الجهد الأكبر يجب أن يوجه إلى الإعداد الجيد للماكيت والبروفات وذلك قبل النظر فى كل ما عدا ذلك من أمور.

وقد نصحت كثيراً من الزملاء الأعزاء بكل الإخلاص أن يوجهوا عنايتهم القصوى إلى هذه الناحية من الإعداد المتأنى الفنى المدروس الذى يُعنى بالفاصلة والنقطة والخط عنايته بالعنوان والموضوع فكانوا للأسف يعنون باسم كاتب المقال فحسب، فلم تنل الإساءة التى لحقت بالعمل فى النهاية إلا اسم كل كاتب مقال.

وإنما أريد بهذا أن أشير فى شىء من التفاصيل إلى ذلك الجهد الكبير من الإخراج الذى بذله الزميلان رئيس التحرير ومدير التحرير فى هذا العدد.

ومع هذا فإنى أحب أن أقول إن هذا ليس نهاية المطاف.. كنت أود ألا أقولها إلا أنى آثرت الصدق على الصداقة، وحب العمل على حب الأمل.

❑

وحين يزداد عدد هذه المجلات تزداد نوافذ حياتنا الثقافية.. وحين تزداد النوافذ وتزداد خبرتنا بما تأتينا به النوافذ من هواء ومن غير هواء، وبخصائص هذا الهواء الصحى نستطيع حينذاك، وأرجو لا يكون ذلك بعيدا، أن نكتشف أى النوافذ أنسب ليكون محل اعتمادنا الأساسى عليها، ويومئذ سوف نعطى هذه النافذة الوضع الذى يجب أن يكون لها على المستوى القومى من دون أن نغلق النوافذ الأخرى، بل على العكس من ذلك فإن التيار القوى الآتى من النافذة الواسعة سيفتح نوافذ أخرى لو تركت وذاتها لمالت إلى الانغلاق.

أليس هذا بخير وأجدى من محاولاتنا القومية الكبرى شبه الفاشلة أو المُفشلة أو المتهمة بالفشل؟؟

كتب للمؤلف

▢ فى التراجم

- الدكتور محمد كامل حسين (جائزة مجمع اللغة العربية) (طبعتان) ١٩٧٨، ٢٠٠٣
- مشرّفة بين الذرة والذروة (جائزة الدولة التشجيعية)(طبعتان) ١٩٨٠ ، ٢٠٠١
- الدكتور أحمد زكى - (طبعتان) ١٩٨٤ ، ٢٠٠٣
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل - ١٩٨٤
- صانع النصر سيرة حياة المشير أحمد إسماعيل - ٢٠٠٣
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض - ١٩٨٤
- الدكتور على باشا إبراهيم - ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمى باشا - ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا - ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية - ١٩٨٨
- اسماعيل صدقى باشا - ١٩٩٨

- سيد مرعى ـ ١٩٩٩
- يرحمهم الله ـ ١٩٨٤
- مصريون معاصرون ـ ١٩٩٩

❑ دراسات أدبية ولغوية

- كلمات القرآن التى لانستعملها (طبعتان) ـ ١٩٨٤
- فى ظلال السياسة: نجيب محفوظ الروائى بين المثالية والواقع ـ ٢٠٠٣
- من بين سطور حياتنا الأدبية ـ ١٩٨٤
- من بين سطور حياتنا الأدبية: ثلاثية التاريخ والسياسة والأدب ـ ٢٠٠٤
- على هوامش الأدب ـ ٢٠٠٣
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى(طبعتان) ـ ١٩٩٠

❑ دراسات نقدية لكتب السير والمذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين ـ ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة ـ ١٩٩٤
- الثورة والحرية: مذكرات المرأة المصرية (طبعتان) ـ ١٩٩٥ ، ٢٠٠٣
- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار (طبعتان) ـ ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء ـ ١٩٩٩
- الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث ـ ١٩٩٩
- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية ـ ١٩٩٩
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧) ـ ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٧٣) ـ ٢٠٠٠

- فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ - ١٩٧٢) ـ ٢٠٠٠
- على مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ - ١٩٥٢) ـ ٢٠٠١
- فى خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين ـ ٢٠٠٢

▫ أعمال موسوعية

- القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] ـ ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء) ـ ١٩٨٩ ـ ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث ـ ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق ـ ١٩٩٣

▫ أدبيات التاريخ المعاصر

- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة ـ ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) ـ ١٩٩٥، ١٩٩٧
- المحافظون (طبعتان) ـ ١٩٩٥
- البنيان الوزارى فى مصر [١٨٧٨ ـ ١٩٩٦] (طبعتان) ـ ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠] ـ ٢٠٠١
- قادة الشرطة فى السياسة المصرية [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٢] ـ ٢٠٠٣
- كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صنع القرار السياسى ـ ٢٠٠٣

▫ فى الفكر السياسى

- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً ـ ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان فى عصر جديد ـ ٢٠٠٣

□ فى الفكر التربوى

- مستقبل الجامعة المصرية ـ ٢٠٠٠
- آراء حرة فى التربية والتعليم ـ ٢٠٠١
- تكوين العقل العربى : مذكرات المفكرين والتربويين ـ ٢٠٠٣

□ فى الشئون العامة

- القاهرة تبحث عن مستقبلها ـ ٢٠٠٠
- مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) ـ ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج فى مصر ـ ١٩٨٧
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار ـ ٢٠٠١

□ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] ـ ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة فى عواطف الأنثى] ـ ١٩٩٩

□ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم(ثلاث طبعات) ـ ١٩٨٩ ، ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- شمس الأصيل فى أمريكا (طبعتان) ـ ١٩٩٤ ، ٢٠٠٣

□ فى تحقيق النصوص

- يوميات على مصطفى مشرفة (١٩١٨) ـ ٢٠٠٣

□ فى طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية ـ ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ـ ٢٠٠١

المحتويات